

الإصدار رقم (١٢٥)

سلسلة تهذيب كتب الإمام ابن قيم الجوزية (١٢)

تهذيب التبيان في أيمان القرآن

للإمام العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية

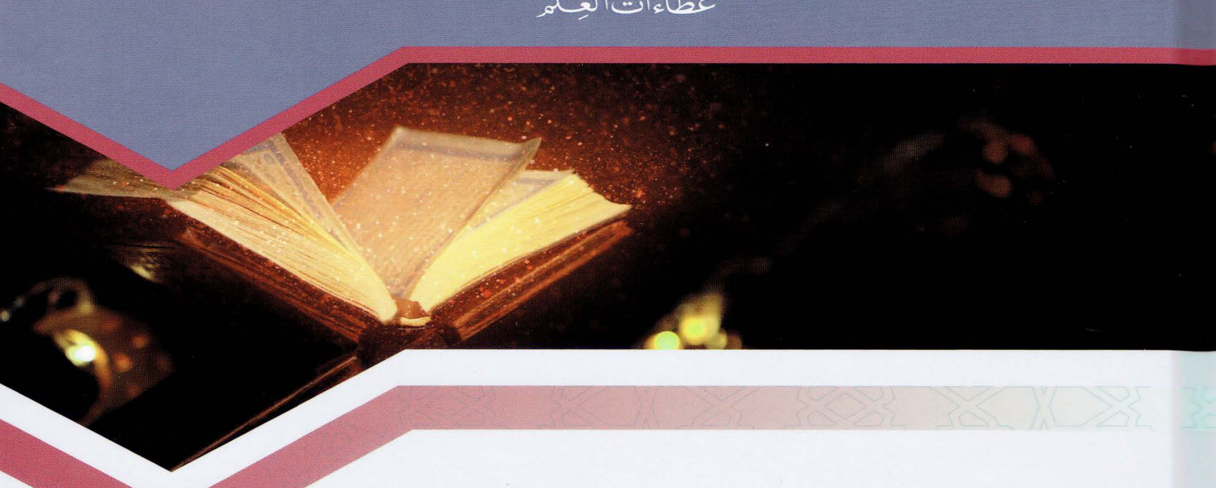
(٦٩١ - ٧٥١هـ)

إعداد

د. سلطان بن ناصر الناصر

إشراف

عطاءات العلم



دار عطاءات العلم


تهذيب
التبيان في أيمان القرآن

ⓒ دار عطاءات العلم للنشر، ١٤٤٥هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الناصر ، سلطان
تهذيب التبيان في أيمان القرآن. / سلطان الناصر - ط ١. .- الرياض ، ١٤٤٥هـ
٢١٩ ص ؛ ..سم
ردمك: ٣-١٠-٨٤١٠-٦٠٣-٩٧٨
١- علوم القرآن أ.العنوان
ديوي ٢٣٠ ٨٦٤ / ١٤٤٥
رقم الإيداع: ١٤٤٥/٨٦٤ ردمك: ٣-١٠-٨٤١٠-٦٠٣-٩٧٨

دار عطاءات العلم

info@ataat.com.sa
00966 559222543
@ ataat11

الطبعة الأولى
١٤٤٥هـ / ٢٠٢٣م

توزيـع

دار الحضارة



المملكة العربية السعودية - الرياض
daralhadarah@hotmail.com
الرقم الموحد: 920000908 الفاكس: 2702719 - 011
0551523173 @daralhadarah
زوروا متجر الحضارة
daralhadarah.net



الإصدار رقم (١٢٥)

سلسلة تهذيب كتب الإمام ابن قيم الجوزية (١٢)

تهذيب

التبيان في أيمان القرآن

للإمام العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية

(٦٩١ - ٧٥١ هـ)

إعداد

د. سلطان بن ناصر الناصر

إشراف

عطاءات العلم

دار عطاءات العلم


بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ نبيِّنا محمَّد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فإن «**عطاءات العلم**» بيت خبرة في تطوير البرامج العلمية الشرعية، ورعايتها، وتمكين العاملين فيها، وهي تسعىٰ إلىٰ الارتقاء بالجهات والبرامج العلمية الشرعية بطريقة منهجية، وصولًا لتحقيق مقاصد الشريعة، وترسيخ القيم الإسلامية.

لقد نهضت «**عطاءات العلم**» منذ تأسيسها بعدة مشاريع نوعية وفق منهجية احترافية، صممتها خصيصًا لصناعة المشاريع العلمية الشرعية، بين دراسات علمية محكّمة، ونصوص تراثية محققة، وبرامج تطويرية متخصصة، وموسوعات علمية إلكترونية متميزة، وسلسلة إصدارات كوكبة من الأئمة الأعلام، وغيرها من المشاريع والبرامج ذات الأثر العظيم والنفع العميم.

ولما كانت خدمة العلم الشرعي ونشره وتوريثه للأجيال المتعاقبة مما يجدر بأهل الإسلام الحرص عليه أولته «**عطاءات العلم**» عنايتها واهتمامها؛ فاحتضنت لأجله أحد مشروعاتها النوعية، وهو مشروع تحقيق آثار العلماء ونشرها، ومنها آثار الإمام ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، وذلك بطباعتها وتحقيقها تحقيقًا علميًّا لائقًا؛ بتوفير أفضل نسخها الخطية في العالم، ومقابلة نصوصها، وتحريرها، والتعليق عليها بما يخدمها، ويوضّح مقاصدها، وكتابة مقدمات تعرّف بكل كتاب وتكشف مزاياه، وصُنْع فهارس كاشفة مفصلة لعلومه وخباياه، في عمل علمي مبارك ابتدأ

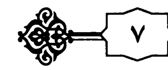
منتصف عام ١٤٢١هـ بإشراف الشيخ العلامة بكر بن عبد الله أبو زيد، وتمويل مؤسسة الشيخ سليمان الراجحي الخيرية، واستمر نحو عشرين عامًا حتىٰ سنة ١٤٤١هـ، ونفع الله به من شاء من عباده في مختلف بلدان العالم.

وحين انتهىٰ العمل من نشر هذه الكتب العلمية النافعة باتت الحاجة ماسة إلىٰ تقريب عيون هذه الكتب، وتهذيبها، واختصارها بمنهج علمي محكم، يسهم في توسيع دائرة الاستفادة من علومها وفوائدها لعموم القراء، الذين قد يحول بينهم وبين الانتفاع بها استطراد المؤلف وإسهابه في تقرير المسائل، والرد علىٰ المخالفين، ونحو ذلك، كما يستفيد منها المتخصصون في العلوم الشرعية الراغبون في خلاصات جامعة لأفكار الكتب لغرض المراجعة والاستذكار.

ويطيب اليوم لـ«**عطاءات العلم**» أن تقدم لأهل العلم وطلابه والحريصين علىٰ تراثه هذا المشروع العلمي الجديد في تهذيب نخبة من مؤلفات الإمام ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، وهو مشروعٌ علمي مبارك نهض به فكرةً وإعدادًا فضيلة الشيخ الدكتور سلطان بن ناصر الناصر (عضو المجلس الاستشاري لـ «**عطاءات العلم**»)، وتولت «**عطاءات العلم**» الإشراف عليه تتميمًا ومراجعةً وتوثيقًا وصفًّا وإخراجًا.

نسأل الله ﷻ أن ينفع بهذه الإصدارات العلمية المهذبة كما نفع بأصولها، وأن يبارك فيها وينفع بها الأمة، ويجزل الأجر، ويعظم المثوبة للشيخ سليمان بن عبد العزيز الراجحي ومؤسسته الخيرية علىٰ رعايتها المباركة التي أثمرت هذا المشروع وأصله، ولفضيلة الشيخ الدكتور سلطان بن ناصر الناصر وجميع المشاركين فيه، ويجعله من العلم النافع الذي يستمر ثوابه ولا ينقطع. والحمد لله أوَّلًا وآخرًا، وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ نبيِّنا محمَّد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.





مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين، ومن تبع هداهم واقتفىٰ سننهم إلىٰ يوم الدين.

أما بعد: فإن الإمام الحافظ أبا عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر، المعروف بـ«ابن قيم الجوزية»، المولود سنة ٦٩١، والمتوفىٰ سنة ٧٥١ هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ من أعلىٰ أهل العلم مرتبة في جودة التصنيف وكثرة التأليف، وقد أسبغ الله علىٰ كتبه من النضارة وجمال العبارة ما بهر عقول العلماء؛ لما فيها من استقصاء أصول المسائل وآثارها، وإبراز مقاصد الشريعة وأسرارها، فصار لها من القبول والانتشار والأثر ما هو لائق بتلك العلوم والفوائد والدرر.

ولما كانت مؤلفات هذا الإمام الجليل زاخرة بالتحقيقات العلمية والتجليات الإيمانية التي تعظم حاجة الناس إلىٰ مداومة النظر فيها علىٰ اختلاف مستوياتهم المعرفية، فضلًا عن طلاب العلوم الشرعية، والتي قد يحول دون قراءتها وورودُها بين أمواج بحر تقريراته وردوده ذات النفس الطويل؛ ظهرت الحاجة لتقريب مصنفاته بتقديم تهذيبات علمية مركزة لمباحثها وأفكارها، دون ما فيها من الاستطرادات التي لا تكون محل اهتمام لدىٰ غير المختصين بموضوعاتها، فجاء هذا العمل محققًا لتلك الغاية الشريفة، خدمةً لعموم المسلمين وخاصتهم، سواء منهم من لم يتسنَّ له قراءة الأصل، ومن أراد تكرار النظر في زبدة ذلك الأصل،

وجاريًا علىٰ طريقة أهل العلم في اختصار التصانيف وتهذيبها، وذلك من أغراض التأليف ومقاصده المشهورة، كما عبَّر عنه ابن خلدون في مقدمته بقوله: «أن يكون الشيء من التآليف التي هي أمهات للفنون مطولًا مسهبًا؛ فيقصد بالتأليف تلخيص ذلك بالاختصار والإيجاز وحذف المتكرر إن وقع».

وقد جرى العمل في التهذيب وفق منهج يتلخص فيما يأتي:

١- إثبات ألفاظ المؤلف بدون تصرف فيها، ولا زيادة عليها.

٢- المحافظة علىٰ ترتيب ورود النصوص في الأصل بدون تقديم أو تأخير.

٣- الاقتصار علىٰ صلب الفكرة المقصودة، وحذف الاستطرادات، مع الحرص علىٰ إظهار السياق علىٰ نحوٍ متسق.

٤- الاختصار في عرض الأقوال والأدلة والنقاشات والتعريفات ونحوها.

٥- إثبات جميع عناوين الأبواب والفصول، ولو كان المحذوف فيها كثيرًا.

٦- إبراز بعض الفوائد والعبارات الصالحة للانتقاء والاقتباس، وذلك بتحبيرها باللون الأحمر.

٧- وضع قائمة في آخر التهذيب بالفوائد والعبارات المنتقاة التي وردت في الأصل، ولم تثبت في التهذيب؛ نظرًا لعدم ملاءمتها للسياق؛ لورودها في نصٍّ لم يطابق شرط التهذيب.

٨- الاعتماد علىٰ النص المحقق في الإصدارات العلمية المتقنة التي تولت نشرها والإشراف عليها «عطاءات العلم».

وقد تكرمت «عطاءات العلم» جزاها الله خيرًا بخدمة التهذيب بما يأتي:

١- تخريج الأحاديث تخريجًا مختصرًا من حواشي الأصل.

٢- شرح الألفاظ الغريبة شرحًا مختصرًا مستفادًا من حواشي الأصل.

٣- وضع عناوين جانبية للموضوعات في بداية الفصول.

٤- وضع أرقام صفحات الأصل علىٰ هامش الصفحات الأيمن والأيسر.

٥- وضع فهرس للفوائد والعبارات الصالحة للاقتباس في نص التهذيب أو النصوص المحذوفة من الأصول.

٦- وضع فهرس مفصل للكتاب.

٧- مراجعة التهذيب وتحكيمه علميًّا.

٨- التجهيز للطباعة.

وأجزل الشكر وأوفاه للمؤسسة العلمية الرائدة «**عطاءات العلم**» لجهودها في خدمة هذا المشروع، ولكل من أسهم في إنجازه بسهم، تحقيقًا لأصوله، ومراجعة لنصوصه، وتنسيقًا لها وإخراجًا، تقبل الله من الجميع أعمالهم، وبارك فيها، وجعلها خالصة لوجهه، إنه سميع مجيب.

وكتب

د. سُلطان بن ناصِر النّاصِر


عطاءات العلم

ص: ٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والعاقبة للمتقين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ربُّ العالمين، وقيُّومُ السمواتِ والأرضين. وأشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، المبعوثُ بالكتاب المبين، الفارق بين الغَيِّ والرَّشَادِ، والهُدَىٰ والضلالِ، والشَّكِّ واليقينِ، صلَّىٰ الله عليه وعلىٰ آله الطَّيِّبين الطَّاهِرين، صلاةً دائمةً بدوام السموات والأرضين.

وبعد:

فهذا كتابٌ صغير الحجم، كبير النفع، فيما وقع في القرآن العزيز من الأَيْمَانِ والأَقْسَام، والكلام عليها يَمِينًا، وارتباطها بالمُقْسَمِ عليه، وذكر أجوبة القَسَم المذكورة والمقدَّرة، وأسرار هذه الأقْسَام، فإنَّ لها شأنًا عظيمًا يعرفه الواقف عليه في هذا الكتاب، وسَمَّيتُه: «كتابَ التِّبْيانِ في أيْمَانِ القرآنِ».

واللهُ المسؤولُ أن ينفع به من قرأه وكتبه ونظر فيه، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، سببًا لمغفرته.

فما كان فيه من صوابٍ فمِنَ الله فَضْلًا ومِنَّةً، وما كان فيه من خطأ فَمِنِّي ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه.

فيا أيُّها القارئُ؛ لك غُنْمُه، وعلىٰ مؤلِّفه غُرْمُه، ولم يَأْلُ في معرفة المراد، والله وليُّ التوفيق والسَّدَاد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

اعلم أنَّ الله - سبحانه - يُقْسِمُ بأمورٍ علىٰ أمورٍ، وإنَّما يُقْسِم بنفسِهِ المُقَدَّسَةِ الموصُوفَةِ بصفاتِه، أو آياتِه المستلزِمة لِذَاتِه وصفاتِه، وإقْسَامُه ببعض المخلوقات دليلٌ علىٰ أنَّه من عظيم آياته.

فالقَسَمُ:

إمَّا علىٰ جملةٍ خبريةٍ - وهو الغالب - كقوله تعالىٰ: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات:٢٣].

وإمَّا علىٰ جملةٍ طلبيةٍ، كقوله ﷻ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٣﴾ [الحجر:٩٢، ٩٣].

مع أنَّ هذا القَسَمَ قد يُرَادُ به تحقيقُ المُقْسَم عليه، فيكون من باب الخبر، وقد يراد به تحقيق القَسَم.

والمُقْسَمُ عليه يُرَاد بالقَسَم توكيدُهُ وتحقيقُهُ، فلا بدَّ أن يكون ممَّا يَحْسُن فيه ذلك، كالأمور الغائبة والخَفِيَّة إذا أُقْسِمَ على ثبوتها.

فأمَّا الأمور المشهودة الظاهرة كالشمس، والقمرِ، واللَّيلِ، والنَّهارِ، والسماءِ، والأرضِ، فهذه يُقْسَمُ بها ولا يُقْسَمُ عليها.

وما أقْسَمَ عليه الرَّبُّ - سبحانه - فهو من آياته، فيجوزُ أن يكون مُقْسَمًا به، ولا ينعكس.

فهو - سبحانه - يذكر جوابَ القَسَم تارةً - وهو الغالب -، وتارةً يحذفه، كما يحذف جواب «لو» كثيرًا، كقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾ [التكاثر:٥] وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾ [الرعد:٣١]، ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنفال:٥٠]، ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ﴾ [سبأ:٥١]، ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾ [الأنعام:٣٠].

ومثل هذا حذفه من أحسن الكلام؛ لأنَّ المراد: «أنَّك لو رأيتَ ذلك لرأيت هَولًا عظيمًا»، فليس في ذكر الجواب زيادةٌ علىٰ ما دلَّ عليه الشَّرطُ.

وهذه عادةُ النَّاس في كلامهم، إذا رَأَوا أمورًا عجيبةً وأرادوا أن يُخبروا بها لغائبٍ عنها؛ يقول أحدُهم: لو رأيتَ ما جرىٰ يوم كذا بموضع كذا.

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة:١٦٥]، فالمعنىٰ - في أظهر الوجهين -: لو يَرىٰ الذين ظلموا في الدنيا إذ يرون العذاب في الآخرة، والجواب محذوف. ثُمَّ قال بعد ذلك: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾. كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ﴾ [سبأ:٥١]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ [الأنفال:٥٠]؛ أي: لو ترىٰ ذلك الوقت وما فيه.

وأمَّا المُقْسَمُ عليه؛ فإنَّ الحالِفَ قد يحلف علىٰ الشيء ثُمَّ يكرِّرُ القَسَمَ ولا يعيد المُقْسَم عليه، لأنَّه قد عُرِفَ ما يحلف عليه، فيقول: واللهِ إنَّ لي عليه ألفَ درهمٍ، ثُمَّ يقول: ورَبِّ السماءِ والأرضِ، والذي نفسي بيده، وحَقِّ القرآنِ العظيمِ، ولا يعيدُ المُقْسَمَ عليه، لأنَّه قد عُرِفَ المُرادُ.

والقَسَمُ لمَّا كان يكثر في الكلام اختُصِرَ، فصارَ فِعْلُ القَسَم يُحذَف ويكتفىٰ بـ «الباء»، ثُمَّ عُوِّض من «الباءِ»: «الواوُ» في الأسماء الظاهرة، وبـ «التاء» في اسم الله كقوله تعالىٰ: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم﴾ [الأنبياء:٥٧]، وقد نُقِل: «تَربِّ الكعبةِ»، وأمَّا «الواو» فكثيرٌ.

فصل

ص: ٨

إقسام الله تعالى على أصول الإيمان

إذا عُرِف هذا؛ فهو - سبحانه - يُقْسِمُ علىٰ أصول الإيمان، التي يجب علىٰ الخلق معرفتُها: تارةً يُقْسِمُ علىٰ التوحيد، وتارةً يُقْسِمُ علىٰ أنَّ القرآنَ حقٌّ، وتارةً علىٰ أنَّ الرسولَ حقٌّ، وتارةً علىٰ الجزاء والوعد والوعيد، وتارةً علىٰ حال الإنسان.

فالأوَّل: كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾﴾ [الصافات:١-٤].

والثاني: كقوله تعالىٰ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [الواقعة:٧٥-٧٧].

وقوله: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾﴾ [الدخان:١-٣].

والقَسَمُ علىٰ الرسول ﷺ؛ كقوله: ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [يس:١-٤] إذا قيل هو الجواب. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾ [القلم:١-٢].

ومنه: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ [النجم:١-٢] إلىٰ آخر القصة.

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ الآية [الحاقة:٣٨-٤١].

وأمَّا القَسَم علىٰ الجزاء والوعد والوعيد؛ ففي مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾ [الذاريات:١] إلىٰ آخر القَسَم، ثُمَّ ذَكَر تفصيل الجزاء، وذكَر الجنَّة والنَّار، وذكر أنَّ في السماء رزقكم وما توعدون، ثُمَّ قال: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات:٢٣].

ومثل قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ إلىٰ قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ [المرسلات:١-٧].

ومثل: ﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾﴾ إلىٰ قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾ [الطور:١-٨].

وقد أمر نبيَّه أن يُقْسِمَ علىٰ الجزاء والمَعَاد في ثلاث آيات:

١ - فقال تعالىٰ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ الآية [التغابن:٧].

٢ - وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ:٣].

٣ - وقال تعالىٰ: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّۖ﴾ [يونس:٥٣].

وهذا لأنَّ المَعَادَ إنَّما يعلَمُه عامَّة النَّاس بإخبار الأنبياء، وإن كان من النَّاس من قد يعلمه بالنَّظَر.

وأمَّا القَسَم علىٰ أحوال الإنسان؛ فكقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ إلىٰ قوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل:١-٤] إلىٰ آخر السورة.

ولفظ «السَّعيِ» هو: العمل، لكن يراد به العمل الذي يهتمُّ به صاحبُه، ويجتهد فيه بحسب الإمكان؛ فإن كان يفتقر إلىٰ عَدْوِ بَدَنِهِ عَدَا، وإن كان يفتقر إلىٰ جمْع أعوانٍ جَمَع، وإن كان يفتقر إلىٰ تفرُّغٍ له وتَرْكِ غيرِه؛ فَعَل ذلك.

فلفظ «السَّعْي» في القرآن جاء بهذا الاعتبار، ليس هو مُرادِفًا للفظ العمل كما ظنَّهُ طائفةٌ، بل هو عملٌ مخصوصٌ يهتَمُّ به صاحبه، ويجتهد فيه، ولهذا قال في الجُمُعَة: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة:٩]، وهذه أحسن من قراءة من قرأ: «فامضوا إلىٰ ذكر الله»(١).

وكذلك قوله ﷻ في قصة فرعون لمَّا قال له موسىٰ: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ إلىٰ قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ [النازعات:١٨-٢٣]، فهذا اهتمامٌ واجتهادٌ في حَشْدِ رعيته، ومناداته فيهم.

---

(١) انظر: «المحتسب» لابن جنِّي (٢/ ٣٢١ - ٣٢٢).



وكذلك قوله: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ﴾ [البقرة:٢٠٥] هو عَمَلٌ بِهِمَّةٍ واجتهادٍ.

ومنه سُمِّيَ السَّاعي على الصدقة، والسَّاعي على الأَرْملةِ واليتيم.

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل:٤]؛ وهو العمل الذي يقصده صاحبه ويعتني به، لِيَتَرَتَّبَ عليه ثوابٌ أو عقابٌ، بخلاف المباحات المعتادة، فإنَّها لم تدخل في هذا السَّعْي، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ [الليل:٥،٦] الآية وما بعدها.

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [الإسراء:١٩].

وقوله ﷻ: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ ﴾ [المائدة:٣٣].

فصل

ص: ١٣

إقسام الله تعالى على صفة الإنسان

وأَقْسَمَ علىٰ صفة الإنسان بقوله سبحانه: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ إلىٰ قوله: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات:١-٦].

وأقسم علىٰ عاقبته، وهو قَسَمٌ علىٰ الجزاء؛ في قوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر:١-٢] إلىٰ آخر السورة. وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين:١-٦].

وحَذَفَ جوابَ القَسَم؛ لأنَّه قد عُلِم أنَّه يُقْسِمُ علىٰ هذه الأمور، وهي متلازمة،

فمتىٰ ثبت أنَّ الرسول حقٌّ ثبت القرآنُ والمَعَادُ، ومتىٰ ثبت أنَّ القرآن حقٌّ ثبت صدق الرسول الذي جاء به، ومتىٰ ثبت أنَّ الوعد والوعيد حقٌّ ثبت صدقُه وصدقُ الكتاب الذي جاء به.

والجوابُ يُحذَف تارةً ولا يُراد ذِكْرُه، بل يراد تعظيمُ المُقْسَمِ به، وأنَّه ممَّا يُحلَفُ به، كقول النبيِّ ﷺ: «من كان حالفًا فَلْيَحلِفْ باللهِ أو لِيَصْمُتْ»[١].

لكن هذا في الغالب يُذْكَرُ معه الفعلُ دون مجرَّدِ حرف القَسَم، كقولك: فلانٌ يَحْلِفُ باللهِ وحده، وأنا أحلفُ بالخالق لا بالمخلوق، ونحوِ ذلك - فالنصرانيُّ يحلفُ بالصليب والمسيح -، وفلانٌ أكذَبُ ما يكون إذا حلف بالله.

وقد يكون هذا النَّوع بحرف القَسَم مجرَّدًا، كما في الحديث: كانت أكثرُ يمينِ رسولِ الله ﷺ «لا، ومُقَلِّب القُلُوبِ»[٢]. وكان بعض السلف إذا اجتهد في يمينه قال: «واللهِ الذي لَا إله إلَا هو».

وتارةً يُحذَفُ الجوابُ وهو مرادٌ؛ إمَّا لكونه قد ظَهَر وعُرِف: إمَّا بدلالة الحال - كمن قيل له: كُلْ، فقال: لا؛ واللهِ الذي لا إله إلا هو -، أو بدلالة السياق.

وأكثر ما يكون هذا إذا كان في نفس المُقْسَمِ به ما يَدُلُّ علىٰ المُقْسَم عليه، وهي طريقة القرآن، فإنَّ المقصود يحصل بذكر المقسَم به، فيكون حَذْفُ المُقْسَم عليه أبلغَ وأوجزَ؛ كمن أراد أن يُقْسِمَ علىٰ أن الرسولَ حقٌّ، فقال: والذي أرسلَ محمدًا ﷺ بالهدىٰ ودين الحقِّ، وأيَّدَهُ بالآياتِ البينات، وأظهرَ دعوته، وأَعْلَىٰ كلمته، ونحو ذلك؛ فلا يحتاج إلىٰ ذكر الجواب، استغناءً عنه بما في القَسَم من الدلالة عليه.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٧٠)، ومسلم (١٦٤٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٤٣).

وكَمَن أراد أن يُقسِم علىٰ التوحيدِ، وصفاتِ الرَّبِّ ونعوتِ جلاله، فقال: واللهِ الذي لا إله إلا هو، عالمِ الغيبِ والشهادةِ، الرحمنِ الرحيمِ، الأوَّلِ الآخِرِ، الظاهرِ الباطنِ.

وكمن أراد أن يقسم علىٰ علُوِّه فوق عرشه، فقال: والذي استوىٰ علىٰ عرشه فوق سمواته، يصعد إليه الكَلِمُ الطَّيِّبُ، وتُرفَعُ إليه الأيدي، وتَعْرُجُ الملائكةُ والرُّوحُ إليه، ونحو ذلك.

وكذلك من حَلَفَ لشخصٍ أنَّه يُحِبُّهُ ويُعَظِّمُه، فقال: والذي ملأ قلبي من محبتِكَ وإجلالِكَ ومَهَابتِكَ...؛ ونظائر ذلك = لم يحتج إلىٰ ذكر الجواب، وكان في المُقْسَم به ما يدلُّ علىٰ المُقْسَمِ عليه.

فمن هذا قوله تعالىٰ: ﴿صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص:١]، فإنَّ في المُقْسَم به من تعظيم القرآن، ووَصْفِه بأنَّه ذُو الذِّكْر - المتضمِّن لتذكير العباد ما يحتاجون إليه -، وللشَّرَفِ، والقَدْر = ما يدلُّ علىٰ المُقْسَم عليه، وهو كونه حقًّا من عند الله، غير مفترىً كما يقوله الكافرون.

هذا معنىٰ قول كثير من المفسِّرين - متقدِّميهم ومتأخِّريهم -: إنَّ الجوابَ محذوفٌ، تقديرُه: إنَّ القرآن لَحَقٌّ. وهذا مطَّرد في كلِّ ما شابَهَ ذلك.

وأمَّا قول بعضهم: إنَّ الجوابَ قوله تعالىٰ: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ [ص:٣] فاعترَضَ بين القَسَم وجوابه بقوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص:٢] = فبعيدٌ؛ لأنَّ «كَمْ» لا يُتَلَقَّىٰ بها القَسَم، فلا تقول: واللهِ كم أنفقتُ مالًا، وباللهِ كم أعتقتُ عبدًا.

وهؤلاء لمَّا لم يخْفَ عليهم ذلك احتاجوا إلىٰ أن يقدِّروا «لامًا» يُتَلقَّىٰ بها الجواب، أي: لَكَمْ أهلكنا.

وأبعد من هذا قول من قال: الجواب في قوله: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾

[ص:١٤].

وأبعد منه قول من قال: الجواب: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾ [ص:٥٤].

وأبعد منه قول من قال: الجواب قوله: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ [ص:٦٤].

وأقرب ما قيل في الجواب لفظًا، وإن كان بعيدًا معنىً ما ذكر عن قتادة وغيره: إنَّه في قوله تعالىٰ: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ① بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ [ق:١-٢].

وشرح صاحب «النَّظْم» هذا القول، فقال: «معنىٰ «بل» توكيد الخبر الذي بعده، فصار كـ«إنَّ» الشديدة في تثبيت ما بعدها.

فـ «بَلْ» ههنا بمنزلة «إنَّ»؛ لأنَّه يؤكِّد ما بعده من الخبر، وإن كان له معنىً سواه في نفي خبرٍ متقدِّمٍ، فكأنَّه ﷺ قال: «ص والقرآن ذي الذِّكْر، إنَّ الذين كفروا في عِزَّةٍ وشقاقٍ»، كما تقول: والله إنَّ زيدًا لَقَائمٌ».

قال: «واحتجَّ صاحبُ هذا القول بأنَّ هذا النَّظْمَ وإن لم يكن للعرب فيه أصلٌ، ولا لها فيه رسمٌ، فيحتمل أن يكون نظمًا أحدثه الله ﷻ، لما بينَّا من احتمال «بل» بمعنىٰ «إنَّ»» انتهىٰ.

وقال أبو القاسم الزجَّاجيُّ: «قال النحويون: إنَّ «بَلْ» تقع في جواب القَسَم، كما تقع «إنَّ»؛ لأنَّ المراد بها توكيد الخبر».

وهذا القول اختيار أبي حاتم، وحكاه الأخفش عن الكوفيين.

وذكر النحَّاسُ وغيرُه وجهًا آخر في الجواب، وهو أنَّه محذوفٌ تقديره: والقرآن ذي الذِّكْر، ما الأمرُ كما يقوله هؤلاء الكفار. ودلَّ علىٰ المحذوف قوله تعالىٰ: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾.

وهذا اختيار ابن جرير[١]، وهو مخرَّجٌ من قول قتادة، وشَرَحه الجُرْجَانيُّ، فقال: «﴿بَلْ﴾ رافِعٌ لخبرِ قبله، ومثبتٌ لخبرِ بعدَه، فقد ظهر ما بعده، وأُضْمِرَ ما قبله، وما بعده دليلٌ علىٰ ما قبله، فالظاهر يدلُّ علىٰ الباطن، فإذا كان كذلك وجَبَ أن يكون قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ مخالفًا لهذا المُضْمَر، فكأنَّهُ قيل: والقرآن ذي الذِّكْر إنَّ الذين كفروا يزعمون أنَّهم علىٰ الحقِّ، أو كلامًا في هذا المعنىٰ».

ونظير هذا قوله تعالىٰ: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ﴾ [ق:١-٢].

وقيل: جواب القسم ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا﴾.

وقال الفرَّاء: «محذوفٌ، دلَّ عليه ﴿أَءِذَا مِتۡنَا﴾ أي: لتُبْعَثُنّ»[٢].

وقيل: هو ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ﴾، كما تقدَّم بيانُه.

فصل

ص: ٢٢

قسم الله تعالى بيوم القيامة

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [القيامة:١-٢]، فقد تضمَّن هذا الإقسام ثبوتَ الجزاء، ومستَحقَّ الجزاء، وذلك يتضمَّن إثبات: الرِّسَالةِ، والقرآنِ، والمَعَادِ.

وهو - سبحانه - يُقْسِم علىٰ هذه الأمور الثلاثة، ويقرِّرُها أبلغ التقرير، لحاجة النفوس إلىٰ معرفتها، والإيمان بها، وأمر رسوله ﷺ أن يُقْسِم عليها، كما:

١ - قال تعالىٰ: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ﴾ [يونس:٥٣].

٢ - وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ [سبأ:٣].

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١٠/ ٥٤٧).

(٢) «معاني القرآن» للفرَّاء (٣/ ٧٥).

٣ - وقال تعالىٰ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن:٧].

وقد تقدَّم(١) إقسامُه عليها في ثلاثة مواضعَ من كتابه لا رابع لها، يأمر رسوله ﷺ أن يُقْسِم علىٰ ما أَقْسَمَ عليه هو - سبحانه - من: النُّبوَّةِ، والقرآنِ، والمَعَادِ.

فأقسم - سبحانه - لعباده، وأمَرَ أَصْدَق خَلْقِه أن يُقْسِم لهم، وأقام البراهين القطعيَّةَ علىٰ ثبوت ما أقسم عليه، فأبىٰ الظالمون إلا جحودًا وتكذيبًا.

واختُلِفَ في «النَّفْسِ» المُقْسَم بها ههنا، هل هي خاصَّةٌ أو عامَّة؟ علىٰ قولين، بناءً علىٰ الأقوال الثلاثة في «اللوَّامة»:

فقال ابن عباس: «كلُّ نفسٍ تَلُومُ نفسَها يوم القيامة؛ يَلُومُ المُحْسِنُ نفسه أن لا يكون ازداد إحسانًا، ويَلومُ المُسِيء نفسه أن لا يكون رجع عن إساءته».

والقول الثاني: أنَّها خاصَّةٌ.

قال الحسن: «هي النَّفْسُ المؤمنة، فإنَّ المؤمن - واللهِ - لا تَرَاهُ إلا يَلُوم نفسه علىٰ كلِّ حالِهِ، لأنَّه يَسْتَقْصِرُها في كلِّ ما تفعل، فيندمُ ويلومُ نفسَهُ، وإنَّ الفاجر يمضي قُدُمًا، لا يعاتبُ نفسَهُ»(٢).

والقول الثالث: أنَّها النَّفْس الكافرة وحدها، قاله: قتادة، ومقاتل(٣)؛ هي النَّفْس الكافرة تلوم نفسها في الآخرة علىٰ ما فرَّطَت في أمر الله.

---

(١) ينظر: (ص: ١٤).

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده علىٰ «الزهد» رقم (١٦٢١).

(٣) «تفسير مقاتل» (٣/ ٤٢١).

قال شيخنا[١]: «والأظهر أنَّ المرادَ نفسُ الإنسانِ مطلقًا، فإنَّ نفسَ كلِّ إنسانٍ لوَّامَةٌ، كما أقسم بجنس «النَّفْس» في قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس:٧، ٨]، فإنَّه لا بدَّ لكلِّ إنسانٍ أن يلوم نفسَه أو غيرَه علىٰ أمرٍ.

ثُمَّ هذا اللَّومُ قد يكون محمودًا، وقد يكون مذمومًا، كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ۝٣٠ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ۝٣١﴾ [القلم:٣٠، ٣١]، وقال تعالىٰ: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة:٥٤]، فهذا اللَّومُ غير محمود.

وفي «الصحيحين»[٢] في قصة احتجاج آدم وموسىٰ: «أَتَلُومني علىٰ أمرٍ قدَّرَهُ اللهُ عليَّ قبل أن أُخْلَق؟» قال: فحَجَّ آدمُ موسىٰ... الحديث.

فهو - سبحانه - يُقْسمُ علىٰ صفة «النَّفْس اللوَّامة» كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات:٦]، وعلىٰ جزائها كقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ [الحجر:٩٢، ٩٣]، وعلىٰ تباين عملها كقوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل:٤]».

وكلُّ نفسٍ لوَّامةٌ، فالنَّفْسُ السعيدة تلوم علىٰ فعلِ الشَّرِّ، وتركِ الخير، فتبادر إلىٰ التوبة، والنَّفْسُ الشَّقِيَّةُ بالضدِّ من ذلك.

وجمع - سبحانه - في القَسَمَ بين: مَحَلِّ الجزَاءِ وهو يوم القيامة، ومَحَلِّ الكَسْبِ وهو «النَّفْس اللوَّامة».

ونبَّهَ - سبحانه - بكونها «لوَّامَةً» علىٰ شِدَّة حاجتها وفاقتها وضرورتها إلىٰ من يُعَرِّفُها الخيرَ والشَّرَّ، ويَدُلُّها عليه، ويرشدُها إليه، ويُلْهِمُها إيَّاه؛ فيجعلَها مريدةً

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٢٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٢٨)، ومسلم (٢٦٥٢).

للخير، مُؤْثِرةً له، كارهةً للشَّرِّ، مُجَانبةً له، لتَخْلُصَ من اللَّوم، أو من سوء عاقبة ما تلوم عليه.

ففي صفة «اللَّوْم» تنبيهٌ علىٰ ضرورتها إلىٰ التصديق بالرِّسَالة والقرآن، وأنَّها لا غنىٰ لها عن ذلك، ولا صلاح ولا فلاح بدونه أَلْبَتَّةَ.

ولمَّا كان يومُ مَعَادِها هو مَحَلُّ ظهور هذا اللَّوْم، وترتُّبِ أثره عليه = قَرَنَ بينهما في الذِّكْرِ.

فصل

ص: ٢٦

قسم الله تعالى بالآيات الكونية

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾ [الشمس:١-٢،٨].

قال الزجَّاج وغيرُه: «جواب القسم: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾، ولمَّا طالَ الكلامُ حَسُن حذف «اللَّام» من الجواب»[١].

وقد تضمَّن هذا القَسَمُ الإقسامَ بالخلَّاق والمخلوقِ، فأقسم بالسماءِ وبانيها، والأرضِ وَطَاحِيها، والنَّفْسِ ومُسَوِّيها.

وقد قيل: إنَّ «ما» مصدريَّة، فيكون الإقسامُ بنفس فعله تعالىٰ، فيكون قد أقسم بالمصنوع الدَّالِّ عليه سبحانه، وبصنعته الدَّالَّةِ علىٰ كمال علمه، وقدرته، وحكمته، وتوحيده.

ولمَّا كانت حركة الشمس والقمر، والليل والنَّهار؛ أمرًا يشْهَدُ النَّاسُ حُدُوثَهُ شيئًا فشيئًا، ويعلمون أنَّ الحادث لابدَّ له من مُحْدِث = كان العلم بذلك منزَّلًا منزلة

(١) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجَّاج (٥/ ٣٣١).

ذكر المُحْدِثِ له لفظًا، فلم يذكر الفاعل في الأقسام الأربعة الأُوَل.

ولمَّا كانت السماءُ والأرضُ ثابتتين - حتَّىٰ ظَنَّ من ظَنَّ أنَّهما قديمتان - ذكر مع الإقسام بهما بانيهما ومبدعهما، وكذلك «النَّفْس»؛ فإنَّ حدوثَها غيرُ مشهودٍ، حتَّىٰ ظنَّ بعضُهم قِدَمَها، فذَكَرَ مع الإقسام بها مُسَوِّيها وفاطِرَها، هذا مع ما في ذكر بناءِ السماء، وطَحْوِ الأرض، وتسوية «النَّفس»؛ من الدلالة علىٰ الرحمة والحكمة والعناية بالخلق، فإنَّ بناء السماء يدلُّ علىٰ أنَّها كالقُبَّةِ العالية علىٰ الأرض، وجعلها سقفًا لهذا العالم.

و«الطَّحْو»: هو مَدُّ الأرض وبسطُها، وتوسيعُها ليستقرَّ عليها الأنامُ والحيوانُ، ويمكن فيها البِنَاء والغِرَاس والزرع.

وكذلك «النَّفْسُ»؛ أقسمَ بها وبمن سوَّاها، وألهمها فجورها وتقواها.

فأعلمنا أنَّه خالق نفوسنا وأعمالها، وذكر لفظ «التسوية» - كما ذكره في قوله تعالىٰ: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار:٦، ٧]، وفي قوله ﷻ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر:٢٩]- إيذانًا بدخول البدن في لفظ «النَّفْس»، كقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأعراف:١٨٩] وقوله تعالىٰ: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور:٦١]. ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩]، ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور:١٢] ونظائره، وباجتماع «الرُّوح» مع البدن تفسير «النَّفْس» فاجرةً أو تقيةً، وإلا فـ «الرُّوح» بدون البدن لا فجور لها.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾؛ الضمير المرفوع في ﴿زَكَّىٰهَا﴾ عائدٌ علىٰ «مَنْ»، وكذلك هو في ﴿دَسَّىٰهَا﴾، والمعنىٰ قد أفلح من زكَّىٰ نفسه، وقد خاب من دَسَّاها.

هذا هو القول الصحيح، وهو نظير قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلىٰ:١٤]، وهو - سبحانه - إذا ذكر الفلاح علَّقَهُ بفعل المُفْلِح، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون:١-٢] إلىٰ آخر الآيات، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:٥] بعد قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة:٣]، وقوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور:٥١] ونظائره.

قال الحسن: «قد أفلح من زكَّىٰ نفسه وحملها علىٰ طاعة الله، وقد خاب من أهلكها وحَمَلَها علىٰ معصية الله»، وقاله: قتادة[١].

وقال طائفةٌ أخرىٰ: الضمير يرجع إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ.

قال ابن عباس - في رواية عطاء -: «قد أفلَحَت نَفْسٌ زكَّاها اللهُ، فأصلَحَها»[٢].

وهذا قول: مجاهد، وعكرمة، والكلبي، وسعيد بن جبير، ومقاتل، قالوا: سَعِدَتْ نَفْسٌ وأفلَحَت نفسٌ أصلحها الله، وطهَّرها، ووفَّقَها للطاعة، حتَّىٰ عملت بها، وخابَتْ وخَسِرَتْ نَفْسٌ أضلَّها اللهُ، وأغواها، وأبطلَها، وأهلكَها[٣].

قال أرباب هذا القول: قد أقسم الله - تعالىٰ - بهذه الأشياء التي ذكرها؛ لأنَّها تدلُّ علىٰ وحدانيته، وعلىٰ فلاح مَنْ طَهَّره، وخسارة من خَذَلَهُ، حتَّىٰ لا يظُنَّ أحدٌ أنَّه هو الذي يتولَّىٰ تطهيرَ نفسه، وإهلاكَها بالمعصية؛ من غير قَدَرٍ سابقٍ، وقضاءٍ متقدِّمٍ.

قالوا: وهذا أبلغ في التوحيد الذي سيقت له هذه السورة.

---

(١) انظر: «معالم التنزيل» للبغوي (٨/ ٤٣٩).

(٢) أخرج الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٠٣).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٤٨٨)، «جامع البيان» (١٢/ ٦٠٣).

قالوا: ويدلُّ عليه قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس:٨].

قالوا: ويشهد له حديث عائشة رضي الله عنها أنَّها قالت: انتبهتُ ليلةً؛ فوجدتُ رسولَ الله ﷺ وهو يقول: «ربِّ؛ أعْطِ نفسي تقواها، وزكِّها أنتَ خير من زكَّاها، أنت وَليُّها ومولاها»(١).

قال أرباب القول الأوَّل:

القول الذي ذكرناه أرجح من جهة المعنىٰ لوجوه:

أحدها: أنَّ فيه إشارة إلىٰ ما تقدَّم من تعليق الفلاح علىٰ فعل العبد واختياره كما هي طريقة القرآن.

الثاني: أنَّ فيه زيادة فائدة؛ وهي إثبات فعل العبد وكسبه، وما يثاب ويعاقب عليه، وفي قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ إثبات القضاء والقدر السابق.

فتضمَّنَت الآيتان هذين الأصلين العظيمين، وهما كثيرًا ما يقترنان في القرآن كقوله: ﴿إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [المدثر:٥٤-٥٦] وقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير:٢٨، ٢٩]، فتضمَّنت الآيتان الردَّ علىٰ «القَدَرِيَّة» و«الجَبْرِيَّة».

الثالث: أنَّ قولنا يستلزم قولكم، دون العكس؛ فإنَّ العبد إذا زكَّىٰ نفسه ودسَّاها: فإنَّما يزكِّيها بعد تزكية الله لها بتوفيقه وإعانته، وإنَّما يُدَسِّيها بعد تَدْسِيَة الله لها بخذلانه، والتخلية بينه وبين نفسه. بخلاف ما إذا كان المعنىٰ علىٰ القَدَرِ المحض، لم يبق للكسب وفعل العبد ههنا ذكرٌ ألْبَتَّةَ.

---

(١) أخرجه الواحدي في «الوسيط» (٤/ ٤٩٨).

ص: ٣٧

فصل

خفة ذنب ثمود مقارنة مع غيرهم

وذكر في هذه السورة ثمودَ دون غيرهم من الأُمَم المكذِّبة؛ قال شيخنا: «هذا - والله أعلم - من باب التنبيه بالأدنىٰ علىٰ الأعلىٰ، فإنَّه لم يكن في الأُمَم المكذِّبة أخفُّ ذنبًا وعذابًا منهم، إذ لم يُذْكَر عنهم من الذنوب ما ذُكِر عن عاد، ومدين، وقوم لوط، وغيرهم.

ولهذا لمَّا ذكرهم وعادًا قال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ ... وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٥-١٧].

وكذلك إذا ذكرهم مع الأُمَم المكذِّبة لم يذْكُر عنهم ما يذْكُر عن أولئك من التجبُّر والتكبُّر، والأعمالِ السيئة، كاللِّوَاط، وبَخْسِ المكيال والميزان، والفسادِ في الأرض، كما في «سورة هود» و«الشعراء» وغيرهما.

وكان عذابُ كلِّ أُمَّةٍ بحسب ذنوبهم وجرائمهم؛ فعذَّبَ عادًا بالرِّيح الشديدة العَاتِيَةِ، التي لا يقوم لها شيءٌ.

وعذَّبَ قومَ لوط بأنواع من العذاب لم يعذِّب بها أُمَّةً غيرهم؛ فجمع لهم بين الهلاكِ، والرَّجمِ بالحجارة من السماء، وطَمْسِ الأبصار، وقَلْبِ ديارهم عليهم بأنْ جعل عاليها سافلها، والخَسْفِ بهم إلىٰ أسفل سافلين.

وعذبَ قومَ شعيب بالنَّار التي أحرقتهم وأحرقت تلك الأموال التي اكتسبوها بالظلم والعدوان.

وأمَّا ثمود فأَهلكَهم بالصيحة، فماتوا في الحال.

فإذا كان هذا عذابَهُ لهؤلاء، وذنبهم مع الشرك عَقْرُ ناقةٍ واحدةٍ جعلها اللهُ

آيةً لهم؛ فمن انتهَكَ محارمَ اللهِ، واستخفَّ بأوامره ونواهيه، وعَقَر عباده، وسفك دماءهم = كان أشدَّ عذابًا.

قلتُ: وقد يظهر في تخصيص ثمود بالذِّكر ههنا - دون غيرهم - معنىً آخر، وهو أنَّهم رَدُّوا الهُدَىٰ بعد ما تيقَّنُوه وكانوا مستبصرين به، قد ثَلِجَتْ له صدورُهم، واستيقنَتْهُ أنفسُهم، فاختاروا عليه العمَىٰ والضلالة، كما قال - تعالىٰ - في وَصْفِهِم: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧] وقال تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء:٥٩] أي: مُوجبَةً لهم التبصُّر واليقين، وإن كان جميع الأمَم المُهْلَكَةِ هذا شأنهم؛ فإنَّ الله لم يُهلِك أُمَّةً إلا بعد قيام الحُجَّةِ عليها، لكن خُصَّت ثمود من ذلك الهُدَىٰ والبصيرة بمزيد، ولهذا لمَّا قَرَنَهم بـ «عادٍ» قال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ الآية [فصلت:١٥]، ثُمَّ قال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧].

فرَدُّوا الهُدَىٰ بعد تيقُّنِهِ والبصيرةِ التامَّةِ به، فكان في تخصيصهم بالذِّكر تحذيرٌ لكلِّ من عرف الحقَّ ولم يتَّبعْهُ، وهذا داء أكثر الهالكين، وهو أَعَمُّ الأدواء وأغلبُها علىٰ أهل الأرض، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.

فصل

ص: ٤٠

قسم الله تعالى بالفجر

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝٥﴾ [الفجر:١-٥].

قيل: جوابه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر:١٤].

وهذا ضعيفٌ لوجهين:

أحدهما: طولُ الكلام والفصل بين القَسَم وجوابه بِجُمَلٍ كثيرةٍ.

والثاني: أنَّ قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ ذُكِر تقريرًا لعقوبةِ اللهِ الأُمَمَ المذكورةَ وهي: عادٌ، وثمودُ، وفرعونُ. فذكر عقوبتهم ثُمَّ قال مقرِّرًا ومحذِّرًا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾، أفلا ترىٰ تعلُّقَهُ بذلك دون القَسَم؟!

وأحسن من هذا أن يقال: إنَّ «الفجرَ» و«الليالِيَ العشر» زمنٌ يتضمَّنُ أفعالًا معظَّمَةً، و«العشر» هو عشر ذي الحِجَّة وهو يتضمَّنُ أفعالًا معظَّمَةً من المناسك، وأمكنةً معظَّمَةً، وهي مَحَلُّها، وذلك من شعائر الله المتضمِّنَةِ خضوع العبد لربِّه، فإنَّ الحجَّ والنُّسُكَ عبوديةٌ محضةٌ لله، وذُلٌّ وخضوعٌ لعظمته. وذلك ضدُّ ما وصف به عادًا، وثمودًا، وفرعونَ؛ من العُتُوِّ والتكبُّر والتجبُّرِ؛ فإنَّ النُّسُكَ يتضمَّنُ غاية الخضوع لله، وهؤلاء الأُمَم عَتَوا وتكبَّرُوا عن أمر ربِّهم.

﴿وَٱلْفَجْرِ﴾:

إن أُريد به جِنْسُ «الفجر» - كما هو ظاهر اللفظ - فإنَّه يتضمَّنُ وقت صلاة الصبح، التي هي أوَّل الصلوات. فافتتح القَسَم بما يتضمَّنُ أوَّل الصلوات، وختمه بقوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ المتضمِّن لآخر الصلوات.

وإن أُريد بـ«الفجر» فجرٌ مخصوصٌ، فهو فجرُ يوم النَّحْرِ وليلته، التي هي ليلة عرفة، فتلك الليلة من أفضل ليالي العام، وما رُئي الشيطانُ في ليلة أَدْحَر، ولا أَحْقَر، ولا أَغْيَظ منه فيها[١]. وذلك «الفجر»: فجر يوم النَّحْر، الذي هو أفضل الأيام عند الله، كما ثبت عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «أفضلُ الأيامِ عندَ اللهِ يومُ النَّحْر»[٢] رواه أبو داود بإسنادٍ صحيح.

---

(١) أخرجه مالك في «موطئه» رقم (٢٤٥) مرسلاً، وحسَّنه ابن عبد البر في «التمهيد» (١/ ١١٦).

(٢) أخرجه أبو داود (١٧٦٥)، وصححه ابن خزيمة (٢٨٦٦).

وعلىٰ هذا قد تضمَّنَ القَسَمُ: المناسِكَ، والصلوات، وهما المختصَّان بعبادة الله، والخضوع له، والتواضع لعظمته، ولهذا قال الخليل عليه السلام: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢]، وقيل لخاتم الرُّسُل ﷺ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر:٢]، بخلاف حال المشركين المتكبِّرين الذين لا يعبدون الله وحده، بل يشركون به، ويستكبرون عن عبادته، كحال من ذُكِر في هذه السورة من قوم عاد، وثمود، وفرعون.

وذكر - سبحانه - من جملة هذه الأقسام: الشَّفْع، والوتر؛ إذ هذه الشعائرُ المعظَّمَةُ منها شَفْعٌ، ومنها وِتْرٌ؛ في: الأمكنةِ، والأزمنةِ، والأعمالِ.

فـ«الصَّفَا» و«المَرْوَة» شَفْعٌ، و«البيت» وترٌ، و«الجمرات» وترٌ، و«مِنَىٰ» و«مزدلفة» شَفْعٌ، و«عرفة» وترٌ.

وأمَّا الأعمال: فالطواف وترٌ، وركعتاه شَفْعٌ، والطواف بين «الصَّفَا» و«المَرْوَة» وترٌ، ورمي «الجِمَار» وترٌ، كلُّ ذلك سَبْعٌ سَبْعٌ، وهو الأصل، فـ«إنَّ الله وِترٌ، يحَبُّ الوِتْرَ»[(١)].

والصلوات منها شَفْعٌ، ومنها وِتْرٌ، والوتر يُوتِرُ الشَّفْع، فتكون كلُّها وترًا، كما قال النبيُّ ﷺ: «المغربُ وِترُ النَّهارِ، فأَوتِرُوا صلاةَ الليل» رواه الإمامُ أحمد[(٢)].

وفي «الصحيح» عنه ﷺ قال: «صلاةُ الليل مَثْنَىٰ مَثْنَىٰ، فإذا خشيتَ الصُّبْحَ فأَوتِرْ بواحدةٍ، تُوتِرُ لك ما قد صلَّيتَ»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٤٧)، ومسلم (٢٦٧٧).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٣٠) رقم (٤٨٤٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٨٣٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٠)، ومسلم (٧٤٩).

وأمَّا الزَّمان: فإنَّ يومَ عرفة وترٌ، ويومَ النَّحْر شَفْعٌ، وهذا قول أكثر المفسِّرين.

وروىٰ مجاهد، عن ابن عباس: «الوتر: آدم، وشُفِعَ بزوجته حوَّاء».

وقال عمران بن حصين، وقتادة: «الشَّفْع والوتر هي الصلاة»، ورُوي فيه حديثٌ مرفوع(١).

وقال عطيَّة العَوفي: «الشَّفْع: الخَلْق، قال الله تعالىٰ: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [النبأ:٨]، والوتر: هو الله».

وهذا قول الحَكَم، قال: «كلُّ شيءٍ شَفْعٌ، واللهُ وترٌ».

وقال الحسن: «الشَّفْع والوتر: العددُ كلُّه منه شَفْعٌ ووترٌ».

وذُكِرَتْ أقوالٌ أُخَر، هذه أصولها، ومدارُها كلُّها علىٰ قولين:

أحدهما: أنَّ «الشَّفْع» و«الوتر» نوعَا المخلوقات، والمأمورات.

والثاني: أنَّ «الوترَ» الخالقُ، و«الشَّفْعَ» المخلوقُ.

وعلىٰ هذا القول فيكون قد جمع في القَسَم بين الخالق والمخلوق، فهو نظير ما تقدَّم في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس:١]، وفي قوله: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج:٣]، وفي قوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾﴾ [الليل:١-٣].

وقال ههنا: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ [الفجر:٤]، وفي «سورة المدثر» أقسَمَ بالليل إذا أدبر، وفي «سورة التكوير» أقسَمَ بالليل إذا عَسْعَس، وقد فُسِّر بـ«أَقْبَل»، وفُسِّر بـ «أَدْبَر»؛ فإن كان المراد إقباله فقد أقسَمَ بأحوال الليل الثلاثة، وهي: حالةُ إقباله،

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ٤٣٧) رقم (١٩٩١٩)، والترمذي (٣٣٤٢) وقال: «حديث غريب»، وضعفه الألباني في «ضعيف الترمذي» رقم (٦٦١).

وحالةُ امتدادِه وسريانه، وحالةُ إدباره، وهي من آياته الدالَّةِ عليه سبحانه.

وعرَّفَ «الفجر» باللَّام إذ كلُّ أحدٍ يعرفه، ونكَّرَ الليالي العشر؛ لأنَّها إنَّما تُعرف بالعلم.

وأيضًا؛ فإنَّ في التنكير تعظيمًا لها، فإنَّ التنكير يكون للتعظيم.

وفي تعريف «الفجر» ما يدلُّ علىٰ شهرته، وأنَّه «الفجر» الذي يعرفه كلُّ أحدٍ ولا يجهله.

فلمَّا تضمَّن هذا القَسَمُ تعظيمَ ما جاء به إبراهيم ومحمد ﷺ كان في ذلك ما دلَّ علىٰ المُقْسَمِ عليه، ولهذا عقَّبَ القَسَم بقوله تعالىٰ: ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ [الفجر:٥]، فإنَّ عظمة هذا المُقْسَم به يُعرف بالنُّبوَّة، وذلك يحتاج إلىٰ حِجْرٍ يَحْجُرُ صاحبَه عن الغفلة واتباع الهوىٰ، ويحمله علىٰ اتباع الرُّسُل، لئلا يصيبه ما أصاب من كذَّب الرُّسُل كـ: عاد، وفرعون، وثمود.

ولمَّا تضمَّن ذلك مَدْحَ الخاضعين والمتواضعين؛ ذكرَ بعد ذلك حال المتكبِّرين المتجبِّرين الطاغين، ثُمَّ أخبر أنه صبَّ عليهم سَوْط عذاب؛ أي: سوطًا من عذاب. ونكَّره: إمَّا للتعظيم؛ وإمَّا لأنَّ يسيرًا من عذابه استأصلهم وأهلكهم، ولم يكن لهم معه بقاءٌ ولا ثباتٌ.

ثُمَّ ذكر حال المُوَسَّعِ عليهم في الدنيا والمُقَتَّرِ عليهم، وأخبر أنَّ توسعته علىٰ من وَسَّع عليه -وإن كان إكرامًا له في الدنيا - فليس ذلك إكرامًا علىٰ الحقيقة، ولا يدلُّ علىٰ أنَّه كريمٌ عنده، ولا هو من أهل كرامته ومحبته، وأنَّ تقتيره علىٰ من قتَّر عليه لا يدلُّ علىٰ إهانته له، وسقوط منزلته عنده، بل يوسِّع ابتلاءً وامتحانًا، ويقتِّر ابتلاءً وامتحانًا، فيبتلي بالنِّعَم كما يبتلي بالمصائب، وهو - سبحانه - يبتلي عبدَهُ بنعمةٍ تجلب له أُخرىٰ، وبنعمةٍ تجلب له نِقْمةً، وبنقْمةٍ تجلب له أُخرىٰ، وبنقمةٍ

تجلب له نعمةً، فهذا شأنُ نِعَمِهِ ونقَمِهِ سبحانه.

ثُمَّ ذكر - سبحانه - حالَ الإنسان في معاملته لمن هو أضعفُ منه؛ كاليتيم والمسكين، فلا يُكْرِمُ هذا، ولا يَحُضُّ علىٰ إطعام هذا.

ثُمَّ ذكر حرصَ الإنسان علىٰ جمع المال وأكله، وحُبِّه له، وذلك هو الذي أوجب له عدمَ رحمته لليتيم والمسكين.

ثُمَّ ختم السورة بمدح «النَّفْس» المطمئنَّة، وهي الخاشعة المتواضعة لربِّها، وما تؤول إليه من كرامته ورحمته، كما ذكر قبلَها حالَ «النَّفْسِ» الأمَّارة، وما تؤول إليه من شدَّةِ عذابه وَوَثَاقِهِ.

فصل

ص: ٥١

قسم الله تعالى بمكة المكرمة

وأمَّا سورة ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ فذُكِرَ فيها جوابُ القَسَم، وهو قوله: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد:٤].

وفُسِّر «الكَبَدُ»: بالاستواء وانتصاب القَامَة.

قال ابن عباس رضي الله عنه: «مستقيمٌ منتصِبٌ علىٰ قدميه»[١].

وفُسِّر بالنَّصَب.

قال قتادة: «يكابد أمر الدنيا والآخرة، فلا تلقاهُ إلا في مشقَّةٍ».

وقال مجاهد: «حملته أُمُّه كُرْهًا، ووضعته كُرْهًا، ومعيشته في شِدَّة، فهو يكابد ذلك».

---

(١) انظر: «الدر المنثور» (٦/ ٥٩٣).

وعلىٰ هذا: «الكَبَدُ»: من مكابدة الأمر، وهي معاناة شدَّته ومشقَّته. والرجلُ يكابدُ الليل: إذا قاسىٰ هَوْلَه وصعوبته.

وانتصابُ القامة والاستواء من ذلك، لأنَّه إنَّما يكون عن قوَّةٍ وشدَّةٍ.

فالإنسان مخلوقٌ في شِدَّةٍ؛ بكونه في «الرَّحِم»، ثُمَّ في القِمَاط[1] والرِّبَاط، ثُمَّ هو علىٰ خطرٍ عظيمٍ عند بلوغه حال التكليف، ومكابدة المعيشة، والأمر والنهي، ثُمَّ مكابدة الموت وما بعده في البرزخ، وموقف القيامة، ثُمَّ مكابدة العذاب والنَّار، ولا راحة له إلا في الجنَّة.

وفُسِّر «الكَبَدُ» بشدَّةِ الخَلْق، وإحكَامه، وقوَّته.

وهذا يشبه قوله تعالىٰ: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان:٢٨]، قال ابن عباس: «أي: خَلْقَهُم»[2].

وقال الحسن: «شدَدْنا أوصالهم بعضَها إلىٰ بعضٍ بالعُرُوقِ والعَصَبِ»[3].

والمقصود أنَّه - سبحانه - أقسَمَ في «سورة البلد» علىٰ حال الإنسان، وأقسَمَ - سبحانه - بالبلد الأمين وهو «مكة» أمُّ القُرَىٰ، ثُمَّ أقسَمَ بالوالد وما ولد، وهو آدمُ وذريته في قول جمهور المفسِّرين.

وعلىٰ هذا فقد تضمَّن القَسَمُ: أصلَ المكان، وأصلَ السكَّان؛ فمرجع البلاد إلىٰ «مكة»، ومرجع العباد إلىٰ آدم.

وقوله: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ فيه قولان:

---

(١) «القِمَاط»: الخرقة العريضة التي تُلَفُّ علىٰ الصبي في المهد. انظر: «لسان العرب» (١١/ ٣٠٣).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١٢/ ٣٧٥).

(٣) انظر: «جامع البيان» (١٢/ ٣٧٥).

أحدهما: أنَّه من الإحلال، وهو ضِدُّ الإحرام.

والثاني: أنَّه من الحُلُول، وهو ضِدُّ الظَّعْن.

فإن أريد به المعنىٰ الأوَّل فهو حالُ ساكِنِ البلد، بخلاف المحرم الذي يحجُّ ويعتمر ويرجع. ولأنَّ أَمْنَهُ إنَّما تظهر به النِّعمة عند الحِلِّ من الإحرام، وإلا ففي حال الإحرام هم في أَمَانٍ، والحُرْمةُ هناك للفعل لا للمكان.

والمقصود إنَّما هو ذكر حُرْمة المكان، وهي إنَّما تظهر بحال الحَلَال الذي لم يتلبَّس بما يقتضي أَمْنَهُ، ولكن علىٰ هذا ففيه تنبيهٌ؛ فإنَّه إذا أقسَمَ به، وفيه الحلال، فإذا كان فيه الحرام فهو أَوْلَىٰ بالأمْنِ والتعظيم.

وكذلك إذا أُرِيد المعنىٰ الثاني وهو الحلول، فهو متضمِّنٌ لهذا التعظيم، مع تضمُّنِه لأمرٍ آخر وهو: إقسامُهُ ببلده المشتمِل علىٰ رسوله وعبده، فهو خير البِقاع وقد اشتمل علىٰ خير العباد.

فجَعَلَ بيتَهُ هدىً للناس، ونبيَّهُ إمامًا وهاديًا لهم، وذلك من أعظم نِعَمِه وإحسانِه إلىٰ خلقه، كما هو من أعظم آياته ودلائل وحدانيتِه وربوبيتِه، فمن اعتبر حالَ بيتِهِ وحالَ نبيِّهِ وجد ذلك من أظهر أدلَّة التوحيد والربوبية.

وفي الآية **قولٌ ثالثٌ**؛ وهو أنَّ المعنىٰ: وأنتَ مُسْتَحَلٌّ قَتْلُكَ وإخراجُك من هذا البلد الأمين؛ الذي يأْمَنُ فيه الطير والوحش والجاني، وقد استَحَلَّ قومُكَ فيه حُرْمتَكَ، وهم لا يَعْضِدُون به شجرةً، ولا يُنفِّرون به صيدًا.

وعلىٰ كلِّ حالٍ فهي جملة اعتراضٍ في أثناء القَسَم، موقعها من أحسن موقعٍ وأَلْطَفِه.

فهذا القَسَمُ متضمِّنٌ لتعظيم بيته ورسوله.

ثُمَّ أنكر - سبحانه - علىٰ الإنسان ظنَّه وحُسْبَانه أن لن يقدر عليه أحدٌ من خلقه في هذا الكَبَدِ والشدَّةِ والقوَّةِ التي يكابد بها الأمور، فإنَّ الذي خلقه كذلك أَوْلَىٰ بالقدرة منه وأحقُّ، وكيف يُقْدِرُ غيرَهُ من لم يكن قادرًا في نفسه؟! فهذا برهانٌ مستقِلٌّ بنفسه، مع أنَّه متضمِّنٌ للجزاء الذي مناطُهُ: القدرةُ والعلمُ، فنبَّه علىٰ ذلك بقوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾، وبقوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ فيُحْصِي عليه ما عَمِلَ من خيرٍ وشرٍّ، ولا يقدر عليه فيجازيه بما يستحقه؟

ثُمَّ أنكر - سبحانه - علىٰ الإنسان قوله: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾، وهو الكثير الذي يُلَبَّدُ بعضُه فوق بعضٍ، فافْتَخَرَ هذا الإنسان بإهلاكه وهو: إنفاقُهُ في غير وجهه، إذ لو أنفقه في وجُوهِهِ التي أُمِرَ بإنفاقه فيها، وَوَضْعِهِ مواضعه؛ لم يكن ذلك إهلاكًا له، بل تقرُّبًا به إلىٰ الله ﷻ وتوصُّلًا به إلىٰ رِضَاهُ وثوابِهِ، وذلك ليس بإهلاكٍ له. فأنكر - سبحانه - افتخارَه وتبجُّحَهُ بإنفاق المال في شهواته وأغراضه التي إنفاقُه فيها إهلاكٌ له.

ثُمَّ وبَّخَهُ - سبحانه - بقوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾، وأتىٰ ها هنا بـ«لم» الدالَّة علىٰ المُضِيِّ، في مقابلة قوله: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾؛ فإنَّ ذلك في الماضي، أَفَيَحْسَبُ أن لم يَرَهُ أحدٌ فيما أنفقه وفيما أهلكه؟!

ثُمَّ ذكر - سبحانه - برهانًا مقرِّرًا أنَّه أحقُّ بالرؤية وأَوْلَىٰ من هذا العبد الذي له عينان يبصر بهما، فكيف يعطيه البصر من لا يراه؟ وكيف يعطيه آلة البيان - من الشفتين واللِّسَان، فينطقُ، ويبين عمَّا في نفسه، ويأمر وينهىٰ - من لا يتكلَّم، ولا يُكَلِّمُ، ولا يخاطِب، ولا يأمر، ولا ينهىٰ؟! وهل كمال المخلوق مستفادٌ إلا من خالقه؟ ومن جعل غيره عالمًا بنجْدَيْ الخيرِ والشرِّ - وهما طريقاهما - أَوْلَىٰ وأحقُّ بالعلم منه.

ومن هداهُ إلىٰ هذين الطريقين، كيف يليق به أن يتركه سُدًى، لا يعرِّفُه ما يضرُّهُ وما ينفعُه في معاشِهِ ومعادِهِ؟ وهل النُّبوَّةُ والرِّسَالةُ إلا لتكميل هدايته النَّجْدَين؟! فدلَّ هذا كلُّه علىٰ إثبات الخالق، وصفات كماله، وصدق رسله، ووعده، ووعيده.

وهذه أصول الإيمان التي اتفقت عليها جميع الرُّسُلِ من أوَّلهم إلىٰ آخرهم، إذا تأمَّلَ الإنسانُ حالَهُ وخَلْقَهُ وجَدَهُ من أعظم الأدلَّة علىٰ صحتها وثبوتها، فتكفي الإنسانَ فكرتُهُ في نفسه وخَلْقه.

والرُّسُلُ بُعِثُوا مذكِّرين بما في الفِطَرِ والعقول، مُكَمِّلين له؛ لتقوم علىٰ العبد حُجَّةُ الله بفطرته ورسالته.

ومع هذا فقامت عليه حُجَّتُه، ولم يقتحم العقبة التي بينه وبين ربِّه، التي لا يصل إليه حتَّىٰ يقتحمَها.

فمن لم يقتحم هذه «العقبة»؛ وهلك دونها: هلَكَ منقطِعًا عن ربِّه، غيرَ واصلٍ إليه، بل محجوبًا عنه.

ولا يقتحم هذه «العقبة» إلا المُضَمِّرُون، فإنَّها عقبةٌ كَؤُودٌ شاقَّةٌ، لا يقطعها إلا خفيفُ الظَّهْر، وهم «أصحاب الميمنة».

والهالكون دون «العقبة» الذين لم يُصَدِّقُوا الخبر، ولم يطيعوا الأمر، وهم «أصحاب المَشْأمة» = ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ قد أُطْبقَت عليهم؛ فلا يستطيعون الخروج منها؛ كما أَطْبقَت عليهم أعمالُ الغَيِّ، والاعتقاداتُ الباطلةُ المُنافيةُ لما أخبرت به الرُّسُل، فلم تَخْرُج قلوبُهم منها، كذلك أطبقت عليهم هذه النَّار، فلم تستطع أجسامُهم الخروجَ منها.

فتأمَّلْ هذه السورة علىٰ اختصارها، وما اشتملت عليه من مطالب العلم والإيمان، وبالله التوفيق.

وأيضًا فإنَّ طريقةَ القرآن: يذكر العلمَ والقدرةَ، تهديدًا وتخويفًا؛ لِيُرتِّبَ الجزاءَ عليهما، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾[الأنعام:٦٥]، وقال تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾ إلىٰ قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق:٩-١٠، ١٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:١٠٥]، وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠] وهذا كثيرٌ جدًّا في القرآن.

واختُلِفَ في هذه «العقبةُ»، هل هي في الدنيا أو في الآخرة؟

فقالت طائفةٌ: «العقبة» ها هنا مَثَلًا ضربَهُ اللهُ - تعالىٰ - لمجاهدة النَّفْس والشيطان في أعمال البِرِّ. وحَكَوا ذلك عن: الحسن، ومقاتل.

وقالت طائفةٌ: بل هي عقبةٌ حقيقةً، يصعدها النَّاس.

قال عطاء: «هي عقبة جهنَّم».

وقال الكلبي: «هي عقبةٌ بين الجنَّة والنَّار».

وقال مجاهد، والضحَّاك: «هي «الصِّرَاطُ»، يُضْرَبُ علىٰ جهنَّم».

وهذا لعلَّه قول الكلبي.

وقولُ هؤلاء أصحُّ نظرًا، وأثرًا، ولغةً.

قال قتادة: «إنَّها عقبةٌ شديدةٌ، فاقتحِمُوها بطاعة الله».

وفي أثرٍ معروفٍ: «إنَّ بين أيديكم عقبةً كؤودًا لا يَقْتحِمُها إلَّا المُخِفُّون»(١)؛ أو نحو هذا، فإنَّ اللهَ - تعالىٰ - سمَّىٰ الإيمانَ به، وفعلَ ما أَمَرَ، وتركَ ما نَهَىٰ: عقبةً.

وكثيرًا ما يقع في كلام السلف الوصية بالتضمُّر لاقتحام «العقبة»، وقال بعضُ الصحابة وقد حضره الموتُ، فجعل يبكي، ويقول: «ما لي لا أبكي وبين يديَّ عقبةٌ، أَهبِطُ منها إمَّا إلىٰ جنَّةٍ، وإمَّا إلىٰ نارٍ».

---

(١) أخرجه البزار (١٠/ ٥٥) رقم (٤١١٨) وصححه.

فهذا القول أقرب إلىٰ الحقيقةِ، والآثار السلفيةِ، والمألوفِ من عادةِ القرآن في استعماله ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ في الأمور الغائبة العظيمة كما تقدَّم. والله أعلم.

فصل

ص: ٦٩

قسم الله تعالى بالتين والزيتون والطور

ومن ذلك إقسامُ الله - سبحانه وتعالىٰ - بالتِّين ﴿وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣﴾ [التين:١-٣]، فأَقْسَم - سبحانه - بهذه الأمكنة الثلاثة العظيمة التي هي مظاهر أنبيائه ورسله أصحابِ الشرائع العِظَام، والأُمَمِ الكثيرة.

فـ «التِّينُ» و«الزيتونُ»: المراد به نفس الشجرتين المعروفتين، ومنبتهما، وهو أرض بيت المقدس، فإنَّها أكثر البقاع زيتونًا وتينًا.

وقد قال جماعة من المفسِّرين: إنَّه - سبحانه - أقسَمَ بهذين النَّوعَين من الثمار لمكان العبرة فيهما، فإنَّ «التِّينَ» فاكهةٌ مُخَلَّصةٌ من شوائب التنغيص، ويدخل في الأدوية، وشكله من أحسن الأشكال، ويدخل أكلُهُ والنظرُ إليه في باب «المفرِّحات». وله لَذةٌ يمتاز بها عن سائر الفواكه.

وأمَّا «الزيتون» ففيه من الآيات ما هو ظاهرٌ لمن اعتبر، فإنَّ عُودَه يُخرِجُ ثمرًا، يُعصَر منه هذا الدُّهن الذي هو مادَّةُ النُّور، وصبْغٌ للآكلين، وطِيْبٌ، ودَوَاءٌ، وفيه من مصالح الخلق ما لا يخفىٰ، وشَجَرُهُ باقٍ علىٰ ممرِّ السِّنين المتطاولة، وورقُهُ لا يسقط.

وهذا الذي قالوه حقٌّ، ولا ينافي أن يكون مَنْبَتُهُ مرادًا، فإنَّ مَنْبَتَ هاتين الشجرتين حقيقٌ بأن يكون من جملة البقاع الفاضلة الشريفة، فيكون الإقسامُ قد تناول الشجرتين ومنبتَهُما، وهو مَظْهَر عبدِ اللهِ ورسولِه وكلمتِه وروحِه: عيسىٰ بن مريم، كما أنَّ «طُور سينين» مَظْهَرُ عبدِهِ ورسولِهِ وكليمِهِ: موسىٰ، فإنَّه الجبلُ الذي كلَّمَهُ عليه وناجاه، وأرسله إلىٰ فرعون وقومه.

ثُـمَّ أقسـم بـ«البلـد الأميـن» - وهـو مكـة - مَظْهَـرِ خاتـم أنبيائِه ورسـلِه، وسـيِّدِ ولدِ آدم.

وترقَّىٰ في هـذا القَسَـم مـن الفاضل إلىٰ الأفضـل، فبدأ بموضع مَظْهَر المسـيح، ثُـمَّ ثنَّىٰ بموضـع مَظْهَـر الكليـم، ثُـمَّ ختـم بموضـع مظهـر عبـده ورسـوله، وأكـرم الخلـق عليه.

وأقسَمَ بها علىٰ بداية الإنسان ونهايته؛ فقال: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين:٤]؛ أي: في أحسن صورةٍ وشَكْلٍ واعتدالٍ، مُعْتَدِلَ القامة، مستويَ الخِلْقة، كاملَ الصورة، أحسنَ من كل حيوانٍ سواه.

والتقويم: تصيير الشيء علىٰ ما ينبغي أن يكون في التأليف والتعديل، وذلك صنعتُه - تبارك وتعالىٰ - في قبضةٍ من ترابٍ، وصُنْعُهُ بالمشاهدة في نطفةٍ من ماءٍ. وذلك من أعظم الآيات الدالَّة علىٰ وجوده، وقدرته، وحكمته، وعلمه، وصفات كماله، ولهذا يكرِّرها كثيرًا في القرآن لمكان العبرة بها، والاستدلال بأقرب الطرق علىٰ وحدانيته، وعلىٰ المبدأ والمَعَاد.

وتضمَّنَ إقسامُهُ بتلك الأمكنة الثلاثة الدالَّة عليه، وعلىٰ علمه وحكمته = عنايته بخلقه؛ بأن أرسل منها رسلًا أنزل عليهم كتبه، ويُعرِّفون العباد بربِّهم، وحقوقه عليهمْ، وينذرونهم بأْسَهُ ونقمته، ويدعونهم إلىٰ كرامته وثوابه.

ثُمَّ لمَّا كان النَّاس في إجابة هذه الدعوة فريقين: منهم من أجابَ، ومنهم من أَبىٰ = ذكر حال الفريقين، فذكر حال الأكثرين، وهم المردودون إلىٰ أسفل سافلين.

والصحيح أنَّه النَّار، قاله: مجاهد، والحسن، وأبو العالية.

وقالت طائفةٌ منهم: قتادة، وعكرمة، وعطاء: إنَّه أرذل العمر، وهو مرويٌّ عن ابن عباس[1].

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١٢/ ٦٣٨).

والصواب القول الأوَّل لوجوه:

أحدها: أنَّ أرذل العمر لا يسمَّىٰ: أسفل سافلين، لا في لغةٍ، ولا عرفٍ، وإنَّما «أسفل سافلين» هو «سِجِّين» الذي هو مكان الفُجَّار، كما أنَّ «عِلِّيين» مكان الأبرار.

الثاني: أنَّ المردودين إلىٰ أرذلِ العمر بالنسبة إلىٰ نوع الإنسان قليلٌ جدًّا، فأكثرهم يموت ولا يُرَدُّ إلىٰ أرذل العمر.

الثالث: أنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات يستوون هم وغيرهم في رَدِّ مَنْ طَالَ عُمُره إلىٰ أرذل العمر، فليس ذلك مختصًّا بالكفار حتَّىٰ يستثني منهم المؤمنين.

الرابع: أنَّ الله - سبحانه - لمَّا أراد ذلك لم يَخُصَّهُ بالكفار، بل جعله لجنس بني آدم، فقال تعالىٰ: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ [الحج:٥] فجعلهم قسمين: قسمًا يتوفَّىٰ قبل الكِبَر، وقسمًا مردودًا إلىٰ أرذل العمر، ولم يسمِّه «أسفل سافلين».

الخامس: أنَّه لا تَحْسُنُ المقابلة بين أرذل العمر وبين أجر المؤمنين، وهو - سبحانه - قابَلَ بين جزاء هؤلاء وجزاء أهل الإيمان، فجعل جزاءَ الكفار أسفل سافلين، وجزاءَ المؤمنين أجرًا غير ممنون.

السادس: أنَّ نظير هذه الآية قوله تعالىٰ: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ﴾ [الانشقاق:٢٤، ٢٥]، فالعذاب الأليم هو «أسفل سافلين»، والمُسْتَثنَون هنا هم المُسْتَثنَون هناك، والأجر غير الممنون هنا هو المذكور هناك، والله أعلم.

وقوله: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍۭ﴾، أي: غير مقطوعٍ، ولا منقوصٍ، ولا مكدَّرٍ عليهم. هذا هو الصواب.

وقالت طائفةٌ: غير ممنونٍ به عليهم، بل هو جزاء أعمالهم.

قال هؤلاء: لأنَّ المِنَّةَ تكدِّرُ النِّعمة، فتمام النِّعمة بأن تكون غير ممنونٍ بها علىٰ المنعَم عليه.

وهذا القول خطأٌ قطعًا، أُتِيَ أربابُهُ من تشبيه نعمة الله علىٰ عبده بإنعام المخلوق علىٰ المخلوق، وهذا من أبطل الباطل؛ فإنَّ المِنَّة التي تكدِّرُ النِّعمة هي مِنَّةُ المخلوق علىٰ المخلوق، وأمَّا مِنَّةُ الخالق علىٰ المخلوق فبها تمامُ النِّعمة، ولذَّتُها، وطِيبُها، فإنَّها مِنَّةٌ حقيقيةٌ، قال تعالىٰ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات:١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾﴾ [الصافات:١١٤، ١١٥]، فكيف تكون مِنَّتُهُ عليهما بنعمة الدنيا دون نعمة الآخرة؟

وقال - تعالىٰ - لموسىٰ: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٣٧].

وقال أهلُ الجنَّة: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور:٢٧].

وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران:١٦٤] الآية.

وقال تعالىٰ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص:٥].

وفي «الصحيح» أنَّ النبيَّ ﷺ قال - لمَّا قال للأنصار -: «**أَلَمْ أَجِدْكُم ضُلَّالًا فَهَدَاكُم اللهُ بي؟ أَلَم أَجِدْكُم عَالَةً فَأَغْنَاكُم اللهُ بي؟**»؛ وجعلوا يقولون له: «الله ورسوله أَمَنُّ»[1].

فهذا جواب العارفين بالله ورسوله، وهل المِنَّةُ - كلُّ المِنَّةِ - إلا لله المَنَّانِ بفضله

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٠٧٥)، و«صحيح مسلم» (١٠٦١).

الذي جميع الخلق في مِنَّتِهِ؟

وإنَّما قَبُحَت مِنَّةُ المخلوق لأنَّها مِنَّةٌ بما ليس منه، وهي مِنَّةٌ يتأذَّىٰ بها الممنون عليه. وأمَّا مِنَّةُ المَانِّ بفضله التي ما طاب العيش إلا بمِنَّته، وكلُّ نعمةٍ منه في الدنيا والآخرة فهي مِنَّةٌ يَمُنُّ بها علىٰ من أنعم عليه = فتلك لا يجوز نفيها. وكيف يجوز أن يقال: إنَّه لا مِنَّةَ لله علىٰ «الذين آمنوا وعملوا الصالحات» في دخول الجنَّة؟! وهل هذا إلا من أبطل الباطل؟!

وقد قال أعلم الخلق بالله ﷺ: «**لن يدخُلَ أحدٌ منكُم الجنَّةَ بعمله**» قالوا: ولا أنتَ يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا؛ إلَّا أن يتغمَّدني اللهُ برحْمَةٍ منهُ وفَضْلٍ»[1]، فأخبر أنَّ دخولَ الجنَّة برحمة الله وفضله، وذلك محض مِنَّته عليه وعلىٰ سائر عباده.

وقوله سبحانه: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ [التين:٧]، أصحُّ القولين: أنَّ هذا خطابٌ للإنسان، أي: فما يكذِّبُك بالجزاء والمَعَاد بعد هذا البيان، وهذا البرهان؛ فتقول: إنَّك لا تُبعث، ولا تُحاسب؟! ولو تفكَّرت في مبدأ خَلْقِك، وصورتك، لعلمتَ أنَّ الذي خَلَقَك أقدر علىٰ إعادتك بعد موتك، ونشأتك خَلْقًا جديدًا من خَلْقِك الأوَّل، وأنَّ ذلك لو أَعْيَاهُ وأَعْجَزَهُ لأَعْيَاهُ وأَعْجَزَه خَلْقُك الأوَّل.

وقال قتادة: «الضمير للنبيِّ ﷺ»[2]. واختاره الفرَّاء[3].

وهذا موضعٌ يحتاج إلىٰ شرحٍ وبيانٍ:

يقال: كَذَبَ الرجلُ، إذا قال الكَذِب. وكذَّبْتَهُ: إذا نَسَبْته إلىٰ الكَذِب، ولو اعتقدتَ صدْقَهُ. وكَذَبْتَهُ: إذا اعتقدتَ كَذِبَه، وإن كان صادقًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٤٩)، ومسلم (٢٨١٦).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١٢/ ٦٤٢).

(٣) «معاني القرآن» (٣/ ٢٧٧).

إذا عُرِفَ هذا، فقوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ﴾ اختُلف في «ما»؛ هل هي بمعنىٰ: أيُّ شيءٍ يكذِّبُك، أو بمعنىٰ: مَن الذي يكذِّبُك؟

فمن جعلها بمعنىٰ: أيُّ شيءٍ، تعيَّنَ علىٰ قوله أن يكون الخطاب للإنسان، أي: فأيُّ شيءٍ يجعلك بعد هذا البيان مكذِّبًا بالدِّين، وقد وَضَحَتْ لك دلائل الصدق والتصديق؟!

ومن جعلها بمعنىٰ: فمن الذي يكذِّبك؛ جعل الخطاب للنبيِّ ﷺ.

قال الفرَّاء: «كأنَّه يقول: من يقدر علىٰ تكذيبك بالثواب والعقاب، بعدما تبيَّن له من خَلْق الإنسان ما وصفناه؟»[١].

وقال قتادة: «فمَنْ يكذِّبُك أيُّها الرسول بعد هذا بالدِّين؟»[٢].

ثُمَّ ختم السورة بقوله تعالىٰ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين:٨]، وهذا تقريرٌ لمضمون السورة من إثبات النُّبوَّة، والتوحيد، والمَعَاد، وحُكْمُه يتضمَّن نَصْرَهُ لرسوله علىٰ من كذَّبَهُ وجحد ما جاء به بالحُجَّة والقدرة والظهور عليه، وحُكْمَه بين عباده في الدنيا بشرعه وأمره، وحُكْمَه بينهم في الآخرة بثوابه وعقابه، وأنَّ أحكم الحاكمين لا يليق به تعطيل هذه الأحكام بعدما ظهرت حكمته في خلق الإنسان في أحسن تقويم، ونَقْلِه في أطوار التخليق حالًا بعد حالٍ إلىٰ أكمل أحواله. فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن لا يجازي المُحْسِنَ بإحسانه، والمُسِيءَ بإساءته؟ وهل ذلك إلا قَدْحٌ في حُكْمِهِ وحِكْمَتِهِ؟

فَلِلَّهِ ما أخصرَ لفظَ هذه السورة، وأعظم شأنها، وأتمَّ معناها، والله أعلم.

---

(١) «معاني القرآن» (٣/ ٢٧٧).

(٢) انظر: «الجامع» للقرطبي (٢٠/ ١١٦).

فصل

ص: ٨٦

قسم الله تعالى بالليل والنهار

ومن ذلك قَسَمُهُ - سبحانه وتعالىٰ - بالليل ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل:١-٢] الآيات، وقد تقدَّم[1] ذكر المُقْسَم عليه وأنَّه سعيُ الإنسان في الدنيا، وجزاؤه في العُقْبَىٰ.

فهو - سبحانه - يُقْسِمُ بـ «الليل» في جميع أحواله، إذ هو من آياته الدالَّة عليه. فأقسم به وقت غشيانه، وأتى به بصيغة المضارع لأنَّه يغشى شيئًا بعد شيء، وأمَّا «النَّهار» فإنَّه إذا طلعت الشمس ظهر وتجلَّى وَهْلَةً واحدةً، ولهذا قال في سورة «الشمس وضحاها»: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾ [الشمس:٣، ٤].

وأقسَمَ به وقت سريانه كما تقدَّم[2]، وأقسَمَ به وقت إدباره، وأقسَمَ به إذا عَسْعَس.

فقيل: معناه أدبر، فيكون معناه مطابقًا لقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ۝٣٣ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ۝٣٤﴾ [المدثر:٣٣، ٣٤].

وقيل: معناه أقبل، فيكون كقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل:١-٢].

ثُمَّ أقسَمَ بخلق الذَّكَر والأنثىٰ، وذلك يتضمَّنُ الإقسامَ بالحيوان كلِّه علىٰ اختلاف أصنافه، ذَكَرِهِ وأُنْثَاه، وقابَلَ بين الذَّكَر والأنثىٰ كما قابَلَ بين الليل والنَّهار، وكلُّ ذلك من آيات ربوبيته، فإنَّ إخراج الليل والنَّهار بواسطة الأجرام العُلْوِيَّة، كإخراج الذَّكَر والأنثىٰ بواسطة الأجرام السُّفْلية، فأخرج من الأرض ذكورَ الحيوان وإناثه علىٰ

---

(١) ينظر: (ص:١٥).

(٢) ينظر: (ص: ٣١).

اختلاف أنواعه، كما أخرج من السماء الليلَ والنَّهارَ بواسطة الشمس فيها.

وأقسَمَ - سبحانه - بزمان السعي وهو الليل والنَّهار، وبالساعي وهو الذَّكَر والأنثىٰ؛ علىٰ اختلاف السعي، كما اختلف الليلُ والنَّهارُ، والذَّكَرُ والأنثىٰ.

وسعيُه وزمانُه مختلِفٌ؛ وذلك دليلٌ علىٰ اختلاف جزائه وثوابه، وأنَّه - سبحانه - لا يسوِّي بين من اختلف سعيه في الجزاء، كما لم يسوِّ بين الليل والنَّهار، والذَّكَر والأنثىٰ.

ثُمَّ أخبر عن تفريقه بين عاقبة سعي المحسن وعاقبة سعي المسيء فقال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل:٥-١٠]، فتضمَّنت الآيتان ذِكْرَ شَرْعِه وقَدَرِه، وذِكْرَ الأعمالِ وجزائها، وحكمةَ القَدَرِ في تيسير هذا لليُسْرَىٰ، وهذا للعُسْرَىٰ، وأنَّ العبد ميسَّرٌ بأعماله لغاياتها، ولا يظلم ربُّك أحدًا.

وذَكَر للتيسير لليسرىٰ ثلاثةَ أسباب:

أحدها: إعطاء العبد، وحذَفَ مفعول الفعل إرادةً للإطلاق والتعميم، أي: أعطىٰ ما أُمِرَ به، وسَمَحَتْ به طبيعته، وطاوَعَتْهُ نفسُه، وذلك يتناول إعطاءَهُ من نفسه الإيمانَ، والطاعةَ، والإخلاصَ، والتوبةَ، والشكرَ؛ وإعطاءَهُ الإحسانَ، والنفعَ بمالِه، ولسانِه، وبدنِه، ونيَّتِه، وقَصْدِه، فتكون نفسه نفسًا مُطيعَةً باذلةً، لا لئيمةً مانعةً.

السبب الثاني: التقوىٰ، وهي اجتناب ما نَهَىٰ اللهُ عنه، وهذا من أعظم أسباب التيسير، وضدُّه من أسباب التعسير.

فالمتَّقِي ميسَّرٌ عليه أمور دنياه وآخرته، وتارك التقوىٰ وإن يُسِّرَتْ عليه بعضُ أمور دنياه تعسَّرَ عليه من أمور آخرته بحسب ما تركه من التقوىٰ. وأمَّا تيسير ما تيسَّر عليه من أمور الدنيا؛ فلو اتَّقَىٰ اللهَ - تعالىٰ - لكان تيسيرها عليه أَتَمَّ، ولو قُدِّر

أَنَّها لم تُيَسَّر له فقد يُيَسِّر اللهُ له من الدنيا ما هو أنفع له ممَّا ناله بغير التقوىٰ، فإنَّ طِيْبَ العيش، ونعيمَ القلب، ولذَّةَ الرُّوح وفرحَها وابتهاجَها من أعظم نعيم الدنيا، وهو أجَلُّ من نعيم أرباب الدنيا بالشهوات واللذَّات، ونعيم أهل التقوىٰ بالطاعات والقربات أعظم وأَجَلُّ.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق:٢] إلىٰ قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤]، فأخبر أنَّه يُيَسِّر علىٰ المُتَّقِي ما لا يُيَسِّر علىٰ غيره.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢، ٣]، وهذا - أيضًا - تيسيرٌ عليه بتقواه.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾[الطلاق:٥]، وهذا تيسيرٌ عليه بإزالة ما يخشاه، وإعطائه ما يحبُّه ويرضاه.

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال:٢٩]، وهذا تيسيرٌ بالفرقان المتضمِّن للنَّجاةِ، والنَّصرِ، والعلمِ، والنُّورِ الفارق بين الحقِّ والباطل، وتكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، وذلك غاية التيسير.

السبب الثالث: التصديق بالحُسْنَىٰ، وفُسِّرَت بـ«لا إله إلا الله»، وفُسِّرت بالجنَّة، وفُسِّرت بالخَلَف، وهي أقوال السلف.

و«اليُسْرَىٰ»: صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ، أي: الحالة والخَلَّة اليُسْرَىٰ، وهي «فُعْلَىٰ» من اليُسْرِ.

والأقوال الثلاثة ترجع إلىٰ أفضل الأعمال، وأفضل الجزاء:

فمن فسَّرها بـ«لا إله إلا الله»؛ فقد فسَّرها بمفردٍ يأتي بكلِّ جمعٍ، فإنَّ التصديقَ

الحقيقي بـ «لا إله إلا الله» يستلزم التصديقَ بشُعَبِها وفروعِها كلِّها. وجميعُ الدِّين - أصولُه وفروعُه - من شُعَب هذه الكلمة.

ومن فَسَّر «الحُسْنَىٰ» بالجنَّة؛ فسَّرها بأَعْلَىٰ أنواع الجزاء وكماله.

ومن فسَّرها بالخَلَف؛ ذكر نوعًا من الجزاء، فهذا جزاءٌ دنيويٌّ، والجنَّة الجزاء في الآخرة.

فرجع التصديق بـ«الحُسْنَىٰ» إلىٰ التصديق بالإيمان وجزائه.

والتحقيقُ أنَّها تتناول الأمرين.

وتأمَّلْ ما اشتملت عليه هذه الكلمات الثلاث - وهي: الإعطاءُ، والتقوىٰ، والتصديقُ بالحُسْنَىٰ - من العلم والعمل، وتضمَّنته من الهُدَىٰ ودين الحق.

فلمَّا كان الدِّين يدور علىٰ ثلاثِ قواعد: فعلِ المأمور، وتركِ المحظور، وتصديقِ الخبر - وإنْ شئتَ قلتَ: الدِّين: طلبٌ، وخبرٌ. والطلبُ نوعان: طلبُ فعلٍ، وطلبُ تركٍ -؛ تضمَّنَت هذه الكلماتُ الثلاثُ مراتبَ الدِّين أجمعَها؛ فالإعطاء: فعل المأمور، والتقوىٰ: ترك المحظور؛ والتصديق بالحُسْنَىٰ: تصديق الخبر = فانتظم ذلك الدِّينَ كلَّه.

وأكملُ النَّاس من كملت له هذه القُوىٰ الثلاث، ودخول النَّقْص بحسب نقصانها أو بعضِها، فمن النَّاس من تكون قوَّة إعطائه وبذله أتمَّ من قوَّة انكفافه وتركه، فقوَّةُ التَرْكِ فيه أضعفُ من قوَّةِ الإعطاء، ومن النَّاس من تكون قوَّةُ التَّرْكِ والانكفافِ فيه أتمَّ من قوَّة الإعطاء، ومن النَّاس من تكون قوَّةُ التصديق فيه أتمَّ من قوَّة الإعطاء والمنع، فقوَّتُه العلميَّة الشعوريَّة أتمُّ من قوَّته الإراديَّة، وبالعكس، فيدخل النَّقْص بحسب ما نقص من قوَّة هذه القُوىٰ الثلاث، ويفوته من التيسير لليُسْرَىٰ بحسب ما فاته منها، ومن كملت له هذه القُوىٰ يُسِّرَ لكلِّ يُسْرَىٰ.

قال ابن عباس ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾: «نُهَيِّئُه لعمل الخير، ونيسِّرها عليه»(١).

وقال مقاتل، والكلبي، والفرَّاء: «نُيَسِّرُه للعَود إلىٰ العمل الصالح»(٢).

وحقيقة «اليُسْرَىٰ» أنَّها الخَلَّةُ والحالَةُ السَّهْلَةُ النافعةُ الواقعة له، وهي ضِدُّ العُسْرَىٰ، وذلك يتضمَّنُ تيسيره للخير وأسبابه، فيُجْرِي الخيرَ ويُيَسِّرُه علىٰ قلبِه، ونيتِه، ولسانِه، وجوارحِه. فتصير خصالُ الخير وأسبابُه ميسَّرةً عليه، مذلَّلةً له، مُنْقَادَةً لا تستعصي عليه، ولا تستصعب؛ لأنَّه مُهَيأٌ لها، ميسَّرٌ لفعلها، يسلك سُبُلَها ذُلُلًا، وتنقادُ له علمًا وعملًا، فإذا خالطتهُ قلتَ: هذا هو الذي قيل فيه:

مُبَارَكُ الطَّلْعَةِ مَيْمُونُها ... يَصْلُحُ للدنيا وللدِّينِ

﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ فعطَّل قوَّةَ الإرادة والإعطاء عن فعل ما أُمِرَ به، ﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ بترك التقوىٰ عن ربِّه، فعطَّل قوَّةَ الانكفافِ والتَّرْكِ عن فعل ما نُهِيَ عنه، ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ فعطَّل قوَّةَ العلم والشعور عن التصديق بالإيمان وجزائه = ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾.

قال عطاء: «سوف أَحُولُ بين قلبه وبين الإيمان بي وبرسولي»(٣).

وقال مقاتل: «يُعَسَّرُ عليه أن يُعْطَىٰ خيرًا»(٤).

وقال عكرمة، عن ابن عباس: «نُيَسِّرُه للشَّرِّ»(٥).

والتيسير للعُسْرَىٰ يكون بأمرين:

أحدهما: أن يحول بينه وبين أسباب الخير، فيجري الشَّرُّ علىٰ قلبه، ونيته،

---

(١) انظر: «زاد المسير» (٨/ ٢٦٣).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٤٩٢).

(٣) ذكره السمعاني في «تفسيره» (٦/ ٢٣٨).

(٤) «تفسير مقاتل» (٣/ ٤٩٢).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٦١٧).

ولسانه، وجوارحه.

والثاني: أن يحول بينه وبين الجزاء الأيسر، كما حال بينه وبين أسبابه.

وقد تضمَّنت هاتان الآيتان فَصْلَ الخطاب في مسألة القَدَر، وإزالة كلِّ لَبْسٍ وإشكالٍ فيها، وذلك بَيِّنٌ - بحمد الله - لمن وُفِّقَ لفهمه.

ولهذا أجاب بهما النبيُّ ﷺ لمن أورد عليه السؤالَ الذي لا يزال النَّاس يَلْهَجُون به في القَدَر، فأجاب بِفَصْل الخطاب، وأزال الإشكال.

ففي «الصحيحين» من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «ما منكم من أحدٍ إلَّا وقد عُلِمَ مَقْعَدُهُ من الجنَّةِ والنَّارِ» قيل: يا رسول الله، أفلا نَدَعُ العَمَلَ، ونتَّكِلُ على كتابنا؟ قال: «اعمَلُوا، فكُلٌّ ميسَّرٌ لمَا خُلِقَ له» ثُمَّ قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ إلىٰ قوله: ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-١٠].

فصل

ص: ١٠٤

بيان الله تعالى لطريق الهدى

ثُمَّ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۝١٣﴾ [الليل:١٢، ١٣]؛ قيل: معناه: إنَّ علينا أن نُبيِّنَ طريقَ الهُدَىٰ من طريق الضلال.

قال قتادة: «علىٰ الله البيانُ؛ بيانُ حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته»[1].

وهذا المعنىٰ حقٌّ، ولكنَّ مرادَ الآية شيءٌ آخر.

وقيل: المعنىٰ: إنَّ علينا للهُدَىٰ والإضْلَال.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٦١٨).

قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء: «يريد: أُرْشِدُ أوليائي إلىٰ العمل بطاعتي، وأَحُولُ بين أعدائي وبين أن يعملوا بطاعتي».

قال الفرَّاء: «فتَرَكَ ذكر الإضْلَال، كما قال: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل:٨١]، أي: والبرد»[١].

وهذا أضعف من القول الأوَّل، وإن كان معناه صحيحًا، فليس هو معنىٰ الآية.

وقيل: المعنىٰ: من سَلَكَ الهُدَىٰ فعَلَىٰ الله سبيلُه، كقوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل:٩]، وهذا قول مجاهد[٢]، وهو أصحُّ الأقوال في الآية.

قال الواحديُّ: «علينا الهُدَىٰ، أي: إنَّ الهُدَىٰ يُوصِلُ صاحبه إلىٰ الله، وإلىٰ ثوابه وجنَّته»[٣].

وهذا المعنىٰ في القرآن في ثلاثة مواضع: ههنا، وفي «النَّحْل» في قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل:٩]، وفي «الحِجْر» قال: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر:٤١].

وهو معنىً شريفٌ جليلٌ، يدلُّ علىٰ أنَّ سالك طريق الهُدَىٰ يُوصِلُه طريقُهُ إلىٰ الله ﷻ ولابدَّ، والهُدَىٰ هو الصراط المستقيم فمن سلكه أوصله إلىٰ الله تعالىٰ، فذَكَرَ الطريق والغاية، فالطريقُ: الهُدَىٰ، والغايةُ: الوصولُ إلىٰ الله ﷻ، فهذه أشرفُ الوسائل، وغايتُها أَعْلَىٰ الغايات.

ولمَّا كان مطلوبُ السالك إلىٰ الله تحصيلَ مصالح دنياه وآخرته لم يتمَّ له هذا المطلوب إلا بتوحيد طلبِهِ، والمطلوب منه. فأَعْلَمَهُ - سبحانه - أنَّ سواه لا يملك

(١) «معاني القرآن» (٣/ ٢٧١).

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (٨/ ٤٤٧).

(٣) «الوجيز» (٢/ ١٢٠٩).

من الدنيا والآخرة شيئًا، وأَنَّ الدنيا والآخرة جميعًا له وحده، فإذا تيقَّنَ العبدُ ذلك اجتمع طَلَبُهُ ومطلوبُهُ علىٰ مَنْ يملك الدنيا والآخرة وحده.

ولمَّا أقام - سبحانه - الدليلَ، وأنارَ السبيل، وأوضحَ الحُجَّةَ، وبيَّنَ المَحَجَّةَ = أنذرَ عبادَه عذابَه الذي أعدَّهُ لمن كذَّبَ خَبرَهُ، وتولَّىٰ عن طاعته. وجعلَ هذا الصِّنْفَ من النَّاس هم أشقاهم، كما جعل أَسْعَدَهم أهلَ التقوىٰ والإحسان والإخلاص، فهذا الصِّنْفُ هو الذي يُجَنَّبُ عذابه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ [الليل:١٧، ١٨]، فهذا المتَّقِي المُحْسِنُ، ولا يفعلُ ذلك إلا ابتغاءَ وجه ربِّه، فهو مُخْلِصٌ في تقواه وإحسانه.

وفي الآية إرشادٌ إلىٰ أنَّ صاحب التقوىٰ لا ينبغي له أن يتحمَّلَ مِنَنَ الخَلْق ونِعَمَهُم، وإن حَمَلَ منها شيئًا بادَرَ إلىٰ جزائهم عليه؛ لئلَّا يبقىٰ لأحدٍ من الخَلْقِ عليه نعمةٌ تُجْزَىٰ، فيكون بعد ذلك عمله كلُّه لله وحده، ليس جزاءً للمخلوق علىٰ نعمته.

ونبَّه بقوله: ﴿تُجْزَىٰٓ﴾ علىٰ أنَّ نعمة الإسلام التي لرسول الله ﷺ علىٰ هذا الأتقىٰ لا تُجْزَىٰ، فإنَّ كلَّ ذي نعمةٍ يمكن جزاءُ نعمته إلا نعمة الإسلام، فإنَّها لا يمكن جزاؤها من المُنْعَمِ بها عليه، وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ الصدِّيقَ رضي الله عنه أوَّلُ وأَوْلَىٰ من ذُكِرَ في هذه الآية، وأنَّه أحقُّ الأُمَّة بها، فإنَّ عليًّا رضي الله عنه تربَّىٰ في بيت النبيِّ ﷺ، فلِرَسُولِ الله ﷺ عنده نعمةٌ غير نعمةِ الإسلام، يمكن أن تُجْزَىٰ.

ونبَّهَ - سبحانه - بقوله: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ علىٰ أنَّ من ليس لمخلوقٍ عليه نعمةٌ تُجْزَىٰ لا يفعل ما يفعله إلا ابتغاءَ وجهِ ربِّهِ الأعلىٰ، بخلاف من تطوَّقَ بِنِعَم المخلوقين ومِنَنِهِم، فإنَّه مُضطَرٌّ إلىٰ أن يفعل لأجلهم، ويترك لأجلهم. ولهذا كان من كمال الإخلاص أن لا يجعل العبدُ عليه مِنَّةً لأحدٍ من النَّاس، لتكون معاملته كلها لله إبتغاء وجهه، وطلب مرضاته.

وكما أنَّ هذه الغايةَ أعلىٰ الغايات، وهذا المطلوبَ أشرفُ المطالب؛ فهذه الطريقُ أقْصَدُ الطرق إليه، وأقربُها، وأقومُها، وبالله التوفيق.

فصل

ص: ١١٠

قسم الله تعالى بالضحى

ومن ذلك إقسامُهُ - سبحانه - بالضُّحَىٰ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحىٰ:٢] علىٰ إنعامه علىٰ رسوله ﷺ، وإكرامه له، وإعطائه ما يرضيه، وذلك متضمِّنٌ لتصديقه له، فهو يُقْسِم علىٰ صحَّةِ نُبوَّته، وعلىٰ جزائه في الآخرة، فهو قَسَمٌ علىٰ النُّبوَّة والمَعَاد.

وأقسم بآيتين عظيمتين من آياته؛ دالَّتَين علىٰ ربوبيته، وحكمته، ورحمته، وهما الليل والنَّهار.

فتأمَّلْ مطابقةَ هذا القَسَم - وهو نورُ الضُّحَىٰ الذي يوافي بعد ظلام الليل - للمُقْسَم عليه؛ وهو نورُ الوحي الذي وَافَاهُ بعد احتباسِهِ عنه، حتَّىٰ قال أعداؤُه: «وَدَّع محمدًا ربُّهُ»[1]. فأقسَمَ بضوء النَّهار بعد ظلمة الليل علىٰ ضوء الوحي ونوره، بعد ظلمة احتباسه واحتجابه.

وأيضًا؛ فإنَّ الذي فَلَقَ ظلمةَ الليل عن ضوءِ النَّهار؛ هو الذي فَلَقَ ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنُّبوَّة، فهذان للحِسِّ، وهذان للعقل.

وأيضًا؛ فإنَّ الذي اقتضت رحمتُهُ أن لا يترك عبادَهُ في ظلمة الليل سرمدًا، بل هداهم بضوء النَّهار إلىٰ مصالحهم ومعايشهم = لا يليق به أن يتركهم في ظلمة الجهل والغَيِّ، بل يهديهم بنور الوحي والنُّبوَّة إلىٰ مصالحهم في دنياهم وآخرتهم.

فتأمَّلْ حُسْنَ ارتباطِ المُقْسَم به بالمُقْسَم عليه، وتأمَّلْ هذه الجزالةَ والرَّوْنَقَ

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٧٢)، ومسلم (١٧٩٧).

الذي علىٰ هذه الألفاظ، والجلالةَ التي علىٰ معانيها.

ونفَىٰ - سبحانه - أن يكون ودَّعَ نبيَّهُ أو قَلَاهُ، فالتوديع: التَّرْكُ، والقِلَىٰ: البُغْض، فما تَرَكَهُ منذ اعتنىٰ به وأكرمه، ولا أبغَضَهُ منذ أحبَّهُ.

وأطلق - سبحانه - أنَّ الآخرة خيرٌ له من الأُولَىٰ، وهذا يَعُمُّ كلَّ أحواله، وأنَّ كلَّ حالةٍ يُرقّيه إليها هي خيرٌ له ممَّا قبلها، كما أنَّ الدارَ الآخرة خيرٌ له ممَّا قبلها.

ثُمَّ وَعَدَهُ بما تَقَرُّ به عَيْنُهُ، وتفرَحُ به نفسُهُ، وينشرحُ به صدرُهُ، وهو أن يعطيه فَيُرضِيه؛ وهذا يَعُمُّ ما يعطيه من القرآنِ، والهُدَىٰ، والنَّصْرِ، وكثرةِ الأَتْبَاع، ورَفْع ذِكْرِهِ، وإعلاءِ كلمتِهِ، وما يعطيه بعد مماته، وما يعطيه في موقف القيامة، وما يعطيه في الجَنَّة.

ثُمَّ ذكَّرهُ - سبحانه - بنعَمِهِ عليه؛ من إيوائه بعد يُتْمِهِ، وهدايتِهِ بعد الضلالة، وإغنائه بعد الفقر، فكان محتاجًا إلىٰ من يُؤْوِيهِ، ويَهْدِيهِ، ويُغْنِيهِ، فآواه ربُّهُ وهدَاهُ وأغناه.

فأمَرهُ - سبحانه - أن يقابل هذه النِّعَمَ الثلاثةَ بما يليق بها من الشُّكْر؛ فنهَاهُ أن يقْهَرَ اليتيمَ، وأن يَنْهَرَ السائلَ، وأن يكتم النِّعْمةَ، بل يحدِّث بها. فأوصاه - سبحانه - باليتامىٰ، والفقراء، والمتعلِّمين.

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾؛ قال أكثر المفسِّرين: هو سائل المعروف والصدقة؛ لا تنهره إذا سألَكَ، فقد كنتَ فقيرًا؛ فإمَّا أن تُطعِمه، وإمَّا أن تردَّهُ ردًّا لينًا.

وقال الحسن: «أَمَا إنَّه ليس بالسائل الذي يأتيك، ولكن طالب العلم».

وهذا قول يحيىٰ بن آدم، قال: «إذا جاءك طالبُ العلم فلا تنهره»[1].

---

(١) انظر: «معالم التنزيل» (٨/ ٤٥٨).

والتحقيق: أنَّ الآية تتناول النَّوعَين.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾؛ قال مجاهد: «بالقرآن»[١].

قال الكلبي: «يعني: أَظْهِرْها، والقرآن أعظَمُ ما أنعم الله به عليه، فأمره أن يُقْرِئَهُ ويعلِّمَهُ»[٢].

وروىٰ أبو بِشْر، عن مجاهد: «حَدِّثْ بالنُّبوَّة التي أعطاك الله»[٣].

وقال مقاتل: «اشكُرْ هذه النِّعَمَ التي ذُكِرَتْ في هذه السورة»[٤].

والتحقيق: أنَّ النِّعَم تعُمُّ هذا كلَّه، فأُمِر أن لا ينهر سائلَ المعروفِ والعلمِ، وأن يحدِّثَ بِنعَم الله عليه في الدنيا والدِّين.

فصل

ص: ١١٧

قسم الله تعالى بالعاديات

ومن ذلك إقسامُهُ - سبحانه - بـ ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ [العاديات:١] الآية وما بعدها. وقد اختلف الصحابة ومن بعدهم في ذلك:

فقال علي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما: «هي إبلُ الحاجِّ، تَعْدُو من عَرَفَة إلىٰ مزدلفة، ومن مزدلفة إلىٰ مِنَىٰ».

وقال عبد الله بن عباس: «هي خيل الغُزَاة».

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ رقم ١٩٣٨٤).

(٢) انظر: «الوسيط» (٤/ ٥١٣).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٦٢٥).

(٤) «تفسير مقاتل» (٣/ ٤٩٥).

وهذا قول: أصحاب ابن عباس، والحسن، وجماعة[1].

قال أصحاب قول «الإبل»: السورة مكِّيةٌ، ولم يكن ثَمَّ جهادٌ، ولا خيلٌ تجاهد، وإنَّما أقسَمَ بما يعرفونه ويأْلَفُونَه، وهي إبل الحاجِّ إذا عَدَتْ من عرفة إلىٰ مزدلفة، فهي «عَادِيَات».

و«الضَّبْحُ» و«الضَّبْعُ»: مدُّ النَّاقة ضَبْعَها في السَّيْر[2]، يقال: ضَبَحَتْ، وضبَعَتْ؛ بمعنىً.

قالوا: فهي تعدو ضَبْحًا، فَتُوري بأخفافها النَّارَ من حَكِّ الأحجار بعضها ببعضٍ، فتثير النَّقْعَ -وهو الغُبار- بِعَدْوِها، فتتوسَّط جَمْعًا وهو المزدلفة.

قال أصحاب قول «الخيل»: المعروف في اللغة أنَّ «الضَّبْحَ» أصواتُ أنفاس الخيل إذا عَدَوْنَ، والمعنىٰ: والعادياتِ تضبح ضبحًا، أو: والعادياتِ ضابحةً، فتكون «ضَبْحًا» مصدرًا علىٰ الأوَّل، وحالًا علىٰ الثاني.

قال الجُرْجَانيُّ: «كلا القولين قد جاء في التفسير، إلا أنَّ السياق يدلُّ علىٰ أنَّها الخيل، وهو قوله تعالىٰ: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾، و«الإيرَاءُ» لا يكون إلا للحَافِرِ لصلابته، وأمَّا الخُفُّ ففيه لِينٌ واسترخاءٌ» انتهىٰ.

قالوا: و«النَّقْعُ» هو الغُبار، وإثارة الخيل بعَدْوِها له أظهر من إثارة أخفاف الإبل؛ لأنَّها لصلابة حَوَافِرها وسنابكها تثير من الغُبار بعَدْوِها ما لا تثيره أخفاف الإبل. والضمير في «به» عائدٌ علىٰ المكَان الذي تعدو فيه.

قالوا: وأعظم ما يَثُورُ الغُبارُ عند الإغَارَة إذا توسَّطَت الخيلُ جَمْعَ العَدُوِّ، لكثرةِ

---

(١) انظر: «الجامع» للقرطبي (٢٠/ ١٥٣).

(٢) الضَّبْع: العَضُد. انظر: «تهذيب اللغة» (٤/ ٢١٩).

حركتها واضطرابها في ذلك المكان.

وأمَّا حمل الآية علىٰ إثارة الغُبار في وادي «مُحَسِّر» عند الإغارة = فليس بالبيِّنِ، ولا يثُور هناك غُبارٌ في الغالب؛ لصلابة المكان.

قالوا: وأمَّا قولكم إنَّه لم يكن بمكَّة حين نزول الآية جهادٌ ولا خيلُ مجاهدين، فهذا لا يلزِم؛ لأنَّه - سبحانه - أقسَمَ بما يعرفونه من شأن الخيل إذا كانت في غزْوٍ، فأَغَارَتْ فأَثَارَت النَّقْعَ، وتوسَّطَت جَمْعَ العَدُوِّ، وهذا أمرٌ معروفٌ.

وذِكْرُ خيلِ المجاهدين أحقُّ ما دخل في هذا الوصف، فذِكْرُهُ علىٰ وجهِ التمثيل لا الاختصاص، فإنَّ هذا شأنُ خيل المقاتِلة، وأشرف أنواع هذا الخيل: خيلُ المجاهدين.

والقَسَمُ إنَّما وقع بما تضمَّنه شأن هذه «العاديات» من الآيات البيِّنات من خلق هذا الحيوان الذي هو من أكرم الحيوان البهيم وأشرفه، وهو الذي يحصل به الغَزْوُ والظَّفَر، والنَّصْرُ علىٰ الأعداء، فتَعْدُو طالبةً للعَدُوِّ وهاربةً منه، فيُثِيرُ عَدْوُها الغُبارَ لشدَّتِهِ، وتُورِي حَوَافِرُها وسَنَابِكُها النَّارَ من الأحجار؛ لشدَّة عَدْوِها، فتُدْرِكُ الغَارَة التي طَلَبَتْها حتَّىٰ تتوسَّط جَمْعَ الأعداء، فهذه من أعظم آيات الرَّبِّ - تعالىٰ - وأدلَّةِ قدرته وحكمته.

فذكَّرهم بِنعَمِه عليهم في خلق هذا الحيوان الذي ينتصرون به علىٰ أعدائهم، ويُدْرِكُون به ثأْرَهم. كما ذكَّرهم - سبحانه - بِنعَمِه عليهم في خلق الإبل التي تحمل أثقالهم من بلدٍ إلىٰ بلدٍ، فالإبلُ أَخَصُّ بحَمْلِ الأثقال، والخيلُ أخصُّ بنُصْرَةِ الرجال، فذكَّرَهم بنعَمِه بهذا وهذا.

وخصَّ الإغارة بالصُّبْح؛ لأنَّ العَدُوَّ لم ينتشروا إذ ذاك، ولم يفارقوا مَحَلَّهم، وأصحاب الإغارة جامُّون مستريحون، يبصرون مواقع الغَارَة، والعَدُوُّ لم يأخذوا

أُهْبَتَهم، بل هم في غِرَّتِهم وغَفْلَتِهم، ولهذا كان النبيُّ ﷺ إذا أرادَ الغَارَة صبر حتَّىٰ يطلع الفجر، فإن سمع مُؤَذِّنًا أَمْسَكَ، وإلا أَغَارَ(١).

وروىٰ سعيد بن جبير، عن ابن عباس: «هم الذين يغيرون، فَيُورُون بالليل نيرانهم لطعامهم وحاجتهم»(٢). كأنَّه أَخَذَهُ من قوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ [الواقعة:٧١].

وهذا إن أُريد به التمثيل، وأنَّ الآية تدلُّ عليه = فصحيحٌ. وإن أُريد به اختصاص «الموريات» به فليس كذلك؛ لأنَّ «الموريات» هي العاديات بعينها، ولهذا عطفها عليها بـ «الفاء» التي للتسبيب، فإنَّها عَدَتْ فأَوْرَتْ.

وقال قتادة: ««الموريات» هي الخيلُ؛ تُورِي نارَ العداوة بين المُقْتَتِلين»(٣).

وهذا ليس بشيء، وهو بعيدٌ من معنىٰ الآية وسياقها.

وأضعف منه قول عكرمة: «هي الألسنةُ؛ تُورِي نارَ العداوة بِعِظَم ما تتكلَّم به»(٤).

وأضعف منه ما ذكر عن مجاهد: «هي أفكار الرجال؛ تُورِي نارَ المكر والخديعة في الحرب»(٥).

وهذه الأقوال إن أُريد بها أنَّ اللفظَ دلَّ عليها وأنَّها هي المراد = فَغَلَطٌ، وإن أُريد أنَّها أُخِذت من طريق الإشارة والقياس؛ فأمرها قريبٌ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٠)، ومسلم (٣٨٢).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٦٦٨).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٦٦٨).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٦٦٨).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٦٦٨).

وتفسير النَّاس يدور على ثلاثة أصول:

١ - تفسيرٌ على اللفظ؛ وهو الذي ينحو إليه المتأخرون.

٢ - وتفسيرٌ على المعنى؛ وهو الذي يذكره السلف.

٣ - وتفسيرٌ على الإشارة والقياس؛ وهو الذي ينحو إليه كثيرٌ من الصوفية وغيرهم. وهذا لا بأس به بأربعة شرائط:

١ - أن لا يناقض معنى الآية.

٢ - وأن يكون معنىً صحيحًا في نفسه.

٣ - وأن يكون في اللفظ إشعارٌ به.

٤ - وأن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباطٌ وتلازُمٌ.

فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان استنباطًا حسنًا.

فصل

ص: ١٢٥

إقسام الله تعالى على حال الإنسان

فهذا شأن القَسَم، وأمَّا شأن المُقْسَم عليه فهو حال الإنسان، وهو كونُ الإنسان كَنُودًا -بشهادته علىٰ نفسه، أو شهادة ربِّه عليه-، وكونُه بخيلًا لحُبِّه المال.

و«الكَنُود»: الكَفُور للنِّعمة.

وأصل اللفظة: مَنْعُ الحقِّ والخير، ورجلٌ كَنُودٌ: إذا كان مانعًا لما عليه من الحقِّ. وعبارات المفسِّرين تدور علىٰ هذا المعنىٰ.

قال ابن عباس رضي الله عنهما وأصحابُه: «هو الكَفُور»[(١)].

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٦٧٢).

وقيل: هو البخيل الذي يمنع رِفْدَهُ، ويُجيع عبدَهُ، ولا يعطي في النَّائبة[١].

وقال الحسن: «هو اللوَّامُ لربِّهِ، يَعُدُّ المصائبَ، ويَنْسَىٰ النِّعَمَ»[٢].

قال محمود الورَّاق في ذلك:

يـا أَيُّهـا الظالـمُ في فعلـه والظلمُ مـردودٌ علىٰ مَـنْ ظلَمْ

إلـىٰ متَـىٰ أنـتَ، وحتَّـىٰ متىٰ تَشْكُو المُصِيبَاتِ، وتَنْسَىٰ النِّعَمْ

وأمَّا قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾؛ فقال ابن عباس: «يريد: وإنَّ ربَّهُ علىٰ ذلك لشهيد»[٣].

وقيل: وإنَّ الإنسان لشهيدٌ علىٰ ذلك، إن أنكره بلسانه شَهِد به عليه حاله.

ويؤيِّد هذا القول اتِّسَاقُ الضمائر، فإنَّ قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ للإنسان، فافتتحَ الخبرَ عن الإنسان بكونه كَنُودًا، ثُمَّ ثنَّاهُ بكونه شهيدًا علىٰ ذلك، ثُمَّ ختمَهُ بكونه بخيلًا بماله لحُبِّهِ إيَّاهُ.

ثُمَّ قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾، و«الخير» ها هنا: المالُ باتفاق المفسِّرين.

و«الشَّدِيد»: البخيل، والمعنىٰ: وإنَّه لبخيلٌ من أَجْل حُبِّ المال، فحُبُّ المال هو الذي حمله علىٰ البُخْل، هذا قول الأكثرين.

وقال ابن قتيبة: «بل المعنىٰ: إنَّه شديدُ الحُبِّ للخير، فتكون «اللَّامُ» في قوله ﴿لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾ متعلِّقةً بقوله: ﴿لَشَدِيدٌ﴾ علىٰ حدِّ تعلُّقِ قولك: إنَّهُ لِزَيْدٍ لَضَارِبٌ».

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١٢/ ٦٧٢).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ٦٧٢).

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (٨/ ٥٠٩).

فوصف - سبحانه - الإنسانَ بكفران نِعَمِ رَبِّهِ، وبُخْلِهِ بما آتاه من الخير، فلا هو شكورٌ لِنعَمِ الله، ولا محسِنٌ إلىٰ خلق الله، بل بخيلٌ بشكر الله، بخيل بمال الله، وهذا ضِدُّ المؤمن الكريم، فإنَّه مخلِصٌ لربِّهِ، محسِنٌ إلىٰ خلقه، فالمؤمن له الإخلاص والإحسان، والفاجر له الكفر والبخل.

وقد ذَمَّ الله - سبحانه - هذين الخُلُقَين المُهْلِكَين في غير موضعٍ من كتابه، كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ الآية [الحديد:٢٣، ٢٤]، فاختيال الإنسان وفَخْرُهُ من كُفْرِه وكُنُودِهِ، وهذا ضِدُّ قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٣].

وكذلك ذَكَرَ الخُلُقَين الذَّمِيمَين في قوله عزَّ وجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [النساء:٣٨] إلىٰ قوله: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [النساء:٣٩].

ونظيره ما تقدَّمَ(١) في سورة «الليل» من ذَمِّ المستغني البخيل، ومَدْحِ المعطي المُصَدِّق بالحُسْنَىٰ.

ونظيره ذَمُّ الهُمَزَةِ اللُّمَزَة ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ [الهمزة:٢]، فإنَّ «الهَمْزَ» و«اللَّمْزَ» من الفَخْر والكِبْر، وجمْعَ المال وتعديدَهُ من البُخْل، وذلك مُنَافٍ لِسِرِّ الصلاة والزكاة ومقصودِهما.

ثُمَّ خوَّفَ - سبحانه - الإنسانَ الذي هذا وَصْفُه حين يُبَعْثَرُ ما في القبور؛ أي: يُثَارُ ويُخرَجُ، ويُحصَّلُ ما في الصدور؛ أي: مُيِّزَ، وجُمِعَ، وبُيِّنَ، وأُظْهِرَ، ونحو ذلك.

وجمع - سبحانه - بين القبور والصدور، كما جمع بينهما النبيُّ ﷺ في قوله:

---

(١) ينظر: (ص:٤٦).

«مَلأَ اللهُ أَجْوَافَهم وقُبُورَهم نارًا»[١]، فإنَّ الإنسانَ يواري صدرُهُ ما فيه من الخير والشرِّ، ويواري قبرُهُ جسمَهُ، فيُخرِجُ الرَّبُّ جسمَهُ من قبره، وسِرَّهُ من صدره، فيصير جسمُهُ بارزًا علىٰ الأرض، وسِرُّهُ باديًا علىٰ وجهه، كما قال تعالىٰ: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الرحمن:٤١]، وقال تعالىٰ: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ [القلم:١٦].

وقيَّدَ - سبحانه - كونه خبيرًا بهم ذلك اليوم - وهو خبيرٌ بهم في كلِّ وقتٍ - إيذانًا بالجزاء، وأنَّه يجازيهم في ذلك اليوم بما يعلمه منهم، فذكر العلم والمرادُ لازِمُهُ، والله أعلم.

فصل

ص: ١٣٣

قسم الله تعالى بالعصر

ومن ذلك إقسامُهُ - سبحانه - بـ«العَصْر» علىٰ حال الإنسان في الآخرة، وهذه السورة علىٰ غاية اختصارها لها شأنٌ عظيمٌ، حتَّىٰ قال الشافعيُّ رحمه الله: «لو فكَّرَ النَّاسُ كلُّهم فيها لَكَفَتْهُم»[٢].

و«العَصْر» المُقْسَمُ به:

قيل: هو الوقت الذي يلي المغرب من النَّهار.

وقيل: هو آخر ساعةٍ من ساعاته.

وقيل: المراد صلاة العَصْر.

وأكثر المفسِّرين علىٰ أنَّه الدَّهر، وهذا هو الراجح.

فأقسَمَ - سبحانه - بـ«العَصْر» لمكان العبرة والآية فيه، فإنَّ مرورَ الليل والنَّهار

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٥٩)، مسلم (٦٢٨).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٧٩).

علىٰ تقديرٍ قدَّرَهُ العزيزُ العليمُ، منتظِمٍ لمصالح العالم علىٰ أكمل ترتيب ونظام، آيةٌ من آيات الرَّبِّ - تعالىٰ - وبرهانٌ من براهين قدرته وحكمته.

فأقسَمَ بـ«العَصْر» الذي هو زمانُ أفعال الإنسان ومَحَلُّها علىٰ عاقبة تلك الأفعال وجزائها، ونبَّهَ بالمَبْدَأ وهو خَلْقُ الزَّمَان والفاعلين وأفعالهم علىٰ المَعَاد، وأنَّ قدرته كما لم تقصر عن المبدأ لم تقصر عن المَعَاد، وأنَّ حكمته التي اقتضت خَلْقَ الزَّمان وخَلْقَ الفاعلين وأفعالهم - وجعلها قسمين: خيرًا وشرًّا - تأْبَىٰ أن يُسَوِّي بينهم، وأن لا يُجَازِي المُحسِنَ بإحسانه، والمسيءَ بإساءته، وأن يجعل النَّوعَين رابحِين أو خاسرين، بل الإنسان من حيث هو إنسانٌ: خاسرٌ، إلا من رحِمه اللهُ، فهَدَاهُ ووفَّقه للإيمان والعمل الصالح في نفسه، وأمَرَ غيرَهُ به. وهذا نظير ردِّه الإنسانَ إلىٰ أسفل سافلين، واستثنائِهِ الذين آمنوا وعملوا الصالحات من هؤلاء المردودين.

وتأمَّلْ حكمة القرآن لمَّا قال: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ ضيَّقَ الاستثناءَ وخصَّصَهُ، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾. ولمَّا قال: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ وسَّعَ الاستثناءَ وعمَّمَهُ، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولم يقل: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ﴾؛ فإنَّ التَّوَاصي هو أَمْرُ الغير بالإيمان والعمل الصالح، وهو قدرٌ زائدٌ علىٰ مجرَّدِ فعله، فمن لم يكن كذلك فقد خَسِر هذا الربح، فصار في خُسْرٍ، ولا يلزم أن يكون في أسفل سافلين، فإنَّ الإنسان قد يقوم بما يجب عليه ولا يأمر غيره به، فإنَّ الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر مرتبةٌ زائدةٌ؛ وقد يكون فرضًا علىٰ الأعيان، وقد يكون فرضًا علىٰ الكفاية، وقد يكون مستحبًّا.

و«التواصي بالحقِّ» يدخل فيه: الحقُّ الذي يجب، والحقُّ الذي يستحب.
و«الصبر» يدخل فيه: الصبر الذي يجب، والصبر الذي يستحب.

فهؤلاء إذا تواصوا بالحقّ وتواصوا بالصبر حصل لهم من الربح ما خسره أولئك الذين قاموا بما يجب عليهم في أنفسهم ولم يأمروا غيرهم به، وإن كان أولئك لم يكونوا من الذين خسروا أنفسهم وأهليهم.

فمُطْلَقُ الخَسَار شيءٌ، والخَسَارُ المطلقُ شيءٌ، وهو - سبحانه - إنَّما قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾، ومن ربح في سلعةٍ وخسر في غيرها قد يطلق عليه أنَّه: في خُسْرٍ، وأنَّه: ذو خُسْرٍ، كما قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «لقد فرَّطْنا في قَرَارِيطَ كثيرةٍ»[1]، فهذا نوعُ تفريطٍ، وهو نوعُ خُسْرٍ بالنسبة إلىٰ من حصَّلَ ربح ذلك.

ولمَّا قال في سورة «والتين»: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فقسَّمَ النَّاسَ في هذين القسمين فقط.

ولمَّا كان الإنسان له قُوَّتان: قوَّةُ العلم، وقوَّةُ العمل. وله حالتان: حالةٌ يأتمر فيها بأمر غيره، وحالةٌ يأمر فيها غيره = استثنىٰ - سبحانه - من كمَّلَ قوَّته العلميَّة بالإيمان، وقوَّته العَمَليَّة بالعمل الصالح، وانقاد لأمر غيره له بذلك، وأمَرَ غيرَه به؛ من الإنسان الذي هو في خُسْرٍ.

فإنَّ العبد له حالتان: حالةُ كمالٍ في نفسه، وحالةُ تكميلٍ لغيره.

وكماله وتكميله موقوفٌ علىٰ أمرين: علمٌ بالحقِّ، وصبرٌ عليه.

فانتظمت هذه الآية جميع مراتب الكمال الإنساني، من العلم النافع، والعمل الصالح، والإحسان إلىٰ نفسه بذلك، وإلىٰ أخيه به، وانقياده وقبوله لمن يأمره بذلك.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ إرشادٌ إلىٰ منصب الإمامة في الدِّين، كقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، فبالصبر واليقين تُنَالُ الإمامةُ في الدِّين.

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٦٠)، ومسلم (٩٤٥).

و«الصبر» نوعان:

نوعٌ بالمقدور، كالمصائب.

ونوعٌ بالمشروع. وهذا النَّوع - أيضًا - نوعان:

١ - صبرٌ علىٰ الأوامر.

٢ - وصبرٌ عن المناهي.

فذاك صبرٌ علىٰ الإرادة والفعل، وهذا صبرٌ عن الإرادة والفعل.

فأمَّا النَّوع الأوَّل من «الصبر» فمشتركٌ بين المؤمن والكافر، والبرِّ والفاجر، ولا يثاب عليه لمجرَّدِهِ إن لم يقترن به إيمانٌ واحتسابٌ، كما قال النبيُّ ﷺ في حقِّ ابنته: «مُرْهَا فلْتَصْبِر ولْتَحْتَسِبْ»[1]، وقال تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود:١١]، وقال تعالىٰ: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ [آل عمران:١٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ [آل عمران:١٢٠].

فالصبر بدون الايمان والتقوىٰ بمنزلة قوَّة البدن الخالي عن الإيمان والتقوىٰ، وعلىٰ حسب اليقين بالمشروع يكون الصبر علىٰ المقدور.

فصل

ص: ١٣٩

قسم الله تعالى بالسماء ذات البروج

ومن ذلك إقسامُهُ - سبحانه - بالسماء ﴿ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾ [البروج:١-٣].

وقد فُسِّرت «البروجُ»: بالبروجِ التي تنزلها الشمسُ والقمرُ والسيَّارةُ.

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٢٤)، ومسلم (٩٢٣).

وفُسِّرَت: بالنُّجُوم، أو نوع منها.

وفُسِّرت: بالقُصور العِظَام.

وكلُّ ذلك من آيات قدرته، وشواهد وحدانيته، وأدلَّة ربوبيته؛

فبروج السماء - وهي منازلها، أو منازل السيَّارة التي فيها - من أعظم آياته سبحانه، فلهذا أقسَمَ بها مع السماء، ثُمَّ أقسَمَ بـ«اليوم الموعود» وهو يوم القيامة، وهو المُقْسَمُ به وعليه، كما أنَّ القرآن يُقْسَمُ به وعليه.

ودلَّ علىٰ وقوع اليوم الموعود باتفاق الرُّسُل عليه، وبما عرَّفَ عبادَهُ من حكمته وعزَّتِه التي تأْبَىٰ أن يتركهم سُدَىً، ويخلقهم عبثًا.

فالإقسام به عند من آمن بالله كالإقسام بالسماء وغيرها من الموجودات المُشَاهَدَةِ بالعِيَان.

ثُمَّ أقسَمَ - سبحانه - بـ «الشاهد» و«المشهود»، مُطْلَقَين غير مُعَيَّنَين، وأَعَمُّ المعاني فيه أنه: المُدْرِكُ والمُدْرَك، والعالِم والمعلوم، والرائي والمرئي؛ وهذا أليق المعاني به، وما عداه من الأقوال ذُكِرت علىٰ وجه التمثيل، لا علىٰ وجه التخصيص.

فإن قيل: فما وجه الارتباط بين هذه الثلاثة المُقْسَم بها؟

قيل: هي - بحمد الله - في غاية الارتباط، والإقسامُ بها متناوِلٌ لكلِّ موجودٍ في الدنيا والآخرة، وكلٌّ منها آيةٌ مستقلَّةٌ دالَّةٌ علىٰ ربوبيته وإلهيَّته.

فأقسَمَ بالعالم العُلْويِّ، وهو السماء وما فيها من البروج، التي هي أعظم الأمكنة وأوسعها.

ثُمَّ أقسَمَ بأعظم الأيام وأَجَلِّها قدرًا، الذي هو مَظْهَرُ مُلْكِهِ، وأمره، ونهيه، وثوابه، وعقابه، ومجْمَعُ أوليائه وأعدائه، والحكم بينهم بعلمه وعدله.

ثُمَّ أقسَمَ بما هو أعمُّ من ذلك كلِّه، وهو «الشاهد» و«المشهود». وناسَبَ هذا القَسَم ذِكْرَ أصحابِ الأخدود الذين عَذَّبُوا أولياءَهُ، وهم شهودٌ علىٰ ما يفعلون بهم، والملائكةُ شهودٌ عليهم بذلك، والأنبياءُ، وجوارحُهم تشهد به عليهم.

وفيه سِرٌّ آخر؛ وهو أنَّ ذلك يتضمَّنُ القَسَمَ بملائكته وأنبيائه ورسله، فإنَّهم شاهدون علىٰ العباد، فيكون من باب اتحاد المقسَم به والمقسَم عليه، كما أقسم باليوم الموعود، وهو المقسَم به وعليه.

وأيضًا؛ فيوم القيامة مشهودٌ، كما قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ [هود:١٠٣] يشهده الله، وملائكته، والإنس، والجنُّ، والوحش، فالشاهد من آياته، والمشهود من آياته.

وأيضًا؛ فكلامه مشهودٌ كما قال تعالىٰ: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾ [الإسراء:٧٨]، تشهده ملائكة الليل، وملائكة النَّهار؛ فالمشهود من أعظم آياته، وكذلك الشاهد.

فكُلُّ ما وقع عليه اسم «شاهدٍ» و«مشهودٍ» فهو داخلٌ في هذا القَسَم، فلا وجه لتخصيصه ببعض الأنواع أو الأعيان إلا علىٰ سبيل التمثيل.

وأيضًا؛ فكتاب الأبرار في عِلِّيين يشهده المقرَّبُون، فالكتاب مشهودٌ، والمقرَّبُون شاهدون.

والأحسن أن يكون هذا القَسَمُ مستغنيًا عن الجواب؛ لأنَّ القَصْدَ التنبيهُ علىٰ المُقْسَم به، وأنَّه من آيات الرَّبِّ العظيمة. ويَبْعُدُ أن يكون الجوابُ: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾؛ لأنَّ ذلك دعاءٌ وطلبٌ، ولكنه - سبحانه - ذكر حال أعدائه وأوليائه، فذكر أصحابَ الأخدود الذين فتنوا أولياءه، وعذَّبوهم بالنَّار ذات الوقود.

ثُمَّ وصف حالَهم القبيحةَ بأنَّهم قعدوا علىٰ جانب الأخدود، شاهدين علىٰ

ما يجري علىٰ عباد الله وأوليائه عِيَانًا، ولا تأخذهم بهم رأفةٌ ولا رحمةٌ، ولم يعيبوا عليهم ذنبًا سِوَىٰ إيمانهم بالله العزيز الحميد الذي له ملك السماوات والأرض، وهذا الوصف يقتضي إكرامَهُم وتعظيمَهُم ومَحَبَّتَهُم، فعَامَلُوهم بضدِّ ما يقتضي أن يُعامَلُوا به.

وهذا شأن أعداء الله دائمًا، ينقمون علىٰ أوليائه ما ينبغي أن يُحَبُّوا ويُكْرَمُوا لأجله، كما قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة:٥٩].

وكذلك اللُّوطِيَّةُ نَقَمُوا من عباد الله تنزُّهَهُم عن مثل فعلهم، فقالوا: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف:٨٢].

ثُمَّ أخبر - سبحانه - أنَّما أعدَّ لهم عذابَ جهنَّم وعذابَ الحريق حيث لم يتوبوا، وأنَّهم لو تابوا بعد أن فتنوا المؤمنين وعذَّبُوهم بالنَّار لَغَفَرَ لهم ولم يعذِّبهم، وهذا غاية الكرم والجود.

قال الحسن: «انظروا إلى هذا الكرم والجود، يقتلون أولياءه، ويفتنونهم، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة».

ثُمَّ ذكر - سبحانه - جزاء أوليائه المؤمنين، ثُمَّ ذكر شِدَّة بَطْشِهِ وأنَّه لا يعجزه شيءٌ، فإنَّه هو المبدئ المعيد، ومن كان كذلك فلا أشدَّ من بطشه، وهو مع ذلك الغفور الودود، يغفر لمن تاب إليه ويَوَدُّهُ ويحبُّهُ، فهو - سبحانه - الموصوفُ بشدَّةِ البَطْشِ، وهو مع ذلك الغفور الودود.

و«الوَدُودُ»: المتودِّدُ إلىٰ عباده بنِعَمِه، الذي يَوَدُّ من تاب إليه وأَقْبَلَ عليه.

وهو «الودود» - أيضًا - أي: المحبوب.

قال البخاري في «صحيحه»: «الودود: الحبيب»[١].

والتحقيقُ: أنَّ اللفظ يدلُّ علىٰ الأمرين؛ علىٰ كونه وادًّا لأوليائه، مودُودًا لهم، فأحدهما بالوَضْع، والآخر باللزوم. فهو الحبيبُ المُحِبُّ لأوليائه، يحبُّهم ويحبُّونه. قال شعيب عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود:٩٠].

وما ألطف اقتران اسم «الودود» بـ«الرحيم» وبـ«الغفور»، فإنَّ الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبُّه، وكذلك قد يرحم من لا يحبُّه. والرَّبُّ - تعالى - يغفر لعبده إذا تاب إليه، ويرحمه، ويحبُّه مع ذلك، فإنَّه يحبُّ التوَّابين، وإذا تاب إليه عبدُهُ أحبَّهُ ولو كان منه ما كان.

ثُمَّ قال تعالىٰ: ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾، فأضاف «العرش» إلىٰ نفسه، كما تُضَاف إليه الأشياء العظيمة الشريفة.

وهذا يدلُّ علىٰ عظمةِ «العرش»، وقُرْبِهِ منه سبحانه، واختصاصه به، بل يدلُّ علىٰ غاية القُرْبِ والاختصاص، كما يضيف إلىٰ نفسه بـ«ذو» صفاته القائمة به كقوله تعالىٰ: ﴿ذُو الْقُوَّةِ﴾ [الذاريات:٥٨]، و﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧].

ثُمَّ وصف نفسه بـ«المجيد»، وهو المتضمِّنُ لكثرةِ صفاتِ كماله وسعتها، وعدمِ إحصاءِ الخَلْقِ لها، وسَعَةِ أفعاله وكثرةِ خيرهِ ودوامه.

و«المَجْدُ» في لغة العرب: كثرة أوصاف الكمال، وكثرة أفعال الخير[٢].

وأحسن ما قُرِنَ اسم «المجيد» إلىٰ «الحميد»، كما قالت الملائكة لبيت الخليل عليه السلام: ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود:٧٣]، وكما

---

(١) كتاب التفسير، سورة البروج. «الفتح» (٨/ ٥٨١).

(٢) انظر: «تهذيب اللغة» (١٠/ ٦٨٢).

شُرِعَ لنا في آخر الصلاة بأن نُثْنِي علىٰ الرَّبِّ - تعالىٰ - بأنَّه حميدٌ مجيدٌ[١]، وشُرع في آخر الركعة عند الاعتدال أن نقول بعد «ربنا ولك الحمد»: «أهل الثناء والمجد»[٢].

فـ«الحَمْدُ» و«المجد» -علىٰ الإطلاق - لله الحميد المجيد، فـ«المجيد»: الحبيبُ المستحِقُّ لجميع صفات الكمال. و«الحميد»: العظيمُ الواسعُ القادِرُ الغنيُّ ذو الجلال والإكرام.

ومن قرأ ﴿ٱلْمَجِيدِ﴾ - بالكسر - فهو صفة لعرشه سبحانه، وإذا كان عرشُه مجيدًا فهو - سبحانه - أحقُّ بالمجد.

فإنَّ الله - سبحانه - وصف عرشه بالكَرَم، وهو نظير المجد. ووصَفَهُ بالعَظَمة.

فوصْفُه بالمجد مطابقٌ لوصفه بالعظمةِ والكَرَم، بل هو أحقُّ المخلوقات أن يوصف بذلك، لسَعَتِه، وحُسْنِه، وبهاءِ مَنْظَرِه، فإنَّه أوسعُ شيءٍ في المخلوقات، وأجملُهُ، وأجمعُهُ لصفاتِ الحُسْن، وبهاءِ المَنْظَر، والسماواتُ السبع والأَرَضُون السبع في الكرسيِّ - الذي بين يديه - كحَلْقةٍ مُلْقَاةٍ في أرضٍ فَلَاةٍ، والكرسيُّ فيه - كذلك - كتلك الحَلْقة في الفلاة[٣].

قال ابن عباس: «السماوات السَّبْعُ في العرش كسبعة دراهم جُعِلْنَ في تُرْسٍ».

وقوله تعالىٰ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ دليلٌ علىٰ أمورٍ:

أحدها: أنَّه - سبحانه - يفعل بإرادته ومشيئته.

الثاني: أنَّه لم يزل كذلك؛ لأنَّه ساق ذلك في معرض المدح والثناء علىٰ نفسه، وأنَّ ذلك من كماله سُبحانه، فلا يجوز أن يكون عادمًا لهذا الكمال في وقتٍ من

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٠)، ومسلم (٤٠٦).

(٢) أخرجه مسلم (٤٧٧).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب «العرش» رقم (٥٨)، وصححه ابن حبَّان (٣٦١).

الأوقات، وقد قال تعالىٰ: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل:١٧].

الثالث: أنَّ فعله - سبحانه - وإرادته متلازمان، فما أراد أن يفعله فَعَلَه، وما فَعَلَهُ فقد أراده. بخلاف المخلوق، فإنَّه يريد ما لا يفعل، وقد يفعل ما لا يريد، فما ثَمَّ فعَّالٌ لما يريد إلا اللهُ وحده.

وقد اشتملت هذه السورة -علىٰ اختصارها - من التوحيد علىٰ:

وَصفِه - سبحانه - بـ«العِزَّة»؛ المتضمِّنة للقُدرةِ والقوَّةِ، وعَدَمِ النَّظِير.

و«الحمدِ» المتضمِّن لصفات الكمال، والتنزيه عن أضدادها، مع محبَّته وإلهيَّته.

ومُلْكِه السماوات والأرض؛ المتضمِّن لكمال غِنَاهُ، وسَعَةِ ملكه.

وشهادتِهِ علىٰ كلِّ شيءٍ؛ المتضمِّن لعموم اطِّلَاعه علىٰ ظواهر الأمور وبواطنها، وإحاطة بَصَرِه بمرئياتها، وسَمْعِه بمسموعاتها، وعِلْمِه بمعلوماتها.

وَوَصْفِه بشدَّةِ البَطْش؛ المتضمِّن لكمال القُدْرَةِ والقوَّةِ والعِزَّةِ.

وتفرُّده بالإِبْدَاءِ والإِعَادَةِ؛ المتضمِّن لتوحيد ربوبيته وتصرُّفِه في المخلوقات بالإبداء والإعادة، وانقيادها لقدرته، فلا يَسْتَعْصِي عليه منها شيءٌ.

وَوَصْفِه بـ«المغفرة»؛ المتضمِّن لكمال جوده، وإحسانه، وغِنَاهُ، ورحمته.

وَوَصْفِه بـ«الودود»؛ المتضمِّن لكونه حبيبًا إلىٰ عباده، مُحِبًّا لهم.

وَوَصْفِه بأنَّه «ذو العرش»؛ الذي لا يقدر قَدْرَه سواه، وأنَّه عرشُهُ المختصُّ به؛ الذي لا يليق بغيره أن يستوي عليه.

وَوَصْفِه بـ«المَجْد»؛ المتضمِّن لسعة العلم، والقدرة، والملك، والغنىٰ، والجود، والإحسان، والكرم.

وكونِه فعَّالًا لما يريد؛ المتضمِّن لحياته، وعلمه، وقدرته، ومشيئته، وحكمته. وغير ذلك من أوصاف كماله.

فهذه السورة كتابٌ مستقلٌّ في أصول الدِّين، تكفي من فَهِمَها.

فـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف:١]، و﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان:١].

ثُمَّ خَتَمَها بذِكْرِ فعله وعقوبته بمن أشركَ به، وكذَّبَ رُسُلَه؛ تحذيرًا لعباده من سلوك سبيلهم، وأنَّ من فعل فعلهم فُعِلَ به كما فُعِلَ بهم.

ثُمَّ أخبر عن أعدائه بأنَّهم مكذِّبون بتوحيده ورسالاته مع كونهم في قبضته، وهو محيطٌ بهم، ولا أسوأَ حالًا ممَّن عادَىٰ من هو في قبضته، ومن هو قادرٌ عليه من كلِّ وجهٍ، وبكلِّ اعتبارٍ، فقال تعالىٰ: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ [البروج:١٩، ٢٠]، فهل أعجَبُ ممَّن كَفَرَ بمن هو محيطٌ به، آخِذٌ بناصيته، قادِرٌ عليه؟!

ثُمَّ وصَفَ كلامَهُ بأنَّه «مجيدٌ»، وهو أحقُّ بالمجد من كلِّ كلام، كما أنَّ المتكلِّم به له المجد كلُّه، فهو «المجيد»، وكلامُه مجيدٌ، وعرشه مجيدٌ.

وقوله: ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج:٢٢]؛ أكثر القُرَّاء علىٰ الجرِّ، صفةً لـ«لَوْح»، وفيه إشارةٌ إلىٰ أنَّ الشياطين لا يمكنهم التنزُّلُ به؛ لأنَّ مَحَلَّهُ محفوظٌ أن يصلوا إليه، وهو في نفسه محفوظٌ أن تقدر الشياطين علىٰ الزيادة فيه أو النقصان.

فوصَفَهُ - سبحانه - بأنَّه محفوظٌ في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، ووصف مَحَلَّهُ بالحفظ في هذه السورة.

فالله - سبحانه - حفظ مَحَلَّهُ، وحفظه من الزيادة والنقصان والتبديل، وحَفِظَ معانيه من التحريف كما حفظ ألفاظَهُ من التبديل، وأقام له من يحفظ حُرُوفَهُ من الزيادة والنقصان، ومعانيه من التحريف والتغيير.

فصل

ص: ١٥٧

قسم الله تعالى بالسماء والطارق

ومن ذلك إقسامُه - سبحانه - بـ ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ [الطارق:١]، وقد فسَّره بأنَّه ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ الذي يثقُب ضَوؤُه.

والمراد به الجنس لا نجمٌ معيَّنٌ، ومن عيَّنَهُ بأنَّه «الثريَّا»، أو «زُحَل»: فإن أراد التمثيل فصحيحٌ، وإن أراد التخصيص فلا دليل عليه.

والمقصود أنَّه - سبحانه - أقسَمَ بالسماءِ ونُجُومِها المضيئة، وكلٌّ منها آيةٌ من آياته الدَّالَّةِ علىٰ وحدانيته.

وسمَّىٰ «النَّجمَ»: طارقًا؛ لأنَّه يظهر بالليل بعد اختفائه بضوء الشمس، فشُبِّهَ بالطارق الذي يطرق النَّاسَ أو أهلَهُ ليلًا.

والمقسَمُ عليه - ها هنا - حالُ النَّفْس الإنسانية، والاعتناءُ بها، وإقامةُ الحَفَظَةِ عليها، وأنَّها لم تُتْرَكْ سُدىً، بل قد أُرْصِدَ عليها من يحفظ عليها أعمالها ويحصيها، فأقسَمَ - سبحانه - أنَّه ما من نفسٍ إلا عليها حافظٌ من الملائكة، يحفظ عملَها وقولَها، ويحصي ما تكسب من خيرٍ أو شرٍّ.

واختلَف القُرَّاء في «لَما»: فشدَّدَها بعضُهم، وخفَّفها بعضهم.

فمن قرأها بالتشديد جعلها بمعنىٰ «إلَّا».

ثُمَّ نبَّهَ - سبحانه - الإنسانَ علىٰ دليل المَعَاد بما يشاهده من حال مبدئه، علىٰ طريقة القرآن في الاستدلال علىٰ المعاد بالمبدأ، فقال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق:٥] أي: «فلينظر نظر الفكر والاستدلال ليعلم أنَّ الذي ابتدأ خَلْقَهُ من نُطفةٍ قادرٌ علىٰ إعادته».

ثُمَّ أخبر - سبحانه - أنَّه خُلِقَ من ماءٍ دافِقٍ.

و«الدَّفْقُ»: صَبُّ الماءِ.

و«الدَّافِقُ»؛ قيل: إنَّه فاعلٌ بمعنىٰ مفعول؛ كقولهم: سِرٌّ كَاتِمٌ، وعِيشَةٌ راضِيَةٌ.

وقيل: هو علىٰ النَّسَبِ؛ لا علىٰ الفعل، أي: ذي دَفْق، وذات رضىً. ولم يُرِد الجريان عَلىٰ الفعل.

وقيل: - وهو الصواب - إنَّه اسم فاعلٍ علىٰ بابه؛ ولا يلزم من ذلك أن يكون هو فاعل الدَّفْق، فإنَّ اسمَ الفاعل هو من قام به الفعل؛ سواء فَعَلَهُ هو أو غيرُه؛ كما يقال: ماءٌ جَارٍ، ورجلٌ مَيْتٌ وإن لم يفعل الموت، بل لمَّا قام به الموت نُسِب إليه علىٰ جهة الفعل.

وهذا غير مُنْكَرٍ في لُغةِ أُمَّةٍ من الأُمَم، فضلًا عن أوسع اللُّغات وأفصحِها.

وأمَّا «العيشة الراضية» فالوصفُ بها أحسنُ من الوصف بالمرضيَّةِ، فإنَّها اللَّائقة بهم، فشبَّهَ ذلك برِضَاها بهم كما رَضُوا بها، كأنَّها رَضِيَت بهم ورَضُوا بها، وهذا أبلغ من مجرَّدِ كونها مرضيَّةً فقط؛ فتأَمَّلْه.

وإذا كانوا يقولون: الوقت الحاضر، والساعة الراهنة - وإن لم يَفْعَلَا ذلك - فكيف يمتنع أن يقولوا: ماءٌ دافِقٌ، وعيشَةٌ راضيةٌ؟!

ونَبَّه - سبحانه - بكونه دافقًا علىٰ أنَّه ضعيفٌ غير متماسك. ثُمَّ ذَكَرَ مَحَلَّهُ الذي يخرج منه، وهو بين الصُّلْب والترائب.

قال ابن عباس: «يريدُ صُلْبَ الرَّجُل، وترائبَ المرأة - وهو موضع القِلَادة من صدرها -؛ والولدُ يُخْلَقُ من المائين جميعًا»[1].

وقيل: صُلْبُ الرجل وتَرَائِبُهُ وهي صدره، فيخرج من صُلْبِهِ وصَدْرِهِ.

---

(١) انظر: «الدر المنثور» (٦/ ٥٦٠).

وهذه الآية الدَّالَّةُ علىٰ قدرة الخالق - سبحانه - نظير إخراجه اللَّبَنَ الخالِصَ من بين الفَرْثِ والدَّمِ.

ثُمَّ ذكر - سبحانه - الأمرَ المستَدَلَّ عليه وهو المَعَاد بقوله ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾؛ أي: علىٰ رجعه إليه يوم القيامة، كما هو قادرٌ علىٰ خلقه من ماءٍ هذا شأنه.

هذا هو الصحيح في معنىٰ الآية، وفيها قولان ضعيفان:

أحدهما: قول مجاهد: «إنَّه علىٰ ردِّ الماءِ في الإِحْلِيلِ لَقَادِرٌ»[١].

والثاني: قول عكرمة والضحَّاك: «إنَّه علىٰ ردِّ الماءِ في الصُّلْبِ لَقَادِرٌ»[٢].

وفيها **قولٌ ثالثٌ**؛ قال مقاتلٌ: «إنْ شِئْتُ رددتُه من الكِبَرِ إلىٰ الشباب، ومن الشباب إلىٰ الصِّبَا، ومن الصِّبَا إلىٰ النُّطْفَة».

والقول هو الأوَّل؛ لوجوه:

أحدها: أنَّه هو المعهود من طريقة القرآن من الاستدلال بالمبدأ علىٰ المَعَاد.

الثاني: أنَّه لم يأت في القرآن لهذا المعنىٰ نظيرٌ في موضعٍ واحد، ولا أنكره أحدٌ حتَّىٰ يقيم - سبحانه - الدليلَ عليه.

الثالث: أنَّه قيَّدَ الفعلَ بالظَّرْفِ وهو قوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ وهو يوم القيامة؛ أي: أنَّ الله قادرٌ علىٰ رجعه إليه حيًّا في ذلك اليوم.

الرابع: أنَّ الضمير في ﴿رَجْعِهِۦ﴾ هو الضمير في قوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ وهذا للإنسان - قطعًا - لا للماء.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٣٦).

(٢) أما أثر عكرمة فأخرجه: الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٣٦).

وأما نسبة هذا القول للضحَّاك؛ فانظر: «الوسيط» (٤/ ٤٦٥).

الخامس: أنَّه - سبحانه - نبَّهَ بقوله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ علىٰ أنَّه قد وكَّل به من يحفظ عليه عَمَلَهُ ويحصيه، فلا يضيع منه شيءٌ. ثُمَّ نبَّهَ بقوله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ علىٰ بعثه لجزائه علىٰ العمل الذي حُفِظَ وأُحْصِيَ عليه.

فذكر شأنَ مبدأ عملِه ونهايتِه، فمبدَؤُهُ محفوظٌ عليه، ونهايته الجزاء عليه، ونبَّهَ علىٰ هذا بقوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ أي: تختبر السرائر.

وقال مقاتل: «تظهر وتبدو»[1].

وبَلَوْتَ الشيءَ: إذا اختبرتَهُ ليظهر لك باطِنُه، وما خَفِيَ منه.

و«السرائر»: جمع سَرِيرة، وهي سرائر الله التي بينه وبين عبده في ظاهره وباطنه. فالإيمان من السرائر، وشرائعه من السرائر، فتُخْتَبر ذلك اليوم حتَّىٰ يظهر خيرُها من شرِّها، ومُؤَدِّيها من مضيِّعِها، وما كان لله ممَّا لم يكن له.

وفيما كتب بعض السلف إلىٰ بعضٍ: «مَنْ أَصلَحَ سريرتَهُ أصلَحَ اللهُ علانيته».

ومن دعاء ابن عمر: «اللهُمَّ اجعل سريرتي خيرًا من علانيتي، واجعل علانيتي صالحةً»[2].

ثُمَّ أخبر - سبحانه - عن حال الإنسان في يوم القيامة أنَّه غير مُمْتَنِع من عذاب الله؛ لا بقوَّةٍ منه، ولا بقوَّةٍ من خارجٍ - وهو «النَّاصر» -، فإنَّ العبد إذا وقع في شدَّةٍ: فإمَّا أن يَدْفَعَها بقوَّتِه، أو بقوَّةِ من يَنْصُرُه، وكلاهما معدومٌ في حَقِّهِ، ونظيره قوله سبحانه: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء:٤٣].

ثُمَّ أقسَمَ - سبحانه - بـ ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾، فأقسم بالسماءِ وَرَجْعِها بالمَطَر، والأرض وَصَدْعِها بالنَّبات.

---

(١) نقله عنه الواحديُّ في «الوسيط» (٤/ ٤٦٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٨٦)، وضعفه.

قال أبو إسحاق: «الرَّجْعُ: المطر؛ لأنَّه يجيءُ ويرجع ويتكرَّر»[١].

وكذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «تُبْدِي بالمطر ثُمَّ ترجع به في كلِّ عام»[٢].

والتحقيقُ: أنَّ هذا علىٰ وجه التمثيل، ورَجْعُ السماء: هو إعطاءُ الخير الذي يكون من جِهَتِها حالًا بعد حالٍ، علىٰ مرور الأزمان. تَرْجِعُهُ رَجْعًا، أي: تُعْطِيه مَرَّةً بعد مرَّةٍ.

والخيرُ كلُّهُ من قِبَل السماءِ يجيءُ، ولمَّا كان أظْهَرَ الخيرِ المشهودِ بالعِيَانِ المَطَرُ فُسِّرَ «الرَّجْعُ» به، وحَسَّنَ تفسيرَهُ به مقابلتُه بصَدْع الأرض عن النَّبات، وفُسِّرَ «الصَّدْع» بالنَّبات؛ لأنَّه يَصْدَعُ الأرضَ أي: يَشُقُّها.

فأقسَمَ - سبحانه - بالسماء ذات المطر، والأرض ذات النَّبات، وكلٌّ من ذلك آيةٌ من آياتِ الله -تعالىٰ - الدَّالَّةِ علىٰ ربوبيته.

وأَقْسَمَ علىٰ كَونِ القرآنِ حقًّا وصدقًا، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۝١٤﴾ [الطارق:١٣، ١٤]، كما أقسم في أوَّل السورة علىٰ حال الإنسان في مبدئه ومَعَاده.

و«القولُ الفَصْلُ»: هو الذي يَفْصِلُ بين الحقِّ والباطل، فيميِّزُ هذا من هذا، ويَفْصِلُ بين النَّاس فيما اختلفوا فيه.

وأيضًا؛ فالقولُ الفَصْلُ: الفَصْلُ ببيان المعنىٰ، ضِدُّ الإجمال.

فَكَونُ القرآنِ «فَصْلًا» يتضمَّنُ هذه المعاني كلَّها، ويتضمَّنُ كونه «حقًّا» ليس بالباطل، و«جِدًّا» ليس بالهَزْل.

---

(١) «معاني القرآن» للزجَّاج (٥/ ٣١٢).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٣٨ - ٥٣٩).

ولمَّا كان الهَزْل هو الذي لا حقيقة له - وهو الباطل واللَّعِب - قابَلَ بين الفَصْلِ والهَزْلِ، وإنَّما يكيد المكذِّبون ويتحيَّلُون، ويخادِعون لِرَدِّه ولا يردُّونَه بِحُجَّةٍ، واللهُ يكيدُهم كما يكيدون دينَهُ ورسولَهُ وعبادَهُ، وكَيدُه - سبحانه - استدراجُهم من حيث لا يعلمون، والإملاءُ لهم حتَّىٰ يأخُذَهم علىٰ غِرَّةٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف:١٨٣]، فالإنسان إذا أراد أن يكيد غيره يُظْهِر له إكرامه وإحسانه إليه حتَّىٰ يطمئنَّ إليه؛ فيأخذه، كما يفعل الملوك. فإذا فعل أعداءُ الله ذلك بأوليائِه ودينه كان كيدُ اللهِ لهم حَسَنًا لا قُبْحَ فيه، فيُعْطِيهم ويُعَافِيهم وهو يستدرجهم، حتىٰ إذا فَرِحُوا بما أُوتوا أخذهم بغتةً.

ثُمَّ قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾؛ أي: أَنظِرْهُم قليلًا ولا تستعجل لهم. والرَّبُّ - تعالىٰ - هو الذي يُمْهِلُهم، وإنَّما خَرَجَ الخِطابُ للرسول ﷺ علىٰ جهة التهديد والوعيد لهم، أو علىٰ معنىٰ: انْتَظِرْ بِهِم قليلًا.

و«رُوَيْدًا» في كلامهم: يكون نعتًا منصوبًا، نحو قولك: سَارُوا رويدًا، تقول العرب: ضعه رويدًا، أي: وَضْعًا رويدًا.

وفي حديث عائشة في خروج النبي ﷺ بالليل من عندها إلىٰ البقيع: «فخرج رويدًا، وأَجَافَ الباب رويدًا»[١].

فصل

ص: ١٧٥

قسم الله تعالى بالشفق

ومن ذلك إقسامُهُ - تعالىٰ - ﴿بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾﴾ [الانشقاق:١٦-١٨]، فأقسم بثلاثة أشياء[٢] متعلِّقةٍ بالليل:

---

(١) أخرجه مسلم (٩٧٤). وأجاف الباب: أغلقه.

(٢) سَهَا المؤلف - رحمه الله - عن الثالث، فلم يتكلم علىٰ القمر إذا اتَّسَق.

أحدها: «الشَّفَقُ»؛ وهو في اللغة: الحُمْرَة بعد غروب الشمس إلىٰ وقت صَلَاة العِشَاء الآخرة، وكذلك هو في الشرع.

ولهذا صَحَّ عن ابن عمر ﭬ أنَّه قال: «الشَّفَقُ: الحُمْرَةُ»[١].

وقال عكرمة: «هو بَقِيَّةُ النَّهار»[٢]؛ وهذا يحتمل أن يريد به أنَّ تلك الحُمْرَة بقية ضوء الشمس التي هي آية النَّهار.

وقال مجاهد: «هو النَّهار كلُّه»[٣]. وهذا ضعيفٌ جدًّا، وكأنَّه لمَّا رآهُ قَابَلَهُ بـ«الليل وما وسق»، ظنَّ أنَّه النَّهار، وهذا ليس بلازِمٍ.

الثاني: قَسَمُهُ بالليل وما وَسَقَ، أي: وما ضَمَّ، وحَوَىٰ، وجَمَع.

والليل آيةٌ، وما ضَمَّهُ وحَوَاهُ آيةٌ أخرىٰ. والقَمَرُ آيةٌ، واتساقُهُ آيةٌ أخرىٰ.

و«الشَّفَقُ» يتضمَّنُ إدبارَ النَّهار، وهو آيةٌ، وإقبالَ الليل، وهو آيةٌ أخرىٰ، فإنَّ هذا إذا أدبر خَلَفَهُ الآخَرُ، يتعاقبان لمصالح الخَلْقِ، فإدبارُ النَّهار آيةٌ، وإقبالُ الليل آيةٌ، وتَعَقُّبُ أحدِهِما للآخَرِ آيةٌ، والشَّفَقُ الذي هو متضمِّنٌ للأمرين آيةٌ.

والليل آيةٌ، وما حَوَاهُ آيةٌ، والهلَالُ آيةٌ، وتزايده كلَّ ليلةٍ آيةٌ، واتِّساقُهُ - وهو امْتِلَاؤُه نُورًا - آيةٌ، ثُمَّ أَخْذُهُ في النقص آيةٌ. وهذه وأمثالُها آياتٌ دالَّةٌ علىٰ ربوبيته، مستلزِمَةٌ للعلم بصفات كماله.

ولهذا شُرِعَ عند إقبال الليل وإدبار النَّهار ذِكْرُ الرَّبِّ - تعالىٰ - بصلاة المغرب، وفي الحديث: «اللهُمَّ هذا إقْبالُ لَيْلِكَ، وإدبارُ نَهَارِكَ، وأصْوَاتُ دُعَاتِك، وحضورُ

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» رقم (٣٣٧٨).

(٢) انظر: «الكشف والبيان» للثعلبي (١٠/ ١٦٠).

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٢/ ٥١٠ - ٥١١).

صَلَوَاتِكَ»(١). كما شُرِعَ ذكر الله بصلاة الفجر عند إدبار الليل وإقبال النَّهار.

ولهذا يُقْسِمُ - سبحانه - بهذين الوقتين كقوله ﷻ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ۝٣٣ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ۝٣٤﴾ [المدثر:٣٣، ٣٤]، وهو يقابل إقْسامه بـ«الشَّفَق»، ونظير إقْسَامِهِ بالليل ﴿إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾ [التكوير:١٧، ١٨].

ولمَّا كان الرَّبُّ - تبارك وتعالىٰ - يُحْدِثُ عند كلِّ واحدٍ من طَرَفَي إقبال الليل والنَّهار وإدبارِهما ما يُحْدِثُهُ، ويَبُثُّ من خلقه ما شاء، فينشر الأرواح الشيطانية عند إقبال الليل، وينشر الأرواح الإنسانية عند إقبال النَّهار، فيُحْدِثُ هذا الانتشارُ في العالَم أثَرَهُ = شرَعَ - سبحانه - في هذين الوقتين هاتين الصلاتين العظيمتين.

فصل

ص: ١٧٩

تقلب الإنسان من حال إلى حال

وقوله تعالىٰ: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ [الانشقاق:١٩]؛ الظاهر أنَّه جوابُ القَسَم، ويجوز أن يكون من القَسَمِ المحذوفِ جوابُهُ، و«لتركَبُنَّ» وما بعده مُسْتأْنَفٌ.

وقُرِئَ «لَتَرْكَبُنَّ» بضم «الباء» للجَمْع، و«لَتَرْكَبَنَّ» بفتحها.

فمن فَتَحَها؛ فالخطاب عنده للإنسان، أي: لتركَبَنَّ أيُّها الإنسانُ.

وقيل: هو للنبيِّ ﷺ خاصَّةً(٢).

وقيل: ليست «الباء»(٣) للخِطَاب، ولكنها للغَيْبَةِ، أي: لَتَرْكَبَنَّ السماءُ طبقًا بعد طبق.

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٣٠)، والترمذي (٣٥٨٩)، وضعفه الألباني «ضعيف الترمذي» رقم (٧٢٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٤٠).

(٣) هكذا في الأصل، وقد يكون الأقرب في المعنىٰ أن تكون: «التاء»، وليست: «الباء».

ومن ضَمَّها؛ فالخطاب للجماعة ليس إلَّا.

فمن جعل الكناية للسماء قال: المعنىٰ: لَتَرْكَبَنَّ السماءُ حالًا بعد حالٍ من حالاتها التي وصفَها اللهُ - تعالىٰ - من الانشقاقِ، والانفطارِ، والطَّيِّ، وكونِها كالمُهْلِ مرَّةً، وكالدِّهَانِ مرَّةً، ومَوَرَانِها، وتَفَتُّحِها، وغير ذلك من حالاتها، وهذا قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه(١).

ودلَّ علىٰ السماءِ ذِكْرُ الشَّفَقِ والقمر، وعلىٰ هذا فيكون قَسَمًا علىٰ المَعَادِ، وتغيُّرِ العالم.

ومن قال: الخطاب للنبيِّ ﷺ؛ فله ثلاثةُ معانٍ:

لَتَرْكَبَنَّ سماءً بعد سماءٍ، حتَّىٰ تنتهي إلىٰ حيث يُصْعِدُكَ اللهُ. هذا قول ابن عباس(٢) - في رواية مجاهد -، وقول مسروق، والشعبي؛ قالوا: والسماءُ طَبَقٌ، ولهذا يقال للسماوات: السَّبْعُ الطِّبَاقُ.

والمعنى الثاني: لَتَصْعَدَنَّ درجةً بعد درجةٍ، ومنزلةً بعد منزلةٍ، ورتبةً بعد رتبةٍ، حتَّىٰ تنتهي إلىٰ مَحَلِّ القُرْبِ والزُّلْفَىٰ من الله تعالىٰ.

والمعنى الثالث: لَتَرْكَبَنَّ حالًا بعد حالٍ من الأحوالِ المختلفةِ التي نَقَلَ اللهُ فيها رسولَهُ ﷺ، من الهجرةِ، والجهادِ، ونَصْرِهِ علىٰ عدوِّهِ، وإدالةِ العدوِّ عليه تارةً، وغناه وفقرِه، وغيرِ ذلك من حالاته التي تنقَّلَ فيها إلىٰ أن بَلَغَ ما بَلَّغَهُ اللهُ إيَّاهُ.

ومن قال: الخطابُ للإنسانِ أو لِجُمْلَةِ النَّاسِ، فالمعنىٰ واحدٌ، وهو تنقُّلُ الإنسانِ حالًا بعد حالٍ، من حين كونه نطفةً إلىٰ مستقرِّه من الجنَّة أو النَّار، فكم بين

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥١٥ - ٥١٦).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١/ رقم ١١١٧٣).

هذين من الأطباق والأحوال للإنسان.

وأقوالُ المفسِّرين كلُّها تدور علىٰ هذا.

وأنتَ إذا تأمَّلْتَ هذا المُقْسَمَ به والمُقْسَمَ عليه وجدتَّه من أعظم الآيات الدَّالَّةِ علىٰ ربوبيته، وتوحيدِهِ، وصفاتِ كماله، وصِدْقِه، وصِدْقِ رُسُلِهِ، وعلىٰ المَعَادِ، ولهذا عقَّبَ ذلك بقوله: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ إنكارًا علىٰ من لم يؤمن بعد ظهور هذه الآيات المستلزِمة لمدلولها أتَمَّ استلزامٍ.

وأنكر عليهم عدم خضوعِهم وسجودِهم للقرآن المشتمِلِ علىٰ ذلك بأفصح عبارةٍ، وأبْيَنِها، وأجْزَلِها، وأوجَزِها. فالمعنىٰ أشرف معنىً، والعبارةُ أشرفُ عبارةٍ، غايةُ الحقِّ بغايةِ البيانِ والفصاحةِ.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ ولا يصدِّقون بالحقِّ جحودًا وعنادًا، والله أعلم بما يُضْمِرُون في صدورهم ويكتمونه، وما يسرُّونه من أعمالهم وما يجمعونه، فيجازيهم عليه بعلمه وعدله، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

فصل

ص: ١٨٤

قسم الله تعالى بالخنس

ومن ذلك إقسامُهُ - سبحانه - ﴿بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ [التكوير:١٥-١٨].

أقْسَمَ - سبحانه - بالنُّجوم في أحوالها الثلاثة؛ في: طلوعها، وجريانها، وغروبها. هذا قول: علي، وابن عباس، وعامة المفسِّرين، وهو الصواب.

و«الخُنَّس»: جمع خَانِس، والخُنُوسُ: الانقباضُ والاختفاءُ، ومنه سُمِّيَ الشيطانُ «خَنَّاسًا» لانقباضه وانكماشه حين يذكر العبدُ ربَّه. ومنه قول أبي هريرة: «فانْخَنَسْتُ منه».

و«الكُنَّس»: جمع كَانِس، وهو الداخل في كِنَاسِهِ، أي: في بيته.

و«الجَوَاري»: جمع جارية، كـ«غاشية» وغَوَاشٍ.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «النُّجُومُ تَخْنِسُ بالنَّهارِ، وتظهر بالليل»[١].

ومعنىٰ «تَخْنِس» - علىٰ هذا القول -: تتأخَّر عن البصر، وتَتَوَارَىٰ عنه بإخفاء النَّهار لها.

وفيه قولٌ آخر؛ وهو أنَّ خنوسَها رجوعُها، وهي حركتها المشرقية، فإنَّ لها حركتين: حركةً بفَلَكِها، وحركةً بنفسها، فخُنُوسُها: حركتُها بنفسها راجعةً، وعلىٰ هذا فهو قَسَمٌ بنوعٍ من الكواكب، وهي «السيَّارة»، وهذا قول الفرَّاء[٢].

وفيه **قولٌ ثالثٌ**؛ وهو أنَّ خُنُوسَها وكُنُوسَها: اختفاؤُها وقتَ مغيبها، فتغيب في مواضعها التي تغيب فيها، وهذا قول الزجَّاج[٣].

ولمَّا كان للنُّجُوم حال ظهورٍ، وحال اختفاءٍ، وحال جريانٍ، وحال غروبٍ - أقسَمَ - سبحانه - بها في أحوالها كلِّها، ونبَّه بخُنُوسِها علىٰ حال ظهورها؛ لأنَّ «الخُنُوس» هو الاختفاء بعد الظهور، ولا يقال لِمَا لم يزل مختفيًا: أنَّه قد خَنَس. فذكر - سبحانه - جريانَها وغروبَها صريحًا، وخنوسَها وظهورَها، واكتفىٰ من ذِكْرِ طُلُوعِها بجريانها الذي مبدؤُهُ الطُّلُوع، فالطُّلُوع أوَّلُ جريانها.

فتضمَّنَ القَسَمُ: طُلُوعَها، وغروبَها، وظهورَها، واختفاءَها، وذلك من آياته ودلائل ربوبيته.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٩)، ومسلم (٣٧١).

(٢) «معاني القرآن» (٣/ ٢٤٢).

(٣) «معاني القرآن» (٥/ ٢٩١).

وليس قول من فسَّرَها بـ«الظِّبَاء»، و«بَقَر الوحش» بالظاهر؛ لوجوه:

أحدها: أنَّه ليس بالبيِّنِ إقسامُ الرَّبِّ - تعالىٰ - بالبقر والغزلان، وليس هذا عُرْف القرآن ولا عادته، وإنَّما يُقْسِم - سبحانه - من كلِّ جِنْسٍ بأعلاه، كما أنَّه لمَّا أقسَمَ بالنُّفُوس أقسَمَ بأعلاها، وهي النَّفْس الإنسانية.

ولمَّا أقْسَمَ بكلامه أقْسَمَ بأشرفه وأجلِّه؛ وهو: القرآن.

ولمَّا أقْسَمَ بالعُلْويَّات أقسَمَ بأشرفها وهي: السماءُ، وشمسُها، وقمرُها، ونجومُها.

ولمَّا أقسَمَ بالزَّمان أقسَمَ بأشرفه، وهو: الليالي العشر.

وإذا أراد - سبحانه - أن يُقْسِمَ بغير ذلك أدرجه في العموم، كقوله ﷻ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحاقة:٣٨، ٣٩]، وقوله: ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [الليل:٣] في قراءة رسول الله ﷺ، ونحو ذلك[١].

الثاني: أنَّ اقترانَ القَسَمِ بالليلِ والصُّبْحِ يدلُّ علىٰ أنَّها النُّجُوم، وإلَّا فليس باللَّائق اقتران البقر والغزلان والليل والصُّبْح في قَسَمٍ واحدٍ.

الثالث: أنَّ الارتباط الذي بين النُّجُوم التي هي هدايةٌ للسالكين، وزينةٌ للسماء، ورُجُومٌ للشياطين، وبين المُقْسَمِ عليه وهو القرآن، الذي هو هُدًىً للعالمين، وزينةٌ للقلوب، وداحضٌ لشبهات الشيطان = أعظمُ من الارتباط الذي بين البقر والظِّبَاء والقرآن، والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٤٣)، ومسلم (٨٢٤).

فصل

ص: ١٩٠

معنى عسعس الليل

واختُلِفَ في عَسْعَسَةِ الليل، هل هي إقْبَالُهُ أم إدْبَارُهُ؟

فالأكثرون علىٰ أنَّ «عَسْعَسَ» بمعنىٰ: ولَّىٰ، وذَهَب، وأدبر. هذا قول: علي، وابن عباس وأصحابه[١].

وقال الحسن: «أَقْبَلَ بظلامه»، وهو إحدىٰ الروايتين عن مجاهد[٢].

فمن رجَّحَ الإقبال قال: أَقْسَمَ الله - سبحانه وتعالىٰ - بإقبال الليل، وإقبال النَّهار، فقوله ﷻ: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير:١٨] مقابِلٌ لـ «الليل إذا عَسْعَس».

قالوا: ولهذا أَقْسَمَ -تعالىٰ- بالليل ﴿إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل:١-٢]، وبالضُّحَىٰ.

قالوا: فَغَشَيَان الليل نظيرُ عَسْعَسَتِهِ، وتَجَلِّي النَّهار نظيرُ تنفُّس الصُّبْحِ، إذ هو مبدؤُه وأوَّله.

ومن رجَّحَ أنَّه إدبارُه احتجَّ بقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ۝٣٢ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝٣٣ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ۝٣٤﴾ [المدثر:٣٢-٣٤]؛ فأقسَمَ -سبحانه- بإدبار الليل، وإسفار الصُّبْح؛ وذلك نظير عَسْعَسَة الليل، وتنفُّس الصُّبْح.

قالوا: والأحسن أن يكون القَسَمُ بانصرام الليل، وإقبال النَّهار عقيبه من غير فَصْل، فهذا أعظم في الدلالة والعبرة، بخلاف إقبال الليل وإقبال النَّهار، فالآيةُ في انصرام هذا ومجيء الآخر عقيبه بغير فَصْلٍ أبلغ.

فذكر - سبحانه - حالةَ ضَعْفِ هذا وإدباره، وحالةَ قوَّةِ هذا وتنفُّسِهِ وإقباله؛

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١٢/ ٤٦٩).

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (٨/ ٣٤٩).

يطردُ ظلمةَ الليل بتنفُّسِهِ، فكُلَّمَا تنفَّسَ هَرَبَ الليلُ وأدبر بين يديه، وهذا هو القول. والله أعلم.

ص: ١٩١

فصل

القرآن الكريم قول رسول كريم

ثُمَّ ذكر - سبحانه - المقسَم عليه وهو «القرآن»، وأخبر أنَّه قولُ رسولٍ كريمٍ، وهو - ها هنا -: جبريل - قطعًا -؛ لأنَّه ذكَرَ صفتَهُ بعد ذلك بما يُعيِّنُه به.

وأمَّا «الرسول الكريم» في «الحاقَّة» فهو محمدٌ ﷺ؛ لأنَّه نفىٰ بعده أن يكون قول من زعم أعداؤه أنه قولُه؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحاقة: ٤١، ٤٢].

فأضَافَهُ إلىٰ الرسول المَلَكِي تارةً، وإلىٰ البَشَرِيِّ تارةً، وإضافتُهُ إلىٰ كلِّ واحدٍ من الرسولَين إضافةُ تبليغٍ لا إضافة إنشاءٍ من عنده، وإلا تناقضت النِّسْبَتَان. ولفظ «الرسول» يدلُّ علىٰ ذلك، فإنَّ «الرسولَ» هو الذي يبلِّغ كلامَ من أرسله، وهذا صريحٌ في أنَّه كلام من أرسل جبريلَ ومحمدًا - صلىٰ الله عليهما وسلم -، وأنَّ كلًّا منهما بلَّغه عن الله، فهو قولُه مبلِّغًا، وقولُ الله الذي تكلَّم به حقًّا.

وَوَصَفَ رسولَهُ المَلَكِيَّ في هذه السورة بأنَّه: كريمٌ، قويٌّ، مكينٌ عند الرَّبِّ تعالىٰ، مطاعٌ في السماوات، أمينٌ.

فهذه خمسُ صفاتٍ تتضمَّن تزكية سَنَدِ القرآن، وأنَّه سماعُ محمدٍ من جبريلَ، وسماعُ جبريلَ من ربِّ العالمين. فَنَاهِيك بهذا السَّنَدِ عُلُوًّا وجلالةً؛ تولَّىٰ اللهُ - سبحانه - بنفسه تزكيتَهُ:

الصفة الأُولَى: كَوْنُ الرسولِ الذي جاء به إلىٰ محمدٍ ﷺ: كريمًا، ليس كما

يقول أعداؤه: إنَّ الذي جاء به شيطان، والرسولُ الذي ألقَىٰ القرآنَ إلىٰ محمدٍ ﷺ: كريمٌ، جميلُ المنظر، بَهِيُّ الصورة، كثيرُ الخير، طَيِّبٌ مُطَيَّبٌ، معلِّمُ الطَّيِّبين.

الوصف الثاني: أنَّه «ذُو قوَّةٍ»، كما قال في موضعٍ آخر: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم:٥]، وفي ذلك تنبيه علىٰ أنَّه بقوَّته يمنع الشياطين أن تدنو منه، وأن ينالوا منه شيئًا، وأن يزيدوا فيه أو يَنقُصُوا منه.

وأنَّه مُوَالٍ لهذا الرسول الذي كذَّبتموه، ومُعَاضِدٌ له، ومُوَادِدٌ له، وناصِرٌ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم:٤].

وهذا يدلُّ علىٰ عظمة شأنِ المرسِلِ، والرسولِ، والرسالةِ، والمرسَلِ إليه، حيث انتدَبَ له الكريمَ، القويَّ، المكينَ عنده، المطاعَ في الملأ الأعلَىٰ، الأمينَ حقَّ الأمين، فإنَّ الملوك لا تُرسل في مُهِمَّاتها إلا الأشراف، ذوي الأقدارِ والرُّتَبِ العالية.

وقوله ﷻ(١): ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير:٢٠] أي: له مكانةٌ ووَجَاهَةٌ عنده، وهو أقرب الملائكة إليه.

وفي قوله: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ إشارةٌ إلىٰ عُلُوِّ منزلة جبريل، إذ كان قريبًا من ذي العرش سبحانه.

وفي قوله(٢): ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ إشارةٌ إلىٰ أنَّ جنودَهُ وأعوانَهُ يطيعونه إذا نَدَبَهم لنصر صاحبه وخليله محمدٍ ﷺ.

وفيه إشارةٌ - أيضًا - إلىٰ أنَّ هذا الذي تكذِّبونه وتعادُونه سيصير مُطاعًا في الأرض، كما أنَّ جبريلَ مطاعٌ في السماء، وأنَّ كلًّا من الرسولَين مطاعٌ في مَحَلِّهِ وقومِهِ.

وفيه تعظيمٌ له بأنَّه بمنزلة الملوك المُطَاعين في قومهم، فلم ينتدب لهذا الأمر

---

(١) هذا هو الوصف الثالث.

(٢) وهذا هو الوصف الرابع.

العظيم إلا مثل هذا المَلَكِ المُطَاع.

وفي وصفه بـ«الأمانة»[١]: إشارةٌ إلىٰ حِفْظِهِ ما حُمِّلَهُ، وأدائِهِ له علىٰ وجهه.

ثُمَّ نزَّه رسولَهُ البَشَريَّ وزكَّاه عمَّا يقول فيه أعداؤه، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير:٢٢]، وهذا أمرٌ يعلمونه ولا يشكُّون فيه، وإن قالوا بألسنتهم خلافه، فهم يعلمون أنَّهم كاذبون.

ثُمَّ أخبر عن رؤيته ﷺ لجبريل، وهذا يتضمَّنُ أنَّه مَلَكٌ موجودٌ في الخارج، يُرَىٰ بالعِيَان، ويُدْرِكُهُ البَصَرُ.

ولهذا كان تقريرُ رؤية النبيِّ ﷺ لجبريل أهمَّ من تقرير رؤيته لربِّه تعالىٰ، فإنَّ رؤيته لجبريل هي أصلُ الإيمان الذي لا يتمُّ إلا باعتقادها، ومن أنكرها كَفَر قطعًا.

وأمَّا رؤيته لربِّه - تعالىٰ - فغايتُها أن تكون مسألةَ نزاعٍ لا يكفر جاحدُها بالاتفاق، وقد صرَّحَ جماعةٌ من الصحابة بأنَّه لم يَرَهُ، وحكىٰ عثمان بن سعيد الدارمي اتفاقَ الصحابة علىٰ ذلك[٢].

فنحن إلىٰ تقرير رؤيته لجبريل أحوجُ مِنَّا إلىٰ تقرير رؤيته لربِّه تعالىٰ، وإن كانت رؤيةُ الرَّبِّ - تعالىٰ - أعظمَ من رؤية جبريل ومَنْ دُونه، فإنَّ النُّبوَّة لا يتوقف ثبوتها عليها ألْبتَّة.

ثُمَّ نَزَّهَ رسولَيه كليهما - أحدَهُما بطريق النُّطْق، والثاني بطريق اللُّزُوم - عمَّا يضادُّ مقصودَ الرسالة من الكتمانِ الذي هو الضِّنَّةُ والبخلُ، والتبديلِ والتغييرِ الذي يوجب التهمة، فقال: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير:٢٤]، فإنَّ الرسالة لا يتمُّ

---

(١) وهذا هو الوصف الخامس والأخير مما ذكره المؤلف.

(٢) انظر: «نقض عثمان بن سعيد علىٰ بشر المريسي» (٤٦٠).

مقصودُها إلا بأمرين:

١ - أدائها من غير كتمان.

٢ - وأدائها علىٰ وجهها من غير زيادةٍ ولا نقصانٍ.

والقراءتان كالآيتين، فتضمَّنت إحداهما - وهي قراءة الضَّاد - تنزيهه عن البخل، فإنَّ «الضَّنِين»: البخيل.

وأجمع المفسِّرون علىٰ أنَّ الغيبَ - ها هنا -: القرآنُ، والوحيُ.

وقال الفرَّاء: «يقول تعالىٰ: يأتيه غيب السماء وهو منفوسٌ فيه، فلا يَضِنُّ به عليكم»[1].

وهذا معنًىٰ حسنٌ جدًّا، فإنَّ عادةَ النُّفوسِ الشحُّ بالشيء النَّفيس، ولا سيَّما عمَّن لا يعرف قَدْرَه، ويذمُّهُ ويذمُّ من هو عنده، ومع هذا فهذا الرسول لا يبخل عليكم بالوحي الذي هو أنفسُ شيءٍ وأجلُّه.

وأمَّا قراءةُ من قرأ «بظَنين» -بالظَّاء- فمعناه: المُتَّهَم، يقال: ظَنَنْتُ زيدًا، بمعنىٰ: اتهمتُه، وليس من «الظَّنِّ» الذي هو الشعور والإدراك، فإنَّ ذلك يتعدَّىٰ إلىٰ مفعولين.

والمعنىٰ: وما هذا الرسول علىٰ القرآن بمُتَّهَمٍ، بل هو أمينٌ لا يزيد فيه ولا ينقص؛ وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ الضمير يرجع إلىٰ محمدٍ ﷺ؛ لأنَّه قد تقدَّمَ وصْفُ الرسول المَلَكِي بالأمانة، ثُمَّ قال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾، ثُمَّ قال: ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: وما صاحبكم بمُتَّهَمٍ ولا بخيلٍ.

واختار أبو عبيد قراءة «الظَّاء»؛ لمعنيين:

---

(١) «معاني القرآن» (٣/ ٢٤٢).

أحدهما: أنَّ الكفَّارَ لم يُبَخِّلُوه، وإنَّما اتَّهموه، فَنَفْيُ التُّهْمَةِ أَولىٰ من نَفْي البخل.

الثاني: أنَّه قال: ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾، ولو كان المراد البخل لقال: بالغيب؛ لأنَّه يقال: فلانٌ ضَنِينٌ بكذا، وقَلَّما يقال: علىٰ كذا.

قلت: ويرجِّحُه أنَّه وَصَفَهُ بما وصف به رسولَهُ المَلَكِيَّ من الأمانة، فنفَىٰ عنه التُّهْمَةَ كما وصفَ جبريلَ بأنَّه أمينٌ.

ويرجِّحُه - أيضًا - أنَّه - سبحانه - نفَىٰ أقسام الكذب كلِّها عمَّا جاء به من الغيب، فإنَّ ذلك لو كان كذبًا: فإمَّا أن يكون منه، أو ممَّن علَّمه.

وإن كان منه: فإمَّا أن يكون تعمَّدَهُ، أو لم يتعمَّدْهُ.

فإن كان من معلِّمه فليس هو بشيطانٍ رجيمٍ، وإن كان منه مع التعمُّد فهو المتَّهَمُ - ضد الأمين -، وإن كان عن غير تعمُّدٍ فهو المجنون.

فنفَىٰ - سبحانه - عن رسوله ذلك كلَّهُ، وزكَّىٰ سَنَدَ القرآن أعظم التزكية، فلهذا قال سبحانه: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ أي: ليس بتعليم الشيطان، ولا يقدر عليه، ولا يَحْسُنُ منه كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]، فنفَىٰ فعلَهم، وانبغاءَهُ منهم، وقدرتهم عليه.

ولهذا وَبَّخَ - سبحانه - من كَفَر بعد ظهور هذا الفرق المبين بين دعوة الرُّسُل ودعوة الشياطين، فقال تعالىٰ: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾، قال أبو إسحاق: «المعنىٰ: فأَيَّ طريقٍ تسلكون أَبْيَنَ من هذه الطريقة التي بَيَّنْتُ لكم؟»[1].

قلت: هذا من أحسن الإلزام وأَبْيَنِه، أن تُبَيِّنَ للسامع الحقَّ ثُمَّ تقول له: أَيْشٍ تقول خلاف هذا؟ وأين تذهب خلاف هذا؟! قال تعالىٰ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٥٠]، وقال تعالىٰ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]، فالأمر

---

(١) «معاني القرآن» (٥/ ٢٩٣).

منحصِرٌ في الحقِّ والباطل، والهُدَىٰ والضلال، فإذا عدلتم عن الهُدَىٰ والحقِّ، فأين العدل، وأين المذهب؟!

فصل

ص: ٢٠١

القرآن ذكر للعالمين

ثُمَّ أخبر - تعالىٰ - عن «القرآن» بأنَّه ذِكْرٌ للعالَمين، وفي موضعٍ آخر: تذكرةٌ للمتقين، وفي موضعٍ آخر: لرسوله ﷺ ولقومه، وفي موضعٍ آخر: ذِكْرٌ مطلقٌ، وفي موضعٍ آخر: ذِكْرٌ مبارَكٌ، وفي موضعٍ آخر وصَفَهُ بأنَّه ذو الذِّكْر.

وبجمع هذه المواضع يتبيَّنُ المرادُ من كونه ذِكْرًا عامًّا وخاصًّا، وكونه ذا ذِكْرٍ، فإنَّه:

يذكِّرُ العبادَ بمصالحهم في مَعَاشِهم ومَعَادِهم.

ويذكِّرُهُم بالمبدأ والمَعَاد.

ويذكِّرُهُم بالرَّبِّ - تعالىٰ - وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وحقوقِه علىٰ عباده.

ويذكِّرُهُم بالخير لِيَقْصِدُوه، وبالشَّرِّ ليجتنبوه.

ويذكِّرُهُم بنفوسهم، وأحوالها، وآفاتها، وما تكمل به.

ويذكِّرُهُم بعدُوِّهم وما يريد منهم، وبماذا يحترزون من كيده، ومن أيِّ الأبواب والطرق يأتي إليهم.

ويذكِّرُهُم بفاقتهم وحاجتهم إلىٰ ربِّهم، وأنَّهم مضطرُّون إليه لا يستغنون عنه نَفَسًا واحدًا.

ويذكِّرُهُم بِنِعَمِه عليهم، ويدعوهم بها إلىٰ نِعَمٍ أخرىٰ أكبر منها.

ويذكِّرُهُم بأْسَهُ، وشدَّةَ بَطْشِه، وانتقامَهُ ممَّن عصَىٰ أمرَهُ، وكذَّبَ رُسُلَهُ.

ويذكِّرُهُم بثوابه وعقابه.

وقوله سبحانه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير:٢٨] بَدَلٌ من «العالَمين»، وهو بَدَلُ بعضٍ من كُلٍّ، فإنَّه ذِكْرٌ للعموم بالصَّلَاحية والقوَّة، وذِكْرٌ لأهل الاستقامة بالحصول والنفع.

وقوله تعالىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ رَدٌّ علىٰ «الجَبْرِيَّة» القائلين بأنَّ العبدَ لا مشيئة له.

وقوله ﷻ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكوير:٢٩] ردٌّ علىٰ «القَدَرِيَّة» القائلين بأنَّ مشيئة العبد مستقِلَّةٌ بإيجاد الفعل من غير توقُّفٍ علىٰ مشيئة الله ﷻ.

فالآيتان مُبْطِلَتَان لقول الطائفتين.

فصل

ص: ٢٠٧

قسم الله تعالى بالنازعات

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات:١-٥]، فهذه خمسة أمور، وهي صفات الملائكة.

فأَقْسَمَ - سبحانه - بالملائكة الفاعلة لهذه الأفعال؛ إذ ذلك من أعظم آياته، وحَذفَ مفعول النَّزْع والنَّشْطِ لأنَّه لو ذَكرَ ما تنزِعُ وتَنْشِطُ لأَوْهَمَ التقييدَ به؛ ولأنَّ القَسَمَ علىٰ نفس الأفعال الصادرة من هؤلاء الفاعلين، فلم يتعلَّق الغَرَضُ بذكر المفعول كقوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ [الليل:٥] ونظائره، فكان نفسُ النَّزْع هو المقصود لا عَيْنُ المنزوع.

وأكثر المفسِّرين علىٰ أنَّها الملائكة التي تنزع أرواح بني آدم من أجسامهم، وهم جماعةٌ؛ كقوله تعالىٰ: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام:٦١]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [النساء:٩٧].

وأمَّا قوله ﷻ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة:١١]:

فإمَّا أن يكون واحدًا، وله أَعْوَانٌ.

وإمَّا أن يكون المراد الجنس لا الوَحْدَة؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ [التحريم:١٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل:١٨].

و«النَّزْعُ»: هو اجْتِذَابُ الشيء بقوَّةٍ، والإغراق في النَّزْعِ أن يجتذبه إلىٰ آخره، ومنه إغراق النَّزْع في جَذْبِ القَوس: أن يبلغ بَها غاية المَدِّ، فيقال: أغرق في النَّزْعِ، ثُمَّ صار مَثَلًا لكلِّ من بالغ في فعلٍ حتَّىٰ وصل إلىٰ آخره.

و«الغَرْقُ»: اسم مصدَرٍ أُقيم مَقَامَه؛ كالعطاء والكلام أُقيم مقام الإعطاء والتكليم.

واختلفَ النَّاسُ: هل «النَّازِعَات» متعدٍّ أو لازِمٌ؟ فعَلَىٰ القول الذي حكيناه يكون متعدِّيًا.

وقال ابن مسعود: «هي أنفس الكفار».

وعلىٰ هذا فهو فعلٌ لازمٌ، و«غَرْقًا» علىٰ هذا معناه: نزعًا شديدًا أَبْلَغَ ما يكون وأَشَدَّهُ.

وفي هذا القول ضعفٌ.

وقال الحسن: «النَّازِعَات» هي: النُّجُوم، تنزع من المشرق إلىٰ المغرب، و«غَرْقًا» هو غروبها»، قال: «تنزع من ها هنا وتغرق ها هنا».

وقال مجاهد: «هي شدائدُ الموت وأهوالُه التي تنزع الأرواح نزعًا شديدًا».

وقال عطاء، وعكرمة: «هي القِسِيُّ».

و«النَّازِعَات» علىٰ هذا القول بمعنىٰ: النَّشَب، أي: ذوات النَّزْع التي ينزع بها الرامي، فهو النَّازع.

قلت: «النَّازِعَات»: اسمُ فاعلٍ من نزَعَ، ويقال: نَزَعَ كذا، إذا اجْتَذَبَهُ بقوَّة. ونَزَعَ عنه: إذا خَلَّاه وتَرَكَه بعد ملابسته. ونزع إليه: إذا ذهبَ إليه ومالَ إليه، وهذا إنَّما تُوصَف به النُّفُوس التي لها حركةٌ إراديةٌ للمَيْل إلىٰ الشيء أو المَيْل عنه، وأحقُّ ما صدق عليه هذا الوصف: الملائكةُ؛ لأنَّ هذه القوَّة فيها أكملُ، وموضع الآية فيها أعظم، فهي التي تُغرق في النَّزْع إذا طلبت ما تنزعه أو تنزع إليه، و«النَّفْس الإنسانية» - أيضًا - لها هذه القوَّة، والنُّجُوم - أيضًا - تنزع من أُفُقٍ إلىٰ أُفُقٍ.

فالنَّزْعُ: حركةٌ شديدةٌ، سواء كانت من مَلَكٍ، أو نفسٍ إنسانيةٍ، أو نجمٍ.

والنُّفُوسُ تَنزِعُ إلىٰ أوطانها، وإلىٰ مَأْلَفِها، وعند الموت تَنزِعُ إلىٰ ربِّها، والمنايا تَنزِعُ النُّفُوسَ، والقِسِيُّ تَنزِعُ بالسِّهَام، والملائكةُ تَنزِعُ من مكانٍ إلىٰ مكانٍ، وتَنزِعُ ما وُكِّلَت بنَزْعِه، والخيلُ تَنزِعُ في أَعِنَّتِها نزعًا تغرق فيه الأَعِنَّة لطول أعناقها.

فالصفةُ واقعةٌ علىٰ كلِّ من له هذه الحركة التي هي آيةٌ من آيات الرَّبِّ تعالىٰ؛ فإنَّه هو الذي خلقها وخلق مَحَلَّها، وخلق القوَّة والنَّفْس التي بها تتحرَّك، ومن ذكر صورةً من هذه الصور فإنَّما أراد التمثيل، وإن كانت الملائكةُ أحقَّ من تناوله هذا الوصف.

فأَقْسَمَ بطوائف الملائكة وأصنافهم:

«النَّازِعَات»: التي تنزع الأرواح من الأجساد.

و«النَّاشِطَات»: التي تنشطها، أي: تُخرجها بسرعةٍ وخِفَّة، من قولهم: نَشَطَ الدَّلْوَ من البئر؛ إذا أخرجها، وأنا أَنْشَطُ لكذا أي: أَخَفُّ له وأسرع.

و«السَّابِحَات»: التي تسبح في الهواء في طريق مَمَرِّها إلىٰ ما أُمِرَتْ به، كما

تسبح الطير في الهواء.

فـ«السَّابِقَات»: التي تسبق وتُسرع إلىٰ ما أُمِرَتْ به، لا تبطئ عنه ولا تتأخر.

فـ«المُدبِّرات»: التي تدبِّرُ أُمورَ العباد التي أمرها ربُّها بتدبيرها، وهذا أَوْلىٰ الأقوال.

وقد روي عن ابن عباس: «أنَّ «النَّازِعَات» الملائكةُ تنزع نفوس الكفار بشدَّةٍ وعُنْفٍ، و«النَّاشِطَات»: الملائكةُ التي تَنشِطُ أرواحَ المؤمنين بِيُسْرٍ وسُهُولةٍ»[1].

وقيل «السَّابِحَات»: هي النُّجُوم تسبح في الفَلَكِ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:٤٠].

وقيل: هي السُّفُن تسبح في الماء.

وقيل: هي نفوس المؤمنين تسبح بعد المفارقة صاعدةً إلىٰ ربِّها.

قلت: والصحيح أنَّها الملائكة، والسياق يدلُّ عليه، وأمَّا السُّفُن والنُّجُوم فإنَّما تسمَّىٰ: جاريةً وجَوَارٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الشورىٰ:٣٢]، وقال تعالىٰ: ﴿حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة:١١]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ [التكوير:١٦]؛ ولم يُسَمِّها «سابحات»، وإن أطلق عليها فعل السباحة، كقوله تعالىٰ: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:٤٠].

ويدلُّ عليه ذِكْرُهُ «السَّابقات» بعدها و«المدبِّرات» بـ«الفاء»، وذِكْرُهُ الثلاثةَ الأُوَلَ بـ«الواو»؛ ولأنَّ السَّبْقَ والتدبيرَ مسبَّبٌ عن المذكور قبله، فإنَّها نَزَعَتْ، ونَشِطَتْ، وسَبَحَتْ، فَسَبقَتْ إلىٰ ما أُمرت به فَدَبَّرَتْهُ، ولو كانت «السَّابحات» هي السُّفُن أو النُّجُوم أو النُّفُوس الآدميَّة لَمَا عَطَفَ عليها فعل السَّبْقِ والتدبير بـ«الفاء»، فتأَمَّلْهُ.

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٢/ ٤٢٠، ٤٢١).

قال مسروق، ومقاتل[١]، والكلبي: « ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾: هم الملائكة».

قال مجاهد، وأبو رَوْق: «سبقت ابنَ آدم بالخير، والعمل الصالح، والإيمان، والتصديق».

وقال مقاتل: «تسبِقُ بأرواح المؤمنين إلىٰ الجنَّة»[٢].

وفُسِّرت «السَّابقات سبقًا» بالأَنْفُس السابقات إلىٰ طاعة الله -تعالىٰ- ومرضاته.

وأمَّا «المدبِّرات أمرًا» فأجمعوا علىٰ أنَّها الملائكة، ثُمَّ قال مقاتل: «هم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ومَلَكُ الموت: يدبِّرُون أمر الله - تعالىٰ - في الأرض، وهم «المقسِّمات أمرًا»»[٣].

قال ابن عباس: «هم الملائكة، وكَّلَهم الله - تعالىٰ - بأمورٍ عَرَّفَهم العملَ بها والوقوفَ عليها، بعضهم لبني آدم يحفظون ويكتبون، وبعضهم وُكِّلُوا بالأمطار، والنَّبَات، والخَسْف، والمَسْخ، والرِّياح، والسَّحاب»[٤] انتهىٰ.

وقد أخبر النبيُّ ﷺ أنَّ للجبال مَلَكًا يختصُّ بشأنها[٥]، وأخبر أنَّ الله -تعالىٰ- وكَّل بالرَّحِم مَلَكًا[٦]، وللرؤيا مَلَكٌ موكَّلٌ بها[٧]، وللجنَّة ملائكةٌ موكَّلُون بعمارتها، وعَمَلِ آلتها، وأوانيها، وغِرَاسها، وفرشها، ونمارقها، وأرائكها، وللنَّار ملائكةٌ موكَّلُون بعمل ما فيها وإيقادها، وغير ذلك.

---

(١) «تفسيره» (٣/ ٤٤٥).

(٢) «تفسيره» (٣/ ٤٤٥).

(٣) «تفسيره» (٣/ ٤٤٥ - ٤٤٦).

(٤) انظر: «معالم التنزيل» (٨/ ٣٢٥).

(٥) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

(٦) أخرجه البخاري (٣١٨)، ومسلم (٢٦٤٦).

(٧) أخرجه وكيع في «أخبار القضاة» (٢٩١)، وإسناده ضعيف جدًّا.

فالدنيا وما فيها، والجنَّةُ، والنَّارُ، والموتُ وأحكام البرزخ؛ قد وكَّل اللهُ بذلك كلِّه ملائكةً يدبِّرون ما شاء الله من ذلك، ولهذا كان الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الذي لا يتمُّ إلا به.

وجوابُ القَسَم محذوفٌ - يدلُّ عليه السياق - وهو البعثُ المستلزِمُ لصدقِ الرسول وثبوتِ القرآن، أو أنَّه من القَسَم الذي أُريد به التنبيه على الدلالة والعبرة بالمُقْسَم به، دون أن يُرادَ به مقسَمٌ عليه بعينه، وهذا القَسَم يتضمَّن الجوابَ المقسَمَ عليه وإن لم يُذْكَر لفظًا، ولعل هذا مراد من قال: إنَّه محذوفٌ للعلم به.

لكنْ هذا الوجه أَلْطَفُ مسلكًا؛ فإنَّ المُقْسَمَ به إذا كان دالًّا على المُقْسَمِ عليه مستلزِمًا له استغني عن ذِكْرِه بذِكرِه، وهذا غير كونه محذوفًا لدلالة ما بعده عليه؛ فتأَمَّلْهُ.

ثُمَّ قرَّرَ - سبحانه - بعد هذا القَسَم أَمْرَ المَعَاد، ونُبوَّةَ موسى ﷺ المستلزِمة لنُبوَّة محمدٍ ﷺ، إذ من المُحَال أن يكون موسى نبيًّا ومحمدٌ ليس نبيًّا، مع أنَّ كل ما يُثْبِت نُبوَّة موسى فَلِمحمدٍ نظيره أو أعظم منه.

وقَرَّر - سبحانه - تكليمَهُ لموسى بندائه له بنفسه فقال تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [النازعات:١٦] فأثبت النِّداءَ المستلزِم للكلام والتكليم.

ثُمَّ أمره أن يخاطبه بأَلْيَنِ خطاب فيقول له: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات:١٨-١٩]؛ ففي هذا من لُطْفِ الخطاب ولِيْنِهِ وجوهٌ:

أحدها: إخراجُ الكلام مُخْرَجَ العَرْض، ولم يُخْرِجْهُ مُخْرَجَ الأمر والإلزام؛ وهو ألطف.

ونظيره قول، إبراهيم - عليه السلام - لضيفه المُكْرَمين: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات:٢٧]، ولم يقل: كُلُوا.

الثاني: قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾؛ والتَّزَكِّي: النَّمَاء، والطهارة، والبركة، والزيادة. فعَرَضَ عليه أمرًا يقبله كلُّ عاقلٍ، ولا يردُّه إلا كلُّ أحمقٍ جاهلٍ.

الثالث: أنَّ في قوله: ﴿هَل لَّكَ﴾ فائدةٌ لطيفةٌ؛ وهي أنَّ المعنىٰ: هل لك في ذلك حاجةٌ أو أَرَبٌ؟ ومعلومٌ أنَّ كلَّ عاقِلٍ يبادر إلىٰ قبولِ ذلك؛ لأنَّ الداعي إنَّما يدعوه إلىٰ حاجته ومصلحته، لا إلىٰ حاجة الداعي، فكأنَّه يقول: الحاجة لك، وأنتَ المُتَزكِّي، وأنا الدليل لك، والمُرْشِدُ لك إلىٰ أعظم مصالحك.

فَقَابَلَ هذا بغاية الكفر والعِنَاد، وادَّعَىٰ أنَّه ربُّ العباد، هذا وهو يعلم أنَّه ليس بالذي خَلَقَ فسَوَّىٰ، ولا قدَّرَ فَهَدَىٰ، فكذَّبَ الخَبَرَ، وعصَىٰ الأمر، ثُمَّ أدبر يسعىٰ بالخديعة والمكر، فحَشَرَ جنوده فأجابوه، ثُمَّ نادىٰ فيهم بأنَّه ربُّهم الأعلىٰ، واستخفَّهم فأطاعوه، فبطش به جبَّارُ السماوات والأرض بطْشَةَ عزيزٍ مقتدِرٍ، وأخذَهُ نكَالَ الآخرة والأُولَىٰ، ليعتبر بذلك من يعتبر، فاعتَبَرَ بذلك من خَشِيَ ربَّهُ من المؤمنين، وحقَّ القولُ علىٰ الكافرين.

ثُمَّ أقام - سبحانه - حُجَّته علىٰ العالمين بخلق ما هو أشدُّ منهم وأكبر، وأعظم، وأعلىٰ، وأرفع؛ وهو خلْقُ السماء وبناؤها، ورفْعُ سَمْكِها وتسويتُها، وإظْلَامُ ليلِها، وإخراجُ ضُحَاها.

وخَلَقَ الأرض، ومدَّها، وبَسَطَهَا، وهَيَّأَها لما يُراد منها، فأخرج منها شراب الحيوان وأقواتهم، وأَرْسَىٰ الجبالَ فجعلها رواسي للأرض، لئلا تميد بأهلها، وأودَعَها من المنافعِ ما يتمُّ به مصالح الحيوان الناطق والبهيم، فمن قدر علىٰ ذلك كله كيف يعجز عن إعادتكم خلقًا جديدًا؟!

فتأمَّلْ دلالةَ المُقْسَم به المذكور في أوَّل السورة علىٰ المَعَاد، والتوحيد، وصِدْقِ الرُّسُل؛ كدلالة هذا الدليل المذكور، وإذا كان هذا هو المقصود لم يكن محتاجًا إلىٰ جواب، والله - تعالىٰ - أعلم.

ص: ٢٢٢

فصل

قسم الله تعالى بالمرسلات

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾ [المرسلات:١-٧].

فُسِّرت «المرسلات» بالملائكة، وفُسِّرت بالرِّياح، وفُسِّرت بالسَّحَاب، وفُسِّرت بالأنبياء.

قلت: الله - سبحانه - يرسل الملائكةَ، ويرسل الأنبياءَ، ويرسل الرِّياحَ، ويرسل السَّحَابَ فيسوقه حيث يشاء، ويرسل الصواعقَ فيصيب بها من يشاء. فإرساله واقعٌ علىٰ ذلك كلِّه، وهو نوعان:

١ - إرسالُ دِينٍ يحبُّه ويرضاه، كإرسال رسله وأنبيائه.

٢ - وإرسالُ كَوْنٍ؛ وهو نوعان:

نوعٌ يحبُّه ويرضاه، كإرسال ملائكته في تدبير أمر خلقه.

ونوعٌ لا يحبُّه، بل يسخطه ويبغضه، كإرسال الشياطين علىٰ الكفار.

فالإرسالُ المقسَمُ به ها هنا مُقَيَّدٌ بـ«العُرْف»:

١ - فإمَّا أن يكون ضد المنكر، فهو إرسال رسله من الملائكة، ولا يدخل في ذلك إرسال الرِّياح، ولا الصواعق، ولا الشياطين.

وأمَّا إرسال الأنبياء فلو أُريد لقال: والمرسلين، وليس بالفصيح تسمية الأنبياء «مرسلات».

وأيضًا؛ فاقتران اللفظة بما بعدها من الأقسام لا يناسب تفسيرها بالأنبياء.

وأيضًا؛ فإنَّ الرُّسُلَ مُقْسَمٌ عليهم في القرآن لا مقسَمٌ بهم كقوله تعالىٰ:

﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [النحل:٦٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة:٢٥٢]، وقوله ﷻ: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس:١-٣].

٢ - وإن كان «العُرْف» من: التَتابع، كـ«عُرْف الفَرَس» و«عُرْف الدِّيْك»، والنَّاس إلىٰ فلانٍ عُرْفٌ واحد، أي: سابقون في قصده والتوجه إليه = جاز أن تكون «المرسلات»: الرِّياح، ويؤيده عَطْف «العاصِفات» عليه و«النَّاشِرات».

وجاز أن تكون: الملائكة، وجاز أن يَعُمَّ النَّوعين؛ لِوَقْعِ الإرسال - عُرْفًا - عليهما.

ويؤيِّده أنَّ «الرِّياح» موكَّلٌ بها ملائكةٌ تسوقها وتُصَرِّفُها.

ويؤيِّد كونها «الرِّياح» عطف «العَاصِفات» عليها بـ«فاء» التعقيب والتسبيب، فكأنَّها أُرسِلت، فَعَصَفَتْ.

ومن جعل «المرسلات»: الملائكة قال: هي تعصف في مُضِيِّها مُسرِعَةً كما تعصف «الرِّياح».

والأكثرون علىٰ أنَّها «الرِّياح».

وأمَّا «النَّاشرات نشرًا»؛ فهو استئنافُ قَسَمٍ آخر، ولهذا أتىٰ به بـ«الواو»، وما قبله معطوفٌ علىٰ القَسَم الأوَّل بـ«الفاء».

قال ابن مسعود، والحسن، ومجاهد، وقتادة: «هي الرِّياح تأتي بالمطر».

ويدلُّ علىٰ صِحَّة قولهم قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف:٥٧]؛ يعني أنَّها تنشُرُ السَّحابَ نَشْرًا، وهو ضدُّ الطَّيِّ.

وقال مقاتل[(١)]: «هي الملائكةُ تنشر كتبَ بني آدم وصحائف أعمالهم»، وقاله: مسروق، وعطاء عن ابن عباس.

وقالت طائفةٌ: هي الملائكةُ تنشر أجنحَتَها في الجَوِّ عند صعودها ونزولها.

وقيل: تنشر أوامر الله في السماء والأرض.

وقيل: تنشر النُّفُوس، فَتُحْييها بالإيمان.

وقال أبو صالح: «هي الأمطار تنشر الأرض، أي: تحييها».

قلت: ويجوز أن تكون «النَّاشِرات» لازمًا لا مفعول له، ولا يكون المراد أنَّهنَّ يَنشُرنَ كذا، فإنَّه يقال: نَشَرَ الميتُ، أي: حَيِيَ، وأَنْشَرَهُ الله: إذا أحياه، فيكون المرادُ بها: الأنفسَ التي حَيِيَتْ بالعُرْفِ الذي أرسلت به «المُرْسَلَات»، أو الأشباحَ والأرواحَ والبقاعَ التي حَيِيَتْ بالرِّياح المرسلات، فإنَّ «الرِّياحَ» سببٌ لنشور الأبدان والنَّبَات، والوحيَ سببٌ لنشور الأرواح وحياتها.

لكنْ هنا أمرٌ ينبغي التفطُّن له، وهو أنَّه - سبحانه - جعل الإقسام في هذه السورة نوعين، وفَصَل أحدهما من الآخر، وجعل «العَاصِفَات» معطوفًا علىٰ «المرسلات» بـ«فاء» التعقيب، فصارا كأنَّهما نوعٌ واحدٌ، ثُمَّ جعل «النَّاشرات» كأنَّه قَسَمٌ مبتَدَأٌ فأتىٰ فيه بـ«الواو»، ثُمَّ عطف عليه «الفَارِقات» و«المُلْقِيَات» بـ«الفاء»، فأوهم هذا أنَّ «الفارقات» و«المُلقيات» مرتبطٌ بـ«النَّاشرات»، وأنَّ «العَاصِفَات» مرتبطٌ بـ«المُرْسَلَات».

وقد اختلف في «الفَارقات»؛ والأكثرون علىٰ أنَّها الملائكة، ويدلُّ عليه عطْفُ «المُلْقِياتِ ذِكْرًا» عليها بـ«الفاء»، وهي الملائكة بالاتفاق.

---

(١) في «تفسيره» (٣/ ٤٣٥).

وعلىٰ هذا فيكون القَسَم بالملائكة التي نَشَرَتْ أجنحتها عند النزول، ففرَّقت بين الحقِّ والباطل، فألْقَت الذِّكْرَ علىٰ الرُّسُلِ إعذارًا وإنذارًا.

ومن جعل «النَّاشِرات»: الرِّياح جعل «الفَارِقَات» صفةً لها، وقال: هي تفرِّقُ السَّحَابَ ها هنا وها هنا، ولكن يأبىٰ ذلك عطْفُ «المُلْقِيَات» بـ«الفاء» عليها.

ومن قال: «الفَارِقَات»: آيُ القرآنِ؛ تُفرِّقُ بين الحقِّ والباطل، فقوله يلتئم مع كون «النَّاشِرَات» الملائكة أكثر من التئامه إذا قيل: إنَّها «الرِّياح».

ومن قال: هي جماعات الرُّسُل؛ فإنْ أراد الرُّسُلَ من الملائكة فظاهِرٌ، وإنْ أراد الرُّسُلَ من البشر فقد تقدَّمَ(١) بيان ضعف هذا القول.

ويظهر - والله أعلم بما أراد من كلامه - أنَّ القَسَم في هذه السورة وقع علىٰ النَّوعين: الرِّياحِ، والملائكةِ. ووجه المناسبة: أنَّ حياةَ الأرض والنَّبَات وأبدان الحيوان بالرِّياح، فإنَّها من رَوْح الله، وقد جعلها الله - تعالىٰ - نُشُورًا، وحياةَ القلوب والأرواح بالملائكة.

فبهذين النَّوعين يحصل نوعَا الحياة، ولهذا - والله أعلم - فَصَلَ أَحَدَ النَّوعين من الآخر بـ«الواو»، وجعل ما هو تابعٌ لكلِّ نوعٍ بعده بـ«الفاء».

وتأمَّلْ كيف وقع القَسَمُ في هذه السورة علىٰ المَعَاد، والحياة الدائمة الباقية، وحالِ السعداء والأشقياء فيها، وقرَّرَها بالحياة الأُولَىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات:٢٠]، فذكر فيها المبدأ والمَعَاد، وأخلَصَ السورةَ لذلك، فَحَسُنَ الإقسامُ بما يحصل به نوعَا الحياة المشاهَدة، وهو: الرِّياح، والملائكة. فكان في القَسَم بذلك أَبْيَنُ دليلٍ، وأَظْهَرُ آيةٍ علىٰ صحة ما أقسَمَ عليه وتضمَّنته السورة. ولهذا

---

(١) ينظر: (ص: ٩٩).

كان المكذِّبُ بعد ذلك في غاية الجحود والعناد والكفر والتكذيب، فاستحقَّ الويلَ بعد الويلِ، فتَضَاعَفَ عليه الويلُ، كما تضاعف منه الكفر والتكذيب.

فلا أحسنَ من هذا التَّكْرَار في هذا الموضع، ولا أعظم موقعًا، فإنَّه تكرَّرَ عشر مراتٍ، ولم يذكر إلا في أَثَرِ دليل أو مدلولٍ عليه؛ عَقِيبَ ما يوجب التصديقَ، وما يجب التصديقُ به؛ فتأَمَّلْهُ.

فصل

ص: ٢٣٠

قسم الله تعالى بالنفس اللوامة

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [القيامة:١-٢]، وقد تقدَّمَ ذِكْرُ هذين القَسَمَين[١]، ومناسبةِ الجمع بينهما في الذِّكْر، وكونِ الجواب غير مذكورٍ، وأنَّه يجوز أن يكون ممَّا حُذِف لدلالة السياق عليه والعلم به، ويجوز أن يكون من القَسَم المقصود به التنبيه علىٰ دلالة المُقْسَم به، وكونه آيةً، ولم يقصد به مُقْسَمًا عليه معيَّنًا، فكأنَّه يقول: اذْكُر يومَ القيامة، والنَّفْسَ اللوَّامة، مُقْسَمًا بهما، لكونهما من آياتنا، وأدلَّة ربوبيتنا.

ثُمَّ أنكر علىٰ الإنسان بعد هذه الآية حُسْبَانَهُ وظَنَّهُ أنَّ الله لا يجمع عظامه بعدما فرَّقَها البِلَىٰ.

ثُمَّ أخبر - سبحانه - عن قدرته علىٰ جمع بَنَانِهِ وهي العظام الصِّغَار، ونَبَّهَ - بقدرته علىٰ جمع هذه العظام مع صِغَرها ودِقَّتها - علىٰ قدرته علىٰ جمع غيرها من عظامه.

وقالت طائفةٌ: المعنىٰ: نحن قادرون علىٰ أن نُسوِّيَ أصابع يديه ورجليه،

---

(١) ينظر: (ص:٢١).

ونجعلها مستويةً شيئًا واحدًا كَخُفِّ البعير، وحافِرِ الحمار، لا نفرِّقُ بينها، ولا يمكنه أن يعمل بها شيئًا ممَّا يعمل بأصابعه المفرَّقَة ذات المفاصل والأنامل من فنون الأعمال، والبَسْط، والقبض، والتأتِّي لما يريد من الحوائج. وهذا قول ابن عباس(١)، وكثيرٍ من المفسِّرين.

والمعنىٰ علىٰ هذا القول: إنَّا في الدنيا قادرون علىٰ أن نجعل عظام بَنَانِهِ مجموعةً دون تفرُّقٍ، فكيف لا نقدر علىٰ جمعها بعد تفرقتها.

فهذا وجهٌ من الاستدلال غير الأوَّل، وهو استدلالٌ بقدرته - سبحانه - علىٰ جمع العظام التي فرَّقَها ولم يجمعها، والأوَّل استدلالٌ بقدرته - سبحانه - علىٰ جمع عظامه بعد تفريقها، وهما وجهان حَسَنَان.

ثُمَّ أخبر - سبحانه - عن سوء حال الإنسان وإصراره علىٰ المعصية والفجور، وأنَّه لا يَرْعَوِي ولا يخاف يومًا يجمع الله فيه عظامه ويبعثه حيًّا، بل هو مريدٌ للفجور ما عاش، فيفجر في الحال، ويريد الفجور في غَدٍ وما بعده، وهذا ضِدُّ الذي يخاف الله والدار الآخرة. فهذا لا يندم علىٰ ما مضىٰ منه، ولا يُقْلِعُ في الحال، ولا يعزم في المستقبل علىٰ التَّرْك، بل هو عازمٌ علىٰ الاستمرار، وهذا ضدُّ حال التائب المنيب.

ثُمَّ نبَّهَ - سبحانه - علىٰ الحامل له علىٰ ذلك، وهو استبعاده ليوم القيامة، وليس هذا استبعادًا لزمنه مع إقراره بوقوعه، بل هو استبعادٌ لوقوعه.

قال ابن عباس: «يُقَدِّمُ الذَّنْبَ، ويُؤَخِّرُ التوبة»(٢).

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٢/ ٣٢٨).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «قصر الأمل» رقم (٢٠٥).

وقال قتادة، وعكرمة: «قُدُمًا قُدُمًا في معاصي الله، لا يَنْزِعُ عن فُجُورِه»[1].

وفي الآية قولٌ آخر، وهو أنَّ المعنىٰ: بل يريد الإنسان ليكذِّب بما أمامه من البعثِ ويوم القيامة.

ثُمَّ أخبر - سبحانه - عن حال هذا الإنسان إذا شاهد اليوم الذي كذَّبَ به، فقال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾ [القيامة:٧-١٠]، فيبرق بصره، أي: يَشْخَص لما يشاهده من العجائب التي كان يكذِّب بها. و«خَسَفَ القمر»: ذهب ضوؤه وانْمَحَىٰ، وجُمِعَ الشمسُ والقمرُ **ولم يجتمعا قبل ذلك، بل يجمعهما الذي يجمع عظام الإنسان بعدما فرَّقَها البِلَى ومزَّقَها، ويَجْمَعُ للإنسان يومئذٍ جميع عمله الذي قدَّمه وأخَّره من خَيرٍ أو شرٍّ. ويَجْمَعُ ذلك من جَمَعَ القرآنَ في صدر رسوله ﷺ، ويجمع المؤمنين في دار الكرامة، فيكرِمُ وجوهَهم بالنظر إليه، ويجمع المكذِّبين في دار الهَوَان، وهو قادرٌ على ذلك كلِّه؛ كما جمع خلق الإنسان من نطفةٍ من مَنِيٍّ يُمْنَى، ثُمَّ جعله عَلَقَةً مجتمعة الأجزاء بعدما كانت نطفةً متفرِّقةً في جميع بدن الإنسان، وكما يجمع بين الإنسان ومَلَك الموت، ويجمع بين السَّاق والسَّاق؛ إمَّا سَاقَا الميت، وإمَّا سَاقَا من يُجهِّزُ بدنه من البشر،** ومن يُجهِّزُ روحه من الملائكة، أو يجمع عليه شدائد الدنيا والآخرة.

فكيف ينكر هذا الإنسانُ أن يُجْمَعَ بينه وبين عمله وجزائه، وأن يُجْمَعَ مع بني جنسه ليوم الجَمْع، وأن يُجْمَعَ عليه بين أمر الله ونهيه وعبوديته، فلا يترك سُدَىً مُهْمَلًا مُعَطَّلًا، لا يُؤْمَرُ ولا يُنْهَىٰ، ولا يُثاب ولا يُعاقَب، فلا يُجْمَعُ عليه ذلك؟! فما أجمع هذه السورة لِمَعَاني الجمع والضَّمِّ، وقد افتُتِحَت بالقَسَم بـ«يوم القيامة» الذي يجمع الله فيه بين الأوَّلين والآخرين، وبـ«النَّفْس اللوَّامة» التي اجتمع فيها هُمُومُها، وعُزُومُها، وإراداتُها، واعتقاداتُها.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (١٢/ ٣٣٠).

وتضمَّنَت ذكر المبدأ، والمَعَادِ، والقيامةِ الصُّغرىٰ والكُبرىٰ، وأحوالِ النَّاس في المَعَاد، وانقسام وجوهِهِم إلىٰ ناضرة مُنَعَّمَةٍ، وباسِرةٍ معذَّبةٍ.

وتضمَّنَت وصف «الرُّوْح» بأنَّها جسمٌ ينتقل من مكانٍ إلىٰ مكانٍ، فتُجْمَعُ من تَفَاريق البدن حتَّىٰ تبلغ التَّرَاقي، ويقول الحاضرون: ﴿مَنْۜ رَاقٍ﴾، أي: من يَرْقي من هذه العلَّة التي أَعْيَت علىٰ الحاضرين، أي: التمسُوا له من يرقيه، والرُّقْيَةُ آخر الطِّبِّ.

أو قيل: مَنْ يَرْقَىٰ بها ويصعد، أملائكةُ الرحمة أم ملائكةُ العذاب؟

فعلَىٰ الأوَّل؛ تكون مِن: رَقَىٰ يَرْقِي، كـ: رَمَىٰ يَرْمِي.

وعلىٰ الثاني؛ مِن: رَقِيَ يَرْقَىٰ، كـ: شَقِيَ يَشْقَىٰ. ومصدره «الرُّقِيُّ»، ومصدر الأوَّل «الرُّقْيَة».

والقول الأوَّل أظهر لوجوه:

أحدها: أنَّ «الرُّوح» إنَّما يرقىٰ بها المَلَكُ بعد مفارقتها، وحينئذٍ يقال: مَنْ يَرْقَىٰ بها؟ وأمَّا قبل المفارقة فطلب الرُّقْيَة للمريض من الحاضرين أنْسَب من طَلَبِ عِلْمِ من يَرْقَىٰ بها إلىٰ الله ﷻ.

الثاني: أنَّ فاعل الرُّقْيَة يمكن العلم به، فيحسُنُ السؤالُ عنه، ويفيد السامع، وأمَّا الراقي إلىٰ الله - تعالىٰ - فلا يمكن العلم بتعيينه حتَّىٰ يسأل عنه، و«مَنْ» إنَّما يُسأَلُ بها عن تعيين ما يمكن السائل أن يصل إلىٰ العلم بتعيينه.

الثالث: أنَّ هذا خرج علىٰ عادة العرب وغيرهم في طلب الرُّقْيَة لمن وصل إلىٰ مثلِ تلك الحال، فحكىٰ الله - سبحانه - ما جَرَتْ به عادتُهم بقوله.

الرابع: أنَّ الآية إنَّما سيقت لبيان يأسه من نفسه، ويأس الحاضرين معه، وتحقق أسباب الموت، وأنَّه قد حضر ولم يبق شيءٌ يَنْجَعُ فيه، ولا يُخَلِّص منه.

فصل

ص: ٢٤١

تجميل الله تعالى لظواهر أوليائه

ومن أسرار هذه السورة أنَّه - سبحانه - جمع فيها لأوليائه بين جمال الظاهر والباطن؛ فزيَّنَ وجوهَهُم بالنَّضْرَة، وبواطنَهم بالنَّظَر إليه، فلا أَجْمَلَ لبواطنهم، ولا أنعم، ولا أحلىٰ؛ من النَّظَرِ إليه. ولا أجمل لظواهرهم من نَضْرَةِ الوجه، وهي إشراقه وتحسينه وبهجته، وهذا كما قال في موضع آخر: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان:١١].

ونظيره قوله تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [الأعراف:٢٦]؛ فهذا جمال الظاهر وزينتُهُ، ثُمَّ قال: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾؛ فهذا جمال الباطن وزينَتُهُ.

ونظيره قوله ﷻ: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات:٦]؛ فهذا جمال ظاهرها، ثُمَّ قال: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات:٧]؛ فهذا جمال باطنها.

وقريبٌ من هذا قوله ﷻ: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧]؛ ذَكَرَ الزادَ الظاهر الحِسِّيَ، والزادَ الباطن المعنويَّ، فهذا زاد سفر الدنيا، وهذا زاد سفر الآخرة.

فصل

ص: ٢٤٣

قدرة الله تعالى على كل شيء

ومن أسرارها أنَّها تضمَّنَتْ إثبات قدرة الرَّبِّ - تعالىٰ - علىٰ ما عَلِمَ أَنَّه لا يكون ولا يفعله، وهذا علىٰ أحد القولين في قوله تعالىٰ: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة:٤]، فأخبر أنَّه تعالىٰ قادرٌ عليه ولم يفعله ولم يُرِدْهُ.

وأصرحُ من هذا قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون:١٨]، وهذا - أيضًا - علىٰ أحد القولين، أي: تَغُورُ العُيون في الأرض فلا يُقْدَرُ علىٰ الماء.

وقد صَرَّحَ - سبحانه - بأنَّه لو شاء لفعل ما لم يفعله في غير موضع من كتابه كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ﴾ [يونس:٩٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة:١٣] ونظائره.

فصل

ص: ٢٤٥

التأني والتثبت في تلقي العلم

ومن أسرارها أنَّها تضمَّنَت التَّأَنِّي والتثبُّتَ في تلقِّي العلم، وأن لا يحمل السامعَ شدَّةُ محبته وحرصه وطلبه علىٰ مبادرة المعلِّم بالأخذ قبل فراغه من كلامه، بل من آداب الرَّبِّ التي أدَّبَ بها نبيَّهُ ﷺ أَمْرُهُ بترك الاستعجال علىٰ تلقِّي الوحي، بل يصبر إلىٰ أن يفرغ جبريل من قراءته، ثُمَّ يقرأه بعد فراغه عليه. فهكذا ينبغي لطالب العلم ولسامعه أن يصبر علىٰ معلِّمه حتَّىٰ يقضي كلامه، ثُمَّ يعيده عليه، أو يسأله عمَّا أشكَلَ عليه منه، ولا يبادره قبل فراغه.

وقد ذكر الله - تعالىٰ - هذا المعنىٰ في ثلاثة مواضع من كتابه؛ هذا **أحدها**.

والثاني: قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه:١١٣، ١١٤].

والثالث: قوله تعالىٰ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الأعلىٰ:٦، ٧]، فضَمِنَ لرسوله أنَّه لا ينسىٰ ما أَقْرَأَهُ إيَّاهُ، وهذا يتناول حال القراءة وما بعدها.

وقد ذَمَّ الله - سبحانه - في هذه السورة من يُؤْثِر العاجلة علىٰ الآجلة، وهذا لاستعجاله بالتمتُّع بما يَفْنَىٰ، وإيثاره علىٰ ما يَبْقَىٰ، ورتَّبَ كلَّ ذَمٍّ ووعيدٍ في هذه

السورة علىٰ هذا الاستعجال، ومحبَّةِ العاجلة علىٰ الآجلة، فإرادتُهُ أن يَفْجُرَ أَمَامَهُ هو من استعجاله وحُبِّ العاجلة، وتكذيبُهُ بيوم القيامة من فَرْطِ حُبِّ العاجلة، وإيثاره لها، واستعجاله بنصيبه، وتمتُّعه به قبل أَوَانِه، ولولا حُبُّ العاجلة وطلب الاستعجال لتمتَّعَ به في الآجلة أكمل ما يكون. وكذلك تكذيبُه، وتَوَلِّيه، وتركُهُ الصلاةَ هو من استعجاله ومحبته العاجلة.

فصل

ص: ٢٤٧

إثبات النبوة والمعاد عقلا

ومن أسرارها أنَّ إثباتَ النُّبوَّةِ والمَعَاد يُعْلَمُ بالعقل، وهذا أحد القولين لأصحابنا وغيرهم، وهو الصواب؛ فإنَّ الله - سبحانه - أنكر علىٰ مَنْ حَسِبَ أنَّه يُتْرَكُ سُدَىً: فلا يُؤْمَر، ولا يُنْهَىٰ، ولا يُثَاب، ولا يُعَاقَب.

ولم يَنْفِ - سبحانه - ذلك بطريق الخبر المجرَّدِ، بل نفاه نَفْيَ ما لا يليق نسبته إليه، ونَفْيَ مُنْكِرٍ علىٰ من حكم به وظنَّه.

ثُمَّ استدلَّ - سبحانه - علىٰ فساد ذلك، وبيَّن أن خَلْقَهُ الإنسانَ في هذه الأطوار، وتنقُّلَه فيها طَوْرًا بعد طَوْرٍ حتَّىٰ بلغ نهايته؛ يأبىٰ أن يتركه سُدَىً، وأنَّه تنزَّهَ عن ذلك كما تنزَّهَ عن العَبَثِ، والعَيْبِ، والنَّقْصِ.

وهذه طريقة القرآن في غير موضع كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون:١١٥، ١١٦]، فجَعَلَ كمَالَ مُلْكه، وكونَهُ - سبحانه - الحقَّ، وكونَهُ لا إله إلا هو، وكونَهُ ربَّ العرش المستلزِم لربوبيته لكلِّ ما دونه = مبطِلًا لذلك الظَّنِّ الباطل، والحكم الكاذب.

ص: ٢٥٠

فصل

قسم الله تعالى بالقمر

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾ [المدثر:٣٢-٣٧].

أقْسَمَ - سبحانه - بالقمر الذي هو آيةُ الليل، وفيه من الآيات الباهرة الدالَّة علىٰ ربوبية خالقه وبارئه، وحكمته، وعلمه، وعنايته بخلقه = ما هو معلومٌ بالمشاهدة.

وهو - سبحانه - أقسَمَ بالسماء وما فيها ممَّا لا نَراهُ من الملائكة، وما فيها ممَّا نَراهُ من الشمس، والقمر، والنُّجُوم، وما يحدث بسبب حركات الشمس والقمر من الليل والنَّهار، وكلُّ ذلك آيةٌ من آياته، ودلالةٌ من دلائل ربوبيته.

ومن تدبَّرَ أمرَ هذين النيِّرَيْن العظيمين وجدهما من أعظم الآيات في خَلْقِهما، وجِرْمِهما، ونُورِهما، وحركتهما علىٰ نهجٍ واحدٍ، لا يَنِيَانِ، ولا يَفْتُرَان، دَائِبَيْن، ولا يقع في حركاتهما اختلافٌ بالبُطْءِ، والسرعةِ، والرجوعِ، والاستقامةِ، والانخفاضِ، والارتفاعِ، ولا يجري أحدُهما في فَلَكِ صَاحبه، ولا يدخل عليه في سلطانه، ولا تدرك الشمسُ القمرَ، ولا يجيء الليلُ قبل انقضاء النَّهار، بل لكلٍّ حركةٌ مقدَّرَةٌ، ونهجٌ معيَّنٌ لا يَشْركه فيه الآخر، كما أنَّ له تأثيرًا ومنفعةً لا يَشْركه فيها الآخر.

وذلك ممَّا يدلُّ مَنْ له أدنىٰ عقلٍ علىٰ أنَّه بتسخير مسخِّرٍ، وأَمْرِ آمرٍ، وتدبير مدبِّرٍ، بَهَرَتْ حكمتُه العقولَ، وأحاطَ علمُه بكلِّ دقيقٍ وجليلٍ، وفوق ما علمه النَّاس من الحِكَمِ التي في خَلْقِهما ما لا تصل إليه عقولهم، ولا تنتهي إلىٰ مبادئها أوهامهم، فغايتنا الاعتراف بجلال خالقِهما، وكمال حكمته، ولطف تدبيره، وأن نقول ما قاله أولو الألباب قبلنا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران:١٩١].

تأمَّـلْ سُـطُورَ الكائنَـاتِ فإنَّها من المَلِكِ الأعلَىٰ إليكَ رَسَـائِلُ
وقد خُطَّ فيها لـو تأمَّلْتَ خَطَّها أَلَا كُلُّ شـيءٍ ما خَـلَا اللهَ باطِلُ

فصل

ص: ٢٥٥

قسم الله تعالى بالليل إذا أدبر

وأمَّا إقسامُه - سبحانه - بـ«الليل إذ أدبر» فَلِمَا في إدباره وإقبال النَّهار من أَبْيَنِ الدلالات الظاهرة علىٰ المبدأ والمَعَاد، فإنَّه مبدأٌ ومَعَادٌ يوميٌّ مشهودٌ بالعِيَان، بَيْنا الحيوان في سكون الليل وقد هدأت حركاتهم، وسكنت أصواتهم، ونامت عيونهم، وصاروا إخوان الأموات، إذ أقبل من النَّهار دَاعِيه، وأسمعَ الخلائقَ مُنَادِيه، فانتشرت منهم الحركات، وارتفعت منهم الأصوات، حتَّىٰ كأنَّهم قاموا أحياءً من القبور، يقول قائلهم: «الحَمْدُ للهِ الذي أحيَانَا بعدَمَا أَمَاتَنَا وإليه النُّشُور»[1]، فهو مَعَادٌ جديدٌ، أَبْدَأَهُ وأَعَادَهُ الذي يُبْدِئُ ويُعِيدُ، فمَنْ ذَهَب بالليل وجاء بالنَّهار سوىٰ الواحد القهَّار؟

فمن تأمَّلَ حال الليلِ إذا عَسْعَسَ وأَدْبَرَ، والصُّبحِ إذا تنفَّسَ وأَسْفَرَ، فهزمَ جيوشَ الظلام بنَفَسِهِ، وأضاءَ أُفُقَ العالَم بِقَبَسِه، وفَلَّ كتائبَ المواكب بعساكره، وأضحكَ نواحي الأرض بتباشِيره وبشائره، فيالَهُما آيتان شاهدتان بوحدانية مُنْشِئِهما، وكمالِ ربوبيته، وعظيم قدرته وحكمته.

فتبارَكَ الذي جعل طلوعَ الشمس وغروبَها مقيمًا لسلطان الليل والنَّهار، فلولا طلوعها لبَطَلَ أمرُ العالَم كلِّه، فكيف كان النَّاس يَسْعَون في معايشهم، ويتصرَّفُون في أمورهم؛ والدنيا مظلمةٌ عليهم؟! وكيف كانت تَهْنِيهم الحياة مع فقْد لذَّة النُّورِ وروحه؟! وأيُّ ثمارٍ ونباتٍ وحيوانٍ كان يوجد؟! وكيف كانت تتمُّ مصالح أبدان

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣١٢) ومسلم (٢٧١١).

الحيوان والنَّبَات؟! ولولا غروبُها لم يكن للنَّاس هُدُوءٌ ولا قَرَارٌ، مع عِظَمِ حاجتهم إلىٰ الهُدُوءِ؛ لراحة أبدانهم، وجُمُومِ حواسِّهم. فلولا جُثُوم هذا الليل عليهم بظلمته لَمَا هَدَأُوا، ولا قَرُّوا، ولا سكنوا، بل جعله أحكم الحاكمين سَكَنًا ولباسًا، كما جعل النَّهار ضياءً ومعاشًا.

ولولا الليل وبَرْدُه لاحترقت أبدان النَّبَات والحيوان من دوام شُرُوق الشمس عليها، وكان يحترق ما عليها من نباتٍ وحيوانٍ، فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن جعلها سراجًا يطلع علىٰ العالم في وقت حاجتهم إليه، ويغيب في وقت استغنائهم عنه. فطُلُوعُه لمصلحتهم، وغيبته لمصلحتهم، وصار النُّور والظُّلْمة - علىٰ تضادِّهِما - متعاونَين مُتظَاهِرَيْن علىٰ مصلحة هذا العالَم وقِوَامه. فلو جعل الله - سبحانه - النَّهار سرمدًا إلىٰ يوم القيامة، أو الليل سرمدًا إلىٰ يوم القيامة؛ لفاتت مصالح العالم، واشتدت الضرورة إلىٰ تغيير ذلك وإزالته بضدِّه.

وتأمَّلْ حكمته - سبحانه - في ارتفاع الشمس وانخفاضها لإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السَّنَة، وما في ذلك من مصالح الخلق.

فصل

ص: ٢٦٠

قسم الله تعالى بالصبح إذا أسفر

وأقسَمَ - سبحانه - بهذه الأشياءِ الثلاثةِ - وهي: القمر، والليل إذا أدبر، والصبح إذا أسفر - علىٰ المَعَاد؛ لِمَا في المُقْسَم به من الدلالة علىٰ ثبوت المُقْسَم عليه، فإنَّه يتضمَّنُ كمال قدرته، وحكمته، وعنايته بخلقه، وإبداء الخَلْقِ وإعادته، كما هو مشهودٌ في إبداء النَّهار والليل وإعادتهما، وفي إبداء النُّور وإعادته في القمر، وفي إبداء الزَّمَان وإعادته الذي هو حاصِلٌ بسير الشمس والقمر، وإبداء الحيوان

والنَّبَات وإعادتهما، وإبداء فصول السَّنَة وإعادتها، وإبداء ما يحدث في تلك الفصول وإعادته؛ فكلُّ ذلك دليلٌ ظاهرٌ علىٰ المبدأ والمَعَاد الذي أخبرت به رُسُلُه كلُّهم عنه.

فصرَّفَ - سبحانه - الآياتِ الدَّالَّةَ علىٰ صِدْقِهِ وصِدْقِ رُسُله، ونوَّعَها، وجعلها للفِطَر تارةً، وللعقول تارةً، وللسمع تارةً، وللمشاهَدَةِ تارةً، فجعلها آفاقِيَّةً، ونفسيَّةً، ومنقولةً، ومعقولةً، ومشهودةً بالعِيَان، ومذكُورَةً بالجَنَان، فأبىٰ الظالمون إلا كفورًا، ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان:٣].

ولمَّا أقامَ الحُجَّةَ وبيَّنَ المحجَّةَ ارتهن كلَّ نفسٍ بكَسْبِها، وآخَذَها بذنبها، واستثنىٰ من أولئك مَنْ قَبِلَ هُدَاهُ، واتَّبعَ رضاه، وهم أصحاب اليمين الذين آمنوا بالله، وصدَّقُوا المرسلين، وسلكوا غير سبيل المجرمين، الذين ليسوا من المصلِّين، ولا مِنْ مُطْعِمِي المساكين، وهم من أهل الخَوْضِ مع الخائضين، المكذِّبين بيوم الدِّين.

فهذه أربع صفاتٍ أخرجتهم من زُمْرة المفلحين، وأدخلتهم في جملة الهالكين:

الأُولَى: تَرْكُ الصلاة، وهي عمود الإخلاص للمعبود.

الثانية: تَرْكُ إطعام المسكين الذي هو أَهَمُّ مراتب الإحسان للعبيد، فلا إخلاصَ للخالق، ولا إحسانَ للمخلوق، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون:٦، ٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة:٥٤]، وهذا ضدُّ ما وصَفَ به أصحاب اليمين بقوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال:٣]، وقال تعالىٰ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة:١٦].

وقَرَنَ - سبحانه - بين هذين الأصلين في غير موضع من كتابه؛ فأمر بهما تارةً،

وأثنىٰ علىٰ فاعلهما تارةً، وتوعَّدَ بالوَيْل والعقابِ تاركَهما تارةً، فإنَّ مدارَ النَّجَاة عليهما، ولا فلاح لمن أَخَلَّ بهما.

الصفة الثالثة، والرابعة: الخَوْضُ بالباطل، والتكذيبُ بالحقِّ.

فاجتمع لهم: عدمُ الإخلاصِ والإحسانِ، والخوضُ بالباطل، والتكذيبُ بالحقِّ. واجتمع لأصحاب اليمين: الإخلاصُ، والإحسانُ، والتصديقُ بالحقِّ، والتكلُّمُ به، فاستقام إخلاصُهم، وإحسانُهم، ويقينُهم، وكلامُهم.

واستبدل أصحابُ الشِّمال بالإخلاص شركًا، وبالإحسانِ إساءةً، وباليقينِ شَكًّا وتكذيبًا، وبالكلام النافع خوضًا في الباطل. فلذلك لم تنفعهم شفاعة الشافعين، أي: لم يكن لهم من يشفع فيهم، لا أنَّ شَفَاعةً تقع فيهم ولا تنفع، وهذا لمَّا أعرضوا عن التذكرة ولم يرفعوا بها رأسًا، وجَفَلُوا عن سماعها كما تَجْفُلُ حُمُرُ الوَحْشِ من الأُسْدِ أو الرُّمَاةِ.

ثُمَّ خَتَمَ السورة بأَنَّه جَمَعَ فيها بين شرعِهِ وقَدَرِهِ، وإقامةِ الحُجَّةِ عليهم بإثباتِ المشيئةِ لهم، وبيانِ مقتضىٰ التوحيد والربوبية أنَّ ذلك إليه لا إليهم. **فالأوَّل**: عدْلُهُ، **والثاني**: فضْلُهُ.

فالأوَّل: يوجب السعيَ، والطَّلَبَ، والحرصَ علىٰ ما يُنْجِيهم، كما يفعلون ذلك في مصالح دنياهم، بل أشدُّ.

والثاني: يوجب الاستعانة، والتوكُّل، والتفويض، والرغبة إلىٰ مَنْ ذلك بيده لِيُسَهِّلَه، ويوفِّقَهم له. والله المستعان، وعليه التكلان.

فصل

ص: ٢٦٤

قسم الله تعالى بكل الأشياء

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة:٣٨-٤٠] إلىٰ آخرها.

قال مقاتل: «بما تبصرون من الخلق، وما لا تبصرون منه»[1].

وقال قتادة: «أَقْسَمَ بالأشياءِ كلِّها؛ ما يُبْصَرُ منها، وما لا يُبْصَر».

وهذا أَعَمُّ قَسَمٍ وقع في القرآن، فإنَّه يَعُمُّ العُلْوِيَّات والسُّفْلِيَّات، والدنيا والآخرة، وما يُرَى وما لا يُرَى، ويدخل في ذلك الملائكة كلُّهم، والجِنُّ، والإنسُ، والعرشُ، والكرسيُّ، وكلُّ مخلوقٍ، وذلك كلُّه من آيات قدرته وربوبيته، وهو - سبحانه - يصرِّفُ الأقسام كما يصرِّفُ الآيات.

ففي ضمن هذا القَسَم أنَّ كلَّ ما يُرَىٰ وما لا يُرَىٰ آيةٌ ودليلٌ علىٰ صدق رسوله، وأنَّ ما جاء به هو من عند الله، وهو كلامُهُ، لا كلامُ شاعرٍ، ولا مجنونٍ، ولا كاهنٍ.

ومن تأمَّلَ المخلوقاتِ، ما يراه منها وما لا يراه، واعتبر ما جاء به الرسول بها، ونَقَّلَ فكرته في مجاري الخلق والأمر = ظَهَرَ له أنَّ هذا القرآنَ من عند الله، وأنَّه كلامه، وهو أصدق الكلام، وأنَّه حقٌّ ثابتٌ، كما أنَّ سائر الموجودات - ما يُرَىٰ منها وما لا يُرَىٰ - حقٌّ، كما قال تعالىٰ: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات:٢٣]، أي: إنْ كان نُطْقُكُم حقيقةً، وهو أمرٌ موجودٌ لا تُمَارُون فيه ولا تشكُّون؛ فهكذا ما أخبرتكم به من التوحيد، والمَعَاد، والنُّبُوَّة: حَقٌّ.

ثُمَّ ذكر - سبحانه - المُقْسَمَ عليه فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة:٤٠]، وهذا رسوله البَشَرِيُّ محمدٌ ﷺ، وفي إضافته إليه باسم الرسالة أَبْيَنُ دَلَالَةٍ أنَّه كلام

---

(١) «تفسيره» (٣/ ٣٩٥).

المُرْسِل له حقيقةً، وكلام رسوله تبليغًا؛ إذ حقيقة الرسول مَنْ يُبلِّغ كلام المرسِل، فمن أنكر أن يكون اللهُ قد تكلَّم بالقرآن فقد أنكر حقيقة الرسالة. ولو كانت إضافته إليه إضافةَ إنشاءٍ وابتداءٍ لم يكن رسولًا، ولَنَاقَضَ ذلك إضافته إلىٰ رسوله المَلَكي في «سورة التكوير».

ثُمَّ بيَّن - سبحانه - كَذِبَ أعدائه وبَهْتَهم في نسبة كلامه - تعالىٰ - إلىٰ غيره، وأنَّه لم يتكلَّم به، بل قاله من تلقاء نفسه، كما بيَّنَ كذِبَ من قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٥]، فمن زعم أنَّه قول البشر فقد كفر، وسيصليه الله سقر.

ثُمَّ أخبر - سبحانه - أنَّه تنزيلٌ من ربِّ العالمين، وذلك يتضمَّن أمورًا:

أحدها: أنَّه - تعالىٰ - فوق خلقه كلِّهم، وأنَّ القرآن نَزَلَ من عنده.

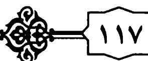
والثاني: أنَّه كلامه تكلَّمَ به حقيقةً، لقوله: ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة:٨٠]، ولو كان غيره هو المتكلِّمُ به لكان من ذلك الغير. ونظير هذا قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ [السجدة:١٣]، ونظيره قوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل:١٠٢]، ونظيره قوله تعالىٰ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الزمر:١]، وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢]؛ وما كان من الله فليس بمخلوقٍ.

فصل

ص: ٢٦٨

من تمام الربوبية تكليف العباد

الأمر الثالث - ممَّا تضمَّنَهُ قولُه: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة:٨٠]-: أنَّ ربوبيته الكاملة لخلقه تأبىٰ أن يتركهم سُدَىً: لا يأمرهم، ولا ينهاهم، ولا يرشدهم إلىٰ ما ينفعهم، ويحذِّرُهم ممَّا يضرُّهم، بل يتركهم هَمَلًا بمنزلة الأنعام السائمة. فمن زعم ذلك فلم يَقْدر ربَّ العالمين حَقَّ قدره، ونَسَبَهُ إلىٰ ما لا يليق به؛



﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون:١١٦].

ثُمَّ أقام - سبحانه - البرهانَ القاطِعَ علىٰ صدق رسوله ﷺ، وأنَّه لم يتقوَّلْ عليه فيما قاله، وأنَّه لو تقوَّلَ عليه لَمَا أقرَّهُ، ولَعَاجَلَهُ بالإهلاك، فإنَّ كمال علمه وقدرته وحكمته تأبىٰ أن يُقِرَّ من تقوَّلَ عليه، وافترىٰ عليه، وأضلَّ عبادَهُ، واستباحَ دماءَ من كذَّبَهُ، وحريمَهم وأموالَهم، وأظهرَ في الأرض الفسادَ والجَوْرَ والكذبَ وخلافَ الحقِّ، فكيف يليق بأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأقدر القادرين أن يُقِرَّهُ علىٰ ذلك؟

بل كيف يليق به أنْ يؤيِّدَهُ، ويَنْصُرَهُ، ويُعْلِيَهُ، ويُظْهِرَهُ، ويُظْفِرَهُ بأهل الحقِّ: يسفك دماءهم، ويستبيح أموالَهم وأولادَهم ونساءَهم، قائلًا: إنَّ اللهَ أمرني بذلك وأباحَهُ لي؟!

فمن أعظم المُحَال، وأبطل الباطل، وأَبْيَنِ البهتان؛ أن يُجَوِّزَ علىٰ أحكم الحاكمين وربِّ العالمين أن يفعل ذلك بالكاذب المفتري عليه.

وقد أرشد - سبحانه - إلىٰ هذا المَسْلَك في غير موضعٍ من كتابه:

فقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة:٤٤-٤٧]، يقول سبحانه: لو تقوَّلَ علينا قولًا واحدًا من تلقاء نفسه لم نَقُلْهُ، ولم نُوحِهِ إليه؛ لَمَا أقررناه، وَلأَخَذْنا بيمينه، ثُمَّ أهلكناه.

هذا أحد القولين.

قال ابن قتيبة: «في هذا قولان: أحدهما: أنَّ «اليمينَ» ها هنا: القوَّةُ والقدرةُ، وأقام «اليمين» مقام القوَّة؛ لأنَّ قوَّة كلِّ شيءٍ في ميامنه».

قلتُ: وعلىٰ هذا تكون «اليمين» من صفة الآخِذِ.

قال: «وهذا قول ابن عباس في اليمين».

قال: «ولأهل اللغة في هذا مذهبٌ آخر، وهو أنَّ الكلامَ وَرَدَ علىٰ ما اعتاده النَّاسُ من الأخذ بيد من يُعَاقَب، وهو قولهم إذا أرادوا عقوبةَ رَجُلٍ: «خُذْ بيده»، وأكثر ما يقوله السلطان والحاكم بعد وجوب الحكم: خُذْ بيده، واسْفَعْ بيده[1]. فكأنَّهُ قال: لو كَذَبَ علينا في شيءٍ ممَّا يُلْقِيه إليكم عَنَّا؛ لأخَذْنا بيده، ثُمَّ عاقبناه بقطع «الوتين»، وإلىٰ هذا المعنىٰ ذهب الحسن»[2] انتهىٰ.

فقد أخبر - سبحانه - أنَّه لو تقوَّلَ عليه شيئًا من الأقاويل لما أقرَّهُ، وَلَعَاجَله بالأَخْذِ والعقوبة، فإنَّ كَذِبًا علىٰ الله ليس كَكَذِبٍ علىٰ غيره، ولا يليق به أن يُقِرَّ الكاذب عليه، فضلًا عن أن ينصرَهُ ويؤيدَهُ ويصدِّقَهُ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة:٤٦]؛ «الوَتِيْنُ»: نِيَاطُ القلب؛ وهو عِرْقٌ يجري في الظَّهْر حتَّىٰ يتصل بالقلب، إذا انقطع بَطَلَت القُوَىٰ، ومات صاحبه»[3]. هذا قول جميع أهل اللغة.

ثُمَّ قال سبحانه: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة:٤٧] أي: لا يحجزه منِّي أحدٌ، ولا يمنعه منِّي.

الموضع الثاني: قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الشورىٰ:٢٤]. وفي معنىٰ الآية للنَّاس قولان:

---

(١) واسْفَعْ بيده: أي خُذْ بيده، وسَفَع يَسْفَعُ سَفْعًا: جَذَبَ وأَخذ وقَبَض. انظر: «لسان العرب» (٦/ ٢٨٢).

(٢) «تأويل مشكل القرآن» (١٥٤ - ١٥٥).

(٣) انظر: «الوسيط» للواحدي (٤/ ٣٤٩).

أحدهما: قول مجاهد ومقاتل[١]: «إن يشأ الله يربط علىٰ قلبك بالصبر علىٰ أذاهم، حتَّىٰ لا يشقَّ عليك»[٢].

والثاني: قول قتادة: «إنْ يشأ الله يُنْسيكَ القرآنَ، ويقطع عنك الوحي»[٣].

وهذا هو القولُ، دون الأوَّل؛ لوجوه:

أحدها: أنَّ هذا خرج جوابًا لهم، وتكذيبًا لقولهم: إنَّ محمدًا كَذَب علىٰ الله، وافترىٰ عليه هذا القرآن، فأجابهم بأحسن جوابٍ، وهو أنَّ الله - سبحانه - قادرٌ لا يعجزه شيءٌ، فلو كان كما تقولون لختم علىٰ قلبه، فلا يمكنه أن يأتي بشيءٍ منه، بل يصير القلب كالشيء المختوم عليه فلا يُوصَل إلىٰ ما فيه، فيعود المعنىٰ إلىٰ أنَّه: لو افتراهُ عليَّ لم أُمَكِّنْهُ، ولم أُقِرَّه.

الوجه الثاني: أنَّ مجرَّدَ الرَّبْطِ علىٰ قلبه بالصبر علىٰ أذاهم يصدر من المُحِقِّ والمُبْطِلِ، فلا يدلُّ ذلك علىٰ التمييز بينهما، ولا يكون فيه رَدٌّ لقولهم، فإنَّ الصبر علىٰ أذىٰ المكذِّب لا يدلُّ بمجرده علىٰ صِدْقِ المُخْبِرِ.

الثالث: أن الرَّبْطَ علىٰ قلب العبد بالصبر لا يقال له: خُتِمَ علىٰ قلبه، ولا يعرف هذا في عُرْفِ المخاطب، ولا لغة العرب، ولا هو المعهود في القرآن.

الرابع: أنَّ هذه الآية نظيرُ ما نحن فيه، وأنَّه لو شاء لما أَقَرَّهُ ولا مَكَّنَهُ، وتفسير القرآن بالقرآن من أبلغ التفاسير.

فالقول في الآية هو قول قتادة. والله أعلم.

---

(١) «تفسيره» (٣/ ١٧٨).

(٢) انظر: «زاد المسير» (٧/ ٨٠).

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١١/ ١٤٦).

ثُمَّ أخبر - سبحانه - أنَّ القرآنَ تذكرةٌ للمتقين؛ يتذكَّرُ به المتَّقي، فيُبصِرُ ما ينفعه فيأتيه، وما يَضُرُّه فيجتنبه، ويتذكَّرُ به أسماء الرَّبِّ - تعالىٰ - وصفاتِه وأفعالَه فيُؤمِنُ، ويتذكَّرُ به ثوابَهُ، وعقابَهُ، ووعْدَهُ، ووعيدَهُ، وأمره، ونهيه، وآياته في أوليائه وأعدائه ونفسه، وما يُزَكِّيها ويُطَهِّرها ويُعْلِيها، وما يُدَسِّيها ويُخْفِيها ويُحَقِّرها. ويتذكَّرُ به علم المبدأ والمَعَاد، والجنَّة والنَّار، وعلم الخير والشَّرِّ. فهو التذكرة علىٰ الحقيقة، تذكرةُ حُجَّةٍ للعالمين، ومنفعةٍ وهدايةٍ للمتعلِّمين.

ثُمَّ قال سبحانه: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ [الحاقة:٤٩] لا يَخْفَون علينا، فَسَنُجَازِيهم بتكذيبهم.

ثُمَّ أخبر - سبحانه - أنَّ رسولَهُ وكَلَامَهُ حسرةٌ علىٰ الكافرين، إذا عَايَنُوا حقيقة ما أَخْبَرَ به كان تكذيبهم عليهم من أعظم الحسرات حين لا ينفعهم التحسُّرُ.

ثُمَّ أخبر - سبحانه - أنَّ القرآنَ والرسولَ «حقُّ اليقين»، فقيل: هو من باب إضافة الموصوف إلىٰ صفته، أي: الحقُّ اليقينُ، نحو: مسجد الجامع، وصلاة الأُولىٰ. وهذا موضعٌ يحتاج إلىٰ تحقيقٍ، فنقول وبالله التوفيق:

ذكر الله - سبحانه - في كتابه مراتب اليقين، وهي ثلاثة: حقُّ اليقين، وعلمُ اليقين، وعينُ اليقين، كما قال تعالىٰ: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧﴾ [التكاثر:٥-٧]، فهذه ثلاث مراتب لليقين:

أوَّلُها: عِلْمُهُ؛ وهو التصديقُ التامُّ به، بحيث لا يعرض له شَكٌّ ولا شبهةٌ تقدح في تصديقه، كعلم اليقين بالجَنَّة مثلًا، وتيَقُّنِهم أنَّها دارُ المتقين ومَقَرُّ المؤمنين. فهذه مرتبة العلم؛ لِتيَقُّنِهم أنَّ الرُّسُل أخبروا بها عن الله، وتيَقُّنِهم صِدْق المُخْبِر.

المرتبة الثانية: «عين اليقين»؛ وهي مرتبة الرؤية والمشاهدة، كما قال تعالىٰ:

﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ [التكاثر:٧].

وبين هذه المرتبة والتي قبلها فَرْقُ ما بين العلم والمشاهدة؛ فـ«علم اليقين» للسمع، و«عين اليقين» للبصر، وفي «المسند» للإمام أحمد مرفوعًا: «ليس الخَبَرُ كالمُعَايَنَة»(١).

المرتبة الثالثة: مرتبةُ «حَقِّ اليقين»؛ وهي مباشرة الشيء بالإحساس به، كما إذا دخلوا الجنَّةَ وتمتَّعُوا بما فيها. فَهُمْ في الدنيا في مرتبة «علم اليقين»، وفي الموقف حين تُزْلَفُ وتَقْرُبُ منهم حتَّىٰ يُعَايِنُوها في مرتبة «عين اليقين»، وإذا دخلوها وباشروا نعيمَها في مرتبة «حقِّ اليقين».

ومباشرةُ المعلوم تارةً تكون بالحواسِّ الظاهرة، وتارةً تكون بالقلب، فلهذا قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الحاقة:٥١]، فإنَّ القلبَ يباشِرُ الإيمانُ به ويخالِطُهُ كما يُبَاشِرُ بالحواسِّ ما يتعلَّق بها، فحينئذٍ يُخَالِط بشاشته القلوب، ويبقىٰ لها «حقُّ اليقين»، وهذه أعلىٰ مراتب الإيمان وهي «الصدِّيقيَّة» التي تتفاوت فيها مراتب المؤمنين.

وقد ضرب بعض العلماء للمراتب الثلاثِ مثالًا؛ فقال: إذا قال لك مَنْ تَجْزِمُ بصِدْقِه: عندي عَسَلٌ أُرِيد أن أُطْعِمَك منه، فصدَّقْتَهُ؛ كان ذلك «علم اليقين»، فإذا أحضره بين يديك صار ذلك «عين اليقين»، فإذا ذُقْتَهُ صار ذلك «حقَّ اليقين».

وعلىٰ هذا فليست هذه الإضافة من باب إضافة الموصوف إلىٰ صفته، بل من باب إضافة الجنْس إلىٰ نوعه، فإنَّ «العلمَ» و«العينَ» و«الحقَّ» أعمُّ من كونها يقينًا، فأُضيف العامُّ إلىٰ الخاصِّ، مثل: بعض المتاع، وكُلِّ الدراهم.

ولما كان المضاف والمضاف إليه في هذا الباب يَصْدُقَانِ علىٰ ذَاتٍ واحدةٍ -

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٢١٥) رقم (١٨٤٢). وصححه ابن حبَّان (٦٢١٣).

بخلاف قولك: دار عمروٍ، وثوب زيدٍ - ظَنَّ مَنْ ظَنَّ أنَّها من إضافة الموصوف إلىٰ صفته؛ وليس كذلك، بل هي من باب إضافة الجِنْس إلىٰ نوعه، كـ: ثوب خَزٍّ، وخاتَمِ فضَّةٍ. فالمضاف إليه قد يكون مغَايرًا للمضاف، لا يَصْدُقَانِ علىٰ ذاتٍ واحدةٍ، وقد يُجَانسه فيَصْدُقَانِ علىٰ مسمًّىً واحدٍ، والله أعلم.

ثُمَّ ختم السورة بقوله تعالىٰ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحاقة:٥٢]، وهي جديرةٌ بهذه الخاتمة، لما تضمَّنَتْهُ من الإخبار عن عظمةِ الرَّبِّ - تعالىٰ - وجلالِهِ، وذكرِ عظمةِ مُلْكِه، وجريان حكمه بالعدل علىٰ عباده في الدنيا والآخرة، وذكر عظمته - تعالىٰ - في إرسالِ رسوله، وإنزالِ كتابه، وأنَّه - تعالىٰ - أعظمُ وأجَلُّ وأكبرُ عند أهل سماواته والمؤمنين من عباده من أنْ يُقِرَّ كذَّابًا مُتقوِّلًا عليه، مفتريًا عليه، يُبدِّلُ دينَهُ، وينسخُ شرائعه، ويقتلُ عباده، ويخبِرُ عنه بما لا حقيقة له، وهو - سبحانه - مع ذلك يُؤَيِّدُه، وينصره، ويُجِيبُ دعواته، ويأخذُ أعداءه، ويرفعُ قَدْرَهُ، ويُعْلِي ذِكْرَهُ، فهو - سبحانه - العظيمُ الذي تأْبَىٰ عظمتُهُ أنْ يفعل ذلك بمن أتىٰ بأقبح أنواع الكذب والظلم، فسبحان ربِّنا العظيم، وتعالىٰ عمَّا يَنْسُبُهُ إليه الجاهلون علوًّا كبيرًا.

فصل

ص: ٢٨٨

قسم الله تعالى برب المشارق والمغارب

ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المعارج:٤٠، ٤١]، أقسَمَ - سبحانه - بـ«رَبِّ المَشَارِقِ والمَغَارِبِ»، وهي: إمَّا مشارقُ النُّجُوم ومغارِبُها، أو مشارقُ الشمس ومغارِبُها، أو أنَّ كُلَّ موضعٍ من الجهة مشرقٌ ومغربٌ.

فلذلك جَمَعَ في موضعٍ، وأَفْرَدَ في موضعٍ، وثَنَّىٰ في موضعٍ آخر، فقال تعالىٰ: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن:١٧]، فقيل: هما مَشْرِقَا الصيف والشتاء.

وجاء في كلِّ موضع ما يناسبه، فجاء في «سورة الرحمن»: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾؛ لأنَّها سورةٌ ذُكِرَتْ فيها المُزْدَوِجَات، فذُكِرَ فيها الخلقُ والتعليمُ، والشمسُ والقمرُ، والنَّجْمُ والشجرُ، والسماءُ والأرضُ، والحَبُّ والثَّمَرُ، والجنُّ والإنسُ، ومادةُ أبي البشر، ومادةُ أبي الجنِّ، والبحرين، والجنَّة والنَّارُ، وقسَمَ الجنَّة إلى: جَنَّتَين عاليتين، وجَنَّتَين دونهما، وأخبرَ أنَّ في كلِّ جنَّةٍ عَيْنَين؛ فناسب كلَّ المناسبة أن يذكر المشرقين والمغربين.

وأمَّا سورة ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ﴾ فإنَّه أقسَمَ - سبحانه - علىٰ عمومِ قُدرته وكمالِها، وصحةِ تعلُّقِها بإعادتهم بعد العَدَم، فذكَرَ «المشارقَ» و«المغارِبَ» بلفظ الجمع؛ إذ هو أدلُّ علىٰ المُقْسَم عليه، سواءٌ أُرِيدَ مشارقُ النُّجُومِ ومغاربُها، أو مشارقُ الشمس ومغاربُها، أو كلُّ جزءٍ من جهَتَي المشرق والمغرب. فكُلُّ ذلك آيةٌ ودلالةٌ علىٰ قدرته - تعالىٰ - عَلىٰ أن يبدِّل أمثال هؤلاء المكذِّبين، ويُنْشِئَهم فيما لا يعلمون، فيأتي بهم في نشأةٍ أخرىٰ، كما تأتي الشمسُ كُلَّ يومٍ من مَطْلَعٍ، وتذهبُ في مَغْرِبٍ.

وأمَّا في «سورة المزَّمِّل» فذَكَرَ المشرق والمغرب بلفظ الإفراد لَمَّا كان المقصود ذكر ربوبيته ووحدانيته، وأنَّهُ كما تفرَّدَ بربوبية المشرق والمغرب وحده فكذلك يجب أن يُفْرَدَ بالربوبيةِ والتوكُّلِ عليه وحده. فليس للمشرق والمغرب رَبٌّ سواه، فكذلك ينبغي أن لا يُتَّخَذَ إلهٌ ولا وكيلٌ سواه، ولذلك قال موسىٰ لفرعون حين سأله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٢٣] فقال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء:٢٨].

وفي ربوبيته - سبحانه - للمشارق والمغارب تنبيهٌ علىٰ ربوبيته السماوات وما حوته من الشمس والقمر والنُّجُوم، وربوبيته ما بين الجهتين، وربوبيته الليلَ والنَّهارَ وما تضمَّنَاهُ.

ثُمَّ قال: ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٤١﴾ [المعارج:٤٠، ٤١]، أي: لَقَادرون علىٰ أن نذهب بهم، ونأتي بأَطْوَعَ لنا منهم، وخير منهم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء:١٣٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، أي: لا يفوتني ذلك إذا أردتُه، ولا يمتنع منِّي. وعَبَّر عن هذا المعنىٰ بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾؛ لأنَّ المغلوبَ يسبقه الغالبُ إلىٰ ما يريده فيفوت عليه، ولهذا عَدَّىٰ بـ«علىٰ» دون «إلىٰ»، كما في قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ [الواقعة:٦٠، ٦١]، فإنَّه لمَّا ضمَّنَهُ معنىٰ: مغلوبين ومقهورين؛ عَدَّاهُ بـ«علىٰ»، بخلاف: سَبَقْتُه إليه، فإنَّه فَرْقٌ بين (سَبَقْتُه عليه) و(سَبَقْتُه إليه)؛ **فالأوَّل** بمعنىٰ: غَلَبْتُه وقَهَرْتُه عليه، **والثاني** بمعنىٰ: وصَلْتُ إليه قبله.

فصل

ص: ٢٩٠

قدرة الله تعالى على تبديل الخلق بغيرهم

وقد وقع الإخبارُ عن قدرته - سبحانه - علىٰ تبديل غيرهم في مواضع من القرآن؛ ففي بعضها قدرتُه علىٰ تبديلهم بخيرٍ منهم، وفي بعضها تبديلَ أمثالهم، وفي بعضها استبداله قومًا غيرهم ثُمَّ لا يكونوا أمثالهم. فهذه ثلاثة أمور يجب معرفة ما بينها من الجَمْع والفَرْق:

فحيث وقع التبديلُ بخيرٍ منهم فهو إخبارٌ عن قدرته علىٰ أن يذهب بهم، ويأتي بأَطْوَعَ وأتقىٰ له منهم في الدنيا. وكذلك قوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد:٣٨]، يعني: بل يكونوا خيرًا منكم.

وأمَّا ذِكْرُهُ تبديلَ أمثالهم، ففي «سورة الواقعة» و«سورة الإنسان»، فقال في

«سورة الواقعة»: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الواقعة:٦٠، ٦١]، وقال في «سُورة الإنسان»: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ [الإنسان:٢٨]، قال كثيرٌ من المفسِّرين: المعنىٰ: أنَّا إذا أَرَدْنا أن نخلق خلقًا غيركم لم يَسْبِقْنَا سَابِقٌ، ولم يَفُتْنا ذلك. وفي قوله: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ إذا شئنا أهلكناهم، وأَتَيْنَا بأشباههم، فجعلناهم بَدَلًا منهم.

وعلىٰ هذا فتكون هذه الآيات نظير قوله تعالىٰ: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ [النساء:١٣٣]، فيكون استدلالُهُ بقدرته علىٰ إذهابهم، والإتيان بأمثالهم = علىٰ إتيانه بهم أنفسِهم إذا ماتوا.

والذي عندي في معنىٰ هاتين الآيتين - وهما آية «الواقعة» و«الإنسان» -: أنَّ المراد بتبديل أمثالهم: الخَلْقُ الجديدُ والنَّشْأَةُ الآخرة التي وُعِدُوا بها.

وكونهم «أمثالهم» هو إنشاؤُهم خلقًا جديدًا بعينه، فَهُمْ هُم بأعيانهم، وهم أمثالُهم، فهُم أنفسُهم يُعَادُون. فإذا قلتَ للمُعَادِ: هذا هو الأوَّل بعينه؛ صَدَقْتَ، وإن قلتَ: هو مثله؛ صَدَقْتَ. فهُو هُو مُعادًا، وهو مثل الأوَّل.

فصل

ص: ٢٩٥

وعيد الله تعالى لمن أعرض عنه

فلمَّا أقام عليهم الحُجَّة وقطع المعذرة قال تعالىٰ: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ [المعارج:٤٢]، وهذا تهديدٌ شديدٌ يتضمَّنُ: اتْرُكْ هؤلاء الذين قامت عليهم حُجَّتِي فلم يقبلوها، ولم يخافوا بَأْسِي، ولا صَدَّقُوا رسالاتي في خوضهم بالباطل ولعبهم، فالخوضُ بالباطل ضِدُّ التكلُّمِ بالحقِّ، واللَّعِبُ ضِدُّ

السَّعْي الذي يعود نَفْعُهُ علىٰ ساعيه. **فالأوَّل** ضدُّ العلمِ النَّافع، **والثاني** ضِدُّ العملِ الصالح؛ فلا تَكَلُّمَ بالحقِّ، ولا عَمَلَ بالصواب. وهذا شأنُ كلِّ من أعرض عمَّا جاء به الرسولُ، لا بدَّ له من هذين الأمرين.

ثُمَّ ذكر - سبحانه - حالهم عند خروجهم من القبور، فقال: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج:٤٣]، أي: يُسْرِعُون.

و«النُّصُب»: العَلَمُ والغَايَةُ التي تُنْصَبُ فيَؤُمُّونَها.

وهذا من أَلْطَفِ التشبيه، وأَبْلَغِهِ، وأبينه، وأحسنه؛ فإنَّ النَّاس يقومون من قبورهم مُهْطِعِين إلىٰ الداعي، يَؤُمُّونَ الصوت، لا يُعرِّجُون عنه يَمْنةً ولا يَسْرَةً كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ [طه:١٠٨] أي: يُقْبِلُونَ من كُلِّ أَوْبٍ إلىٰ صوته وناحيته، لا يُعَرِّجُون عنه.

ثُمَّ قال تعالىٰ: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [المعارج:٤٤]، فوَصَفَهم بذُلِّ الظاهر، وهو خشوع الأبصار، وذُلِّ الباطن، وهو ما يرهقهم من الذُّلِّ الذي خشعت عنه أبصارهم.

وقريبٌ من هذا قوله ﷻ: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥)﴾ [القيامة:٢٤، ٢٥]، ونظيره قوله تعالىٰ: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس:٢٧].

وضِدُّ هذا قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان:١١]، فالنَّضْرَةُ عِزُّ الظاهر وجمالُه، والسرور عِزُّ الباطن وجماله.

ومثله - أيضًا - قوله تعالىٰ: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان:٢١]، فجمع بين زينة الظاهر والباطن.

ومنه قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ

بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران:١٠٦، ١٠٧]، فجمع لهؤلاء بين جمال الظاهر والباطن، ولأولئك بين تسويد الظاهر والباطن.

وهذا كلُّه يدلُّكَ علىٰ ارتباط الظاهر بالباطن قَدَرًا وشَرْعًا. والله أعلم بالصواب.

فصل

ص: ٢٩٩

معاني الحروف الهجائية في أوائل السور

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾ [القلم:١-٢].

الصحيح أنَّ «ن» و«ق» و«ص» من حروف الهجاء التي يفتتح الرَّبُّ - سبحانه - بها بعض السور، وهي: أُحادية، وثُنائية، وثُلاثية، ورُباعية، وخماسية، ولم تُجَاوِز الخمسة، ولم تُذكر -قطُّ- في أوَّل سورةٍ إلا وَعَقِبَها يُذْكَرُ القرآنُ؛ إمَّا مُقْسَمًا به، وإمَّا مُخْبَرًا عنه، ما خلا سورتين: سورة «كهيعص»، و«ن». كقوله تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة:١-٢]، ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [آل عمران:١-٣]، ﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١-٢]، ﴿الٓمٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد:١]، وهكذا إلىٰ آخرها.

ففي هذا تنبيهٌ علىٰ شَرَفِ هذه الحروف، وعِظَمِ قَدْرِها، وجلالتها؛ إذ هي مباني كلامه، وكُتُبه التي تكلَّم - سبحانه - بها، وأنزلها علىٰ رسله، وهَدَىٰ بها عباده، وعَرَّفَهُم بواسطتها نفسَهُ، وأسماءه، وصفاته، وأفعاله، وأمره، ونهيه، ووَعْدَهُ، ووَعِيدَهُ، وعرَّفهم بها الخيرَ والشَّرَّ، والحَسَنَ والقبيحَ، وأقدرهم علىٰ التكلُّم بها، بحيث يبلغون بها أقصىٰ ما في أنفسِهِم، بأسهل طريقٍ، وأَقَلِّهِ كُلْفَةً ومشقَّةً، وأَوْصَلِهِ

إلىٰ المقصود، وأَدَلِّهِ عليه، وهذا من أعظم نعمه عليهم، كما هو من أعظم آياته.

ولهذا عاب - سبحانه - علىٰ من عبد إلهًا لا يتكلَّمُ، وامتَنَّ علىٰ عباده بأن أقدرهم علىٰ البيان بها بالكلام. فكان في ذكر هذه الحروف التنبيه علىٰ كمال ربوبيته، وكمال إحسانه وإنعامه، فهي أَوْلَىٰ أنْ يُقْسَمَ بها من الليل والنَّهار، والشمس والقمر، والسماء والنُّجُوم، وغيرِها من المخلوقات، فهي دالَّةٌ - أظْهَرَ دلالةٍ - علىٰ وحدانيته، وقدرته، وحكمته، وكماله، وكلامه، وصِدْقِ رُسُله.

وقد جمع - سبحانه - بين الأمرين - أعني: القرآنَ، ونُطْقَ الإنسان - وجعل تعليمهما من تمام نعمته وامتنانه، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن:١-٤]، فبهذه الحروف علَّم القرآن، وبها علَّم البيان، وبها فضَّلَ الإنسانَ علىٰ سائر أنواع الحيوان، وبها أنزل كتبه، وبها أرسل رُسُله، وبها جُمِعَت العلوم وحُفِظَت، وبها انتَظَمَتْ مصالح العباد في المَعَاش والمَعَاد، وبها تَمَيَّزَ الحقُّ من الباطل، والصحيحُ من الفاسد.

فصل

ص: ٣٠٢

قسم الله تعالى بالقلم

ثُمَّ أقسَمَ -سبحانه- بـ«القلم وما يسطرون»، فأقسم بالكتاب وآلته وهو «القلم» الذي هو إحدىٰ آياته، وأوَّلُ مخلوقاته الذي جَرَىٰ به قَدَرُهُ وشَرْعُه، وكُتِبَ به الوحيُ، وقُيِّدَ به الدِّينُ، وأُثبِتَتْ به الشريعة، وحُفِظَتْ به العلوم، وقامت به مصالح العباد في المَعَاش والمَعَاد؛ فَوُطِّدَتْ به الممالك، وأُمِّنَتْ به السُّبُلُ والمسالك، وأقام في النَّاس أبلغَ خطيبٍ وأفصحَهُ، وأنفعَهُ لهم وأنصحَهُ، وواعظًا تشفي مواعظُه القلوب من السَّقَم، وطبيبًا يُبْرِيءُ - بإذْنِ بارئه - من أنواع الألَم.

وكما أنَّ «اللِّسَان» بريد «القلب» فـ«القَلَمُ» بريد «اللِّسَان»، وتولُّدُ الحروف المسموعة عن «اللِّسان» كتولُّدِ الحروف المكتوبة عن «القَلَمِ»، و«القَلَمُ» بريدُ «القلب»، ورسولُه، وترجمانُه، ولسانُه الصامت.

فصل

ص: ٣٠٣

مراتب الأقلام المختلفة

والأقلامُ متفاوِتةٌ في الرُّتَب، فأعلاها وأجلُّها قَدْرًا: قَلَمُ القَدَرِ السابِقِ؛ الذي كتب الله به مقادير الخلائق، كما في «سنن أبي داود» عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إنَّ أوَّلَ ما خلق اللهُ القَلَمَ، فقال له: اكتُبْ، قال: يا رَبِّ؛ وما أكتُبُ؟ قال: اكتُبْ مقادير كلِّ شيءٍ حتَّىٰ تقومَ الساعةُ»**[1].

واختلف العلماء: هل «القَلَمُ» أوَّلُ المخلوقات أو «العَرْشُ»؟ علىٰ قولين، ذكرهما الحافظ أبو العلاء الهَمَذَاني، أصحُّهما أنَّ «العرشَ» قبل «القلم»؛ لما ثبت في «الصحيح»[2] من حديث عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: **«قدَّرَ اللهُ مقادِيرَ الخَلَائِقِ قبلَ أن يخلُقَ السماواتِ والأرضَ بخمسينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وعَرْشُهُ علىٰ الماءِ»**. فهذا صريحٌ في أنَّ التقدير وقع بعد خَلْق «العَرْشِ»، والتقدير وقع عند أوَّلِ خَلْقِ القَلَمِ لحديث عبادة هذا.

ولا يخلو قوله: «إنَّ أوَّلَ ما خلَقَ اللهُ القَلَمَ»... إلىٰ آخره؛ إمَّا أن يكون جملةً أو جملتين:

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥)، وحسَّنه ابن المديني كما في «النكت الظراف» (٤/ ٢٦١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٣).

فإن كان جملةً - وهو الصحيحُ - كان معناه: أنَّه عندَ أوَّلِ خَلْقِهِ قال له: «اكتُبْ»، كما في اللفظ الآخَر: «أوَّلَ ما خلقَ اللهُ القَلَمَ قال له: اكتُبْ» بنَصْبِ «أوَّلَ»، و«القَلَمَ».

وإن كان جملتين - وهو مرويٌّ بِرَفْع «أَوَّلُ» و«القَلَمُ» - فيتعيَّنُ حَمْلُهُ علىٰ أنَّه أوَّلُ المخلوقاتِ من هذا العالم، لِيَتَّفِقَ الحديثان؛ إذ حديث عبد الله بن عمرو صريحٌ في أنَّ «العَرْشَ» سابقٌ علىٰ التقدير، والتقديرُ مقارِنٌ لخَلْقِ القَلَمِ، وفي اللفظ الآخر: «لمَّا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ قال له: اكتُبْ».

فهذا «القَلَمُ» أوَّلُ الأقلام، وأفضلُها، وأجلُّها. وقد قال غير واحدٍ من أهل التفسير إنَّه «القَلَمُ» الذي أقسَمَ الله - تعالىٰ - به.

القلم الثاني: قَلَمُ الوحي، وهو الذي يكتب به وحي الله ﷻ إلىٰ أنبيائه ورسله.

وقد رُفِعَ النبيُّ ﷺ ليلةَ أُسْرِيَ به إلىٰ مُسْتَوىً يَسْمَعُ فيه صَرِيفَ الأقلام[1]. فهذه الأقلامُ هي التي تكتُبُ ما يُوحيه الله - تبارك وتعالىٰ - من الأمور التي يُدَبِّرُ بها أمر العالَمِ العُلْويِّ والسُّفْلِيِّ.

والقلم الثالث: قَلَمُ التوقيع عن الله ورسوله، وهو قَلَمُ الفقهاء والمُفْتين.

وهذا «القَلَمُ» حاكمٌ غيرُ محكومٍ عليه، فإليه التحاكم في الدماء، والأموال، والفُرُوج، والحقوق.

القلم الرابع: قَلَمُ طِبِّ الأَبْدَانِ التي تُحفَظُ بها صحَّتُها الموجودة، وتُرَدُّ إليها به صحَّتُها المفقودة.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣).
و«صَرِيفُ الأقلام»: تصويتها حال الكتابة. «أعلام الحديث» (١/ ٣٤٨).

وهذا القَلَمُ أنفعُ الأقلام بعد قَلَم طِبِّ الأديان، وحاجة النَّاس إلىٰ أهله تلتحق بالضرورة.

القلم الخامس: قَلَمُ التوقيع عن الملوك ونُوَّابِهم، وبه تُسَاسُ الممالك.

القَلَمُ السادس: قَلَمُ الحساب، وهو «القَلَمُ» الذي تُضْبَطُ به الأموال، مُسْتَخْرَجُها، ومصرُوفُها، ومقادِيرُها.

القلم السابع: قَلَمُ الحكم الذي تثبت به الحقوق، وتُنَفَّذُ به القضايا، وتُرَاقُ به الدماء.

وبين هذا «القَلَم» وقَلَمِ التوقيع عن الله عمومٌ وخصوصٌ، فهذا له النُّفُوذُ واللُّزُومُ، وذاكَ له العمومُ والشمولُ.

القلم الثامن: قَلَمُ الشَّهَادة، وهو «القَلَمُ» الذي تُحْفَظُ به الحقوق، وتُصَانُ عن الإضَاعَةِ، وتَحُولُ بين الفاجر وإنكاره.

القلم التاسع: قَلَمُ التعبير، وهو كاتِبُ وَحْي المَنَامِ، وتفسيرِهِ، وتعبيرِهِ، وما أُرِيدَ به.

وهو يعتمد طهارةَ صاحبه ونزاهَتَهُ، وأمانَتَهُ، وتحرِّيه للصدق، مع علمٍ راسِخٍ، وصفاءِ باطِنٍ، ومعرفةٍ بأحوالِ الخَلْقِ، وهيئاتِهم، وسِيَرِهِم.

القلم العاشر: قَلَمُ تواريخِ العالَم ووقائعه. وهو «القَلَمُ» الذي تُضْبَطُ به الحوادِثُ، وتُنقَلُ من أمَّةٍ إلىٰ أُمَّةٍ، ومن قَرْنٍ إلىٰ قَرْنٍ.

القلم الحادي عشر: قَلَمُ اللُّغَة وتفاصيلها من شرح معاني ألفاظِها المُفْرَدَة، ونَحْوِها، وتَصْرِيفِها، وأسرارِ تراكيبِها.

القلم الثاني عشر: القلَمُ الجامع، وهو قَلَمُ الرَّدِّ علىٰ المُبْطِلِين، ورَفْعِ سُنَّةِ المُحِقِّين، وكشْفِ أباطيل المُبْطِلِين علىٰ اختلاف أنواعها وأجناسها، وبيانِ تناقُضِهم، وتهافُتِهم.



فهذه الأقلام التي بها انتظامُ مصالح العالم.

ويكفي في جلالة «القَلَم» أنَّه لم تُكتَبْ كُتُبُ اللهِ إلا به، وأنَّ الله - سبحانه - أقسَمَ به في كتابه، وتعَرَّفَ إلىٰ غيره بأنْ علَّمَ بالقَلَم، وإنَّما وصل إلينا ما بُعِثَ به نبيُّنا ﷺ بواسطة «القَلَم».

فصل

ص: ٣١٢

تنزيه الله تعالى لنبيه عن إفتراء الكفار

والمُقْسَمُ عليه بالقَلَم والكتابة في هذه السورة تنزيهُ نبيِّه ورسولِهِ ﷺ عمَّا يَقول فيه أعداؤه، وهو قوله تعالىٰ: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ [القلم:٢].

وأنتَ إذا طابَقْتَ بين هذا القَسَم والمُقْسَم به وجدتَه دالًّا عليه أظْهَرَ دلالةٍ وأَبْيَنَها، فإنَّ ما سطَّر الكاتِبُ بالقَلَمِ من أنواع العلوم التي يتلقَّاها البشر بعضهم عن بعضٍ لا تَصْدُرُ من مجنونٍ، ولا تصدر إلا ممَّن له عقْلٌ وافِرٌ، فكيف يصْدُرُ ما جاء به الرسولُ من هذا الكتاب الذي هو في أعلىٰ درجات العلوم! بل العلوم التي تضمَّنَها ليس في قُوَىٰ البَشَر الإتيانُ بها، فكيف يَتَأَتَّىٰ ذلك من مجنونٍ لا عقْلَ له يُمَيِّزُ به ما عسىٰ كثيرٌ من الحيوان أن يُمَيِّزَهُ، وهل هذا إلا من أقبح البهتان، وأظهر الإفك.

فتأمَّلْ شهادَةَ هذا المُقْسَم به للمُقْسَم به عليه، ودلالته عليه أتمَّ دلالة.

ثُمَّ أخبر - سبحانه - عن كمال حالتي نبيِّه ﷺ في دنياه وأُخْرَاه فقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ﴾ [القلم:٣]، أي: غير مقطوعٍ، بل هو دائمٌ مستمرٌّ.

ونكَّرَ الأجْرَ تنكير تعظيم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ﴾ [النور:٤٤]، و﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾ [البقرة:٢٤٨]، و﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ﴾ [الزمر:٢١]، و﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ [النبأ:٣١]، و ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ [ص:٢٥]، وهو

كثيرٌ، وإنَّما كان التنكير للتعظيم؛ لأنَّه صُوِّرَ للسامع بمنزلة أمرٍ عظيمٍ لا يدركه الوصف، ولا يناله التعبير.

ثُمَّ قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]، وهذه من أعظم آيات نُبُوَّتِهِ ورسالته، لمن مَنَحَهُ اللهُ فهمها. ولقد سُئِلَتْ أمُّ المؤمنين عن خُلُقه ﷺ، فأجابت بما شَفَىٰ وكَفَىٰ، فقالت: «كان خُلُقُه القرآنُ»[١]، فهَمَّ سائِلُها أن يقوم ولا يسألها شيئًا بعد ذلك.

وقال ابن عباس وغيرُه: «أي: علىٰ دينٍ عظيمٍ»[٢].

وسمَّىٰ «الدِّين» خُلُقًا؛ لأنَّ الخُلُق هيئةٌ مركَّبَةٌ من علومٍ صادقةٍ، وإراداتٍ زاكيةٍ، وأعمالٍ - ظاهرةٍ وباطنةٍ - موافقةٍ للعدل والحكمة والمصلحة، وأقوالٍ مطابقةٍ للحقِّ، تصدر تلك الأقوال والأعمال عن تلك العلوم والإرادات، فتكتسب النفسُ بها أخلاقًا هي أزكىٰ الأخلاقِ وأشرفها وأفضلها.

وإذا كانت أخلاقُ العباد، وعلومُهم، وإراداتُهم، وأعمالُهم مستفادةً من «القَلَمِ» وما يسطرون، وكان في خَلْقِ «القَلَم» والكتابة إنعامًا عليهم، وإحسانًا إليهم، إذ وَصَلُوا به إلىٰ ذلك، فكيف ينكرون إنعامه وإحسانه علىٰ عبده ورسوله الذي أعطاه أعلىٰ الأخلاقِ، وأفضلَ العلومِ، والأعمالِ، والإراداتِ، التي لا تهتدي العقول إلىٰ تفاصيلها من غير قلمٍ ولا كتابةٍ؟! فهل هذا إلا من أعظم آيات نبوَّته، وشواهدِ صِدْقِ رسالته؟! وسيعلم أعداؤه المكذِّبون له أَيُّهُم المفتون، هو أَمْ هم؟ وقد علموا - هُمْ والعُقَلاء - ذلك في الدنيا، ويزداد علمهم به في البَرْزخ، وينكشِفُ ويظهَرُ كلَّ الظهور في الآخرة، بحيث تتساوىٰ أقدام الخلائق في العلم به.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٤٦).

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٢/ ١٧٩).

ص: ٣٢١

فصل

قسم الله تعالى بمواقع النجوم

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾ [الواقعة:٧٥-٨٠].

ذكر - سبحانه - هذا القَسَمَ عقيب ذكر القيامة الكبرىٰ، وأقسام الخَلْقِ فيها، ثُم ذكر الأدلَّةَ القاطعةَ علىٰ قدرته علىٰ المَعَاد بالنَّشْأة الأولَىٰ، وإخراجِ النَّبَاتِ من الأرض، وإنزالِ الماء من السماء، وخَلْقِ النَّار. ثُمَّ ذكر بعد ذلك أحوال النَّاس في القيامة الصغرىٰ عند مفارقة «الرُّوح» للبدن.

وأقسَمَ بمواقع النُّجُوم علىٰ ثبوت القرآن، وأنَّه تنزيله.

وقد اختُلِفَ في النُّجُوم التي أقسَم بمواقعها:

فقيل: هي آيات القرآن، ومواقعها: نزولها شيئًا بعد شيء.

وقيل: النُّجُوم هي الكواكب، ومواقِعُها: مساقِطُها عند غروبها.

وقيل: مواقعها انْتِثَارُها وانْكِدَارُها يوم القيامة.

ومن حُجَّةِ هذا القول أنَّ لفظ «مواقع» يقتضيه، فإنَّه (مَفَاعِل) من الوقوع وهو السقوط، فَلِكُلِّ نجمٍ مَوْقعٌ، وجَمْعُها: مَوَاقع.

ومن حُجَّةِ قول من قال: هي مَسَاقِطُها عند الغروب؛ أنَّ الرَّبَّ - تعالىٰ - يُقْسِمُ بالنُّجُوم وطلوعها وجريانها وغروبها، إذ فيها وفي أحوالها الثلاث آيةٌ وعبرةٌ ودلالةٌ كما تقدم في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦﴾ [التكوير:١٥، ١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم:١]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج:٤٠].

ويرجِّحُ هذا القول - أيضًا - أنَّ النُّجُوم حيث وقعت في القرآن فالمراد منها: الكواكب، كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطور:٤٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ﴾ [الأعراف:٥٤].

وعلىٰ هذا فتكون المناسبة بين ذكر النُّجُومِ في القَسَم، وبين المُقْسَم عليه - وهو القرآن - من وجوه:

أحدها: أنَّ النُّجُوم جعلها الله يُهتَدَىٰ بها في ظلمات البرِّ والبحر، وآياتُ القرآن يُهتَدَىٰ بها في ظلمات الجهل والغيِّ. فتلك هدايةٌ في الظلمات الحِسِّيَّة، وآياتُ القرآن هدايةٌ في الظلمات المعنويَّة، فجَمَعَ بين الهدايتين.

مَعَ ما في النُّجُوم من الزينة الظاهرة للعالم، وفي إنزال القرآن من الزينة الباطنة.

ومَعَ ما في النُّجُوم من الرجوم للشياطين، وفي آيات القرآن من رجوم شياطين الإنس والجنِّ.

والنُّجُومُ آياته المشهودة العِيَانِيَّة، والقرآنُ آياتُهُ المَتْلُوَّةُ السمعيَّةُ. مَعَ ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة علىٰ آياته القرآنية ومواقعها عند النزول.

فصل

ص:٣٢٣

من بلاغة الاعتراض في القرآن الكريم

والمُقْسَم عليه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾، ووقع الاعتراض بين القسم وجوابه بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾، ووقع الاعتراض بين الصفة والموصوف في جملة هذا الاعتراض بقوله تعالى: ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾، فجاء هذا الاعتراض في ضمن هذا الاعتراض، ألْطَفَ شيءٍ وأحسَنَهُ موقعًا.

وأحسن ما يقع هذا الاعتراض إذا تضمَّنَ تأكيدًا أو تنبيهًا أو احترازًا، كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ

ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الأعراف:٤٢]، فاعترض بين المبتدأ والخبر بقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ لما تضمَّنَهُ ذلك من الاحتراز الرافع لِتَوهُّمِ مُتَوهِّمٍ: أنَّ الوعد إنَّما يستحقه من أتىٰ بجميع الصالحات، فرفع ذلك بقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾.

ومن أَلْطَفِ الاعتراضِ وأحسَنِهِ قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل:٥٧]، **فاعترض بقوله:** ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ **بين الجعْلَين.**

وفوائد الاعتراض تختلف بحسب قَصْدِ المتكلِّم، وسياق الكلام، من قَصْدِ الاعتناء، والتقرير، والتوكيد، وتعظيم المُقْسَم به، والمخبر عنه، ورفع تَوَهُّمِ خلاف المراد، والجواب عن سؤال مقدَّرٍ، وغير ذلك.

وتأملْ حُسْنَ الاعتراض وجزالته في قول الرَّبِّ تبارك وتعالىٰ: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ ۚ﴾ [النحل:١٠١]، فقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ اعتراضٌ بين الشرط وجوابه.

ومن الاعتراض الذي هو في أعلى درجات الحُسْن قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ [لقمان:١٤]، **فاعترض بذكر شأن حَمْلِهِ وَوَضْعِهِ بين الوصية والمُوصَى به، توكيدًا لأمر الوصية بالوالدة التي هذا شأنها، وتذكيرًا لولدها بحقِّها، وما قاسَتْهُ من حَمْلِهِ وَوَضْعِهِ ممَّا لم يتكلَّفْهُ الأَبُ.**

ولا تَسْتَطِلْ هذا الفَصْلَ وأمثالَهُ؛ فإنَّه يعطيك ميزانًا، وينهج لك طريقًا يعينك علىٰ فَهْمِ الكتاب، والله المستعان.

فصل

ص: ٣٢٨

وصف الله تعالى القرآن بأنه كريم

ثُمَّ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ [الواقعة:٧٧]، فوَصَفَه بما يقتضي حُسْنَهُ، وكَثرةَ خَيرِهِ ومنافِعِهِ، وجَلَالَتَهُ؛ فإنَّ «الكريم» هو: البَهِيُّ، الكثيرُ الخيرِ، العظيمُ النفعِ، وهو من كلِّ شيءٍ أحسنُهُ وأفضلُه.

والله - سبحانه - وصف نفسَهُ بـ«الكَرَم»، ووصف به كلامه، ووصف به عرشه، ووصف به ما كَثُرَ خيره، وحَسُنَ مَنْظَرُه من النَّبَات وغيره.

وكذلك فسَّرَ السلفُ «الكريم» بـ: الحَسَن.

وبالجملة فـ «الكريمُ» الذي مِنْ شَأْنِهِ أن يُعْطِي الخير الكثير بسهولةٍ ويُسْرٍ، وضده «اللئيم» الذي لا يُسْتَخرج خيرُهُ النَّزْرُ إلا بِعُسْرٍ وصعوبةٍ. وكذلك الكريم في النَّاس واللئيم.

فصل

ص: ٣٣٠

وصف الله تعالى القرآن بأنه في كتاب مكنون

ثُمَّ قال تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾ [الواقعة:٧٨]، اختلف المفسِّرون في هذا، فقيل: هو اللوح المحفوظ.

والصحيح أنَّه الكتاب الذي بأيدي الملائكة، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ١٦﴾ [عبس:١٣-١٦].

ويدلُّ علىٰ أنَّه الكتاب الذي بأيدي الملائكة قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾، فهذا يدلُّ علىٰ أنَّه بأيديهم يَمَسُّونَهُ. وهذا هو الصحيح في معنىٰ الآية.

ومن المفسِّرين من قال: إنَّ المراد به أنَّ المصحف لا يَمَسُّه إلا طاهرٌ.

والأوَّلُ أَرْجَحُ لوجوهٍ:

أحدها: أنَّ الآية سيقت تنزيهًا للقرآن أنْ تَنْزِلَ به الشياطين، وأنَّ مَحَلَّهُ لا يصل إليه فيمسَّهُ إلا المطهَّرون، فيستحيل علىٰ أَخَابِثِ خلق الله – وأنجسهم أن يصلوا إليه أو يَمَسُّوه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١].

وتقرير هذا المعنىٰ أهمُّ وأجلُّ وأنفعُ من بيان كون المصحف لا يمسُّه إلا طاهرٌ.

الوجه الثاني: أنَّ السورةَ مكِّيَّةٌ، والاعتناء في السُّوَرِ المكيَّةِ إنَّما هو بأصول الدِّين، من تقرير التوحيد، والمَعَاد، والنُّبوَّة. وأمَّا تقرير الأحكام والشرائع فمظِنَّتُهُ السُّوَرُ المدنيَّةُ.

الثالث: أنَّ القرآنَ لم يكن في مُصْحَفٍ عند نزول هذه الآية، ولا في حياة رسول الله ﷺ، وإنَّما جُمِعَ في المصحف في خلافة أبي بكر.

وهذا وإنْ جازَ أن يكون باعتبار ما يأتي؛ فالظاهر أنَّه إخبارٌ بالواقع حال الإخبار، يوضِّحُهُ:

الوجه الرابع: وهو قوله: ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾، و«المَكْنُون»: المَصُون المَسْتُور عن الأعين الذي لا تناله أيدي البَشَر، كما قال تعالىٰ: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٩]، وهكذا قال السلف.

الوجه الخامس: قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ بالرَّفْع، فهذا خبرٌ لفظًا ومعنىً، ولو كان نهيًا لكان مفتوحًا.

الوجه السادس: أنَّه قال: ﴿إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ ولم يقل: إلا المتطهِّرون.

الوجه السابع: ما رواه سعيد بن منصور في «سننه»: عن أنس بن مالك في قوله

تعالىٰ: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ قال: «المطهَّرون: الملائكة»(١).

وهذا - عند طائفةٍ من أهل الحديث - في حكم المرفوع. قال الحاكم: «تفسير الصحابة - عندنا - في حكم المرفوع»(٢)، ومن لم يجعله مرفوعًا فلا ريب أنَّه عنده أصحُّ من تفسير مَنْ بَعد الصحابة، والصحابةُ أعلم الأُمَّة بتفسير القرآن، ويجب الرجوع إلىٰ تفسيرهم.

وسمعتُ شيخ الإسلام يقرِّرُ الاستدلالَ بالآية على أنَّ المصحف لا يمسُّه المُحْدِثُ بوجهٍ آخر، فقال: هذا من باب التنبيه والإشارة، وإذا كانت الصحف التي في السماء لا يمسُّها إلا المطهَّرون، فكذلك الصحف التي بأيدينا من القرآن لا ينبغي أن يمسَّها إلا طاهِرٌ، والحديث مشتَقٌّ من هذه الآية، وهو قوله: «لا تَمسَّ القرآنَ إلا وأنتَ طاهِرٌ» رواه أهل «السنن» من حديث: عمرو بن حزم: أنَّ في الكتاب الذي كتبه النبيُّ ﷺ إلىٰ أهل اليمن في السُّنَنِ، والفرائضِ، والدِّيَاتِ: **«أن لا يمسَّ القرآن إلا طاهر»**(٣).

فصل

ص: ٣٤٠

لا يدرك معاني القرآن إلا طاهر الباطن والظاهر

ودلَّت الآية - بإشارتها وإيمائها - على أنَّه لا يُدْرِك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة، وحرامٌ على القلب المتلوِّث بنجاسة الباع والمخالفات أن ينال معانيه، وأن يفهمه كما ينبغي.

---

(١) إسناده صحيح. وأخرجه حرب الكرماني في «مسائله» (٣٤٦).

(٢) انظر: «معرفة علوم الحديث» (١٤٩).

(٣) أخرجه النسائي (٨/ ٥٧ - ٥٩)، وصححه ابن حبَّان (٦٥٥٩).

قال البخاري في «صحيحه»[1] في هذه الآية: «لا يجد طعمه إلا مَنْ آمَنَ به».

وهذا - أيضًا - من إشارة الآية وتنبيهها، وهو أنَّه لا يَلْتَذُّ به وبقراءته وفهمه وتدبُّرِه إلا مَنْ شَهِدَ أنَّه كلام الله، تكلم به حقًّا، وأنزله علىٰ رسوله وحيًا، ولا ينال معانيه إلا من لم يكن في قلبه حَرَجٌ منه بوجهٍ من الوجوه.

ص:٣٤٢

فصل

وصف الله تعالى القرآن بأنه منزل

ثُمَّ أكَّدَ ذلك وقرَّرَهُ وأطَّدَهُ بقوله ﷻ: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة:٨٠]، وهذا كما أنَّه لازِمٌ لكونه قرآنًا كريمًا في كتابٍ مكنونٍ؛ فهو ملْزُومٌ له. فهو دليلٌ عليه، ومدلولٌ له.

وأفاد كونه تنزيلًا من ربِّ العالمين مطلوبَين عظيمَين هما أَجَلُّ مَطَالب الدِّين:

أحدهما: أنَّه المتكلِّم به، وأنَّه منه نَزَل، ومنه بَدَأ، وهو الذي تكلَّم به. ومن هنا قال السلف: «منه بدأ».

ونظيره قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ [السجدة:١٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل:١٠٢].

والثاني: عُلُوُّ اللهِ - سبحانه - فوق خَلْقه، فإنَّ «النُّزُول» و«التنزيل» - الذي تعقله العقول وتعرفه الفِطَر - هو وصول الشيء من أَعْلَىٰ إلىٰ أسفل، والرَّبُّ - تعالىٰ - إنَّما يخاطب عباده بما تعرفه فِطَرُهم، وتشهد به عقولهم.

وذَكَر «التنزيل» مضافًا إلىٰ ربوبيته للعالَمين المستلزِمة لملكه لهم، وتَصَرُّفِهِ فيهم، وحكمِهِ عليهم، وإحسانِهِ وإنعامِهِ عليهم، وأنَّ مَنْ هذا شَأْنُهُ مع الخَلْق كيف

(١) كتاب التوحيد، باب: «قل فأتوا بالتوراة فاتلوها». «الفتح» (١٣/ ٥١٧).

يليق به مع ربوبيته التامَّةِ أن يتركَهم سدىً، ويَدَعَهُم هَمَلًا، ويخلقَهم عبثًا، لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يثيبهم ولا يعاقبهم. فمن أقرَّ بأنَّه ربُّ العالَمين؛ أقرَّ بأنَّ القرآن تنزيله علىٰ رسوله.

واستَدَلَّ بكونه ربَّ العالَمين على ثبوتِ رسالة رسوله ﷺ، وصحة ما جاء به. وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق، وإن كانت دلالتها أقرب إلى أذهان عموم النَّاس، وتلك إنَّما تكون لخواصِّ العقلاء.

وقد أشار - سبحانه - إلى الطريقين في غير موضع من كتابه، كقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣]، **فهذا استدلالٌ بالآيات المُعَايَنة المخلوقة، ثُمَّ قال:** ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾**، فهذا استدلالٌ بكمال ربوبيته، وكمال أوصافه؛ على صدق رسوله فيما جاء به.**

وهذه الطريق أخصُّ، وأقوىٰ، وأكمل، وأَعْلَىٰ. والأُولَىٰ أعمُّ وأشمل، وقد تقدَّم بيانها عند قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ [الحاقة:٤٤].

وأين الاستدلال بأوصاف الرَّبِّ - تعالىٰ - وكماله المقدَّس علىٰ ثبوت النَّبِيِّ وبعثه، من الاستدلال عليه ببعض مخلوقاته؟

وتأمَّلْ استدلال سيدة نساء العالَمين خديجة رضي الله عنها بصفات الرَّبِّ تعالى، وصفات محمد ﷺ، واستنتاجها من بين هذين الأمرين صحة نبوَّته، وأنَّه رسول الله حقًّا، وأنَّ من كانت هذه صفاته فصفات ربِّهِ وخالقه تَأْبَى أن يُخْزِيَهُ، وأنَّه لا بُدَّ أن يؤيِّدَه، ويُعْلِيَهُ، ويُتِمَّ نعمته عليه[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

ص: ٣٤٦

فصل

المداهنة ليست من أخلاق المؤمنين

ثُمَّ وبَّخَهُم - سبحانه - علىٰ وَضْعِهِم الإدْهَانَ[1] في غير موضعه، وأنَّهم يُدَاهِنُون بما حَقُّه أن يُصْدَعَ به، والمُدَاهَنة إنَّما تكون في باطِلٍ قَوِيٍّ لا يمكن إزالته، أو في حَقٍّ ضعيفٍ لا يمكن إقامته، فيحتاج المداهِنُ إلىٰ أنْ يترك بعض الحقِّ، ويلتزم بعض الباطل، فأمَّا الحقُّ الذي قام به كلُّ حَقٍّ فكيف يُدَاهن به؟

ثُمَّ قال سبحانه: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة:٨٢]، لمَّا كانَ قِوَام كلِّ واحدٍ من البدن والقلب إنَّما هو بالرِّزْق - فَرِزْقُ البدنِ: الطعامُ، والشرابُ. ورزْقُ القلب: الإيمانُ، والمعرفةُ بربِّه وفاطره، ومحبتُه، والشوقُ إليه، والأُنْسُ بقُرْبه، والابتهاجُ بذكره -، وكان لا حياة له إلا بذلك، كما أنَّ البدن لا حياة له إلا بالطعام والشراب = أَنْعَم الله - علىٰ عباده بهذين النَّوعَين من الرِّزْق، وجعل قيام أبدانهم وقلوبهم بهما.

وهذا الرِّزْق إنَّما يَتِمُّ ويَكْمُلُ بالشُّكْر. و«الشُّكْر» مادَّةُ زيادته، وسبب حفظه وبقائه، وترك الشُّكْر سبب زواله وانقطاعه عن العبد، فإنَّ الله - تعالىٰ - تأذَّنَ أنَّه لا بُدَّ أن يزيد الشَّكُور من نعمه، ولا بُدَّ أنْ يَسْلُبَها مَنْ لم يشكرها.

فلمَّا وضعوا الكفر والتكذيبَ موضع الشُّكْرِ والإيمان؛ جعلوا رزقَهم - نَفْسَهُ - تكذيبًا، فإنَّ التصديقَ والشُّكْرَ لمَّا كانا سبب زيادة الرِّزْق - وهما رِزْقُ القلب حقيقةً -، فهؤلاء جعلوا مكانَ هذا الرِّزْق التكذيبَ والكفْرَ، فجعلوا رزقَهم التكذيب.

وهذا المعنىٰ هو الذي حَامَ حوله من قال: التقدير: وتجعلون شُكْرَ رزقكم أنكم تكذِّبون.

---

(١) «الإدْهَان»: المُدَارَاةُ، والمُلايَنَةُ، وتركُ الجِدِّ. «مفردات الراغب» (٣٢٠).

ومن بعض معنىٰ الآية قولهم: «مُطِرْنَا بِنَوْءِ كذا وكذا»[1]، فهذا يصلح أن تدلَّ عليه الآية ويراد بها، وإلا فمعناها أوسعُ منه وأعمُّ وأعلىٰ. والله أعلم.

فصل

ص: ٣٤٩

أحوال الناس في القيامة الصغرى

ثُمَّ خَتَم السورةَ بأحوالهم عند القيامة الصغرىٰ، كما ذكر في أوَّلها أحوالَهم في القيامة الكبرىٰ، وقسَّمَهم إلىٰ ثلاثة أقسامٍ كما قسَّمهم هناك إلىٰ ثلاثة أقسام.

وذكر بين يدي هذا التقسيم الاستدلال علىٰ صحته وثبوته، بأنَّهم مَرْبُوبُون مُدَبَّرُون مملُوكُون، فوقهم ربٌّ قاهِرٌ مالِكٌ يتصرَّف فيهم بحسب مشيئته وإرادته، وقرَّرهم علىٰ ذلك بما لا سبيل لهم إلىٰ دفعه ولا إنكاره فقال تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة:٨٣]، أي: وصلت «الرُّوح» إلىٰ هذا الموضع، بحيث فارَقَتْ ولم تُفَارِق، فهي في برزخٍ بين الموت والحياة، كما أنَّها إذا فارَقَتْ صارت في برزخٍ بين الدنيا والآخرة، وملائكةُ الرَّبِّ - تبارك وتعالىٰ - أقربُ إلىٰ المُحْتَضَرِ من حاضريه من الإنس، ولكنَّهم لا يبصرونهم، فلولا تردُّونها إلىٰ مكانها من البدن أيُّها الحاضرون، إنْ كان الأمر كما تزعمون أنكم غيرُ مَجْزِيِّين ولا مَدِينين، ولا مبعوثين ليوم الحساب.

وللهِ ما أحسن جَزَالةَ هذه الألفاظ وفصاحَتَها، وبلوغَها أقصىٰ مراتب البلاغة والفصاحة، مع الاختصار التامِّ، وندائها إلىٰ معناها من أقرب مكان، واشتمالها علىٰ التوبيخ والتقرير والإلزام، ودلائلِ الربوبية، والتوحيد، والبعث.

فتضمَّنت الآيتان تقريرًا، وتوبيخًا، واستدلالًا علىٰ أصول الإيمان: من وجودِ

---

(١) أخرج مسلم (٧٣).

الخالق - سبحانه - وكمالِ قدرته، ونُفُوذِ مشيئته، وربوبيته، وإثباتِ المَعَاد، وصدقِ رسوله فيما أخبر به عنه، وإثباتِ ملائكته، وتقريرِ عبودية الخلق.

وأتىٰ بهذا في صورة تَحْضِيضَين، وتَوْبِيخَين، وتَقْرِيرَين، وجَوَابَين، وشَرْطَين، وجَزَاءَين، منتظِمَةً أحسن الانتظام، ومتداخلةً أحسن التداخل، متعلِّقًا بعضُها ببعض. وهذا كلامٌ لا يقدر البشر علىٰ مثل نظمه ومعناه.

قال الفرَّاء: «وأُجِيبَتْ ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ﴾ و ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ بجوابٍ وَاحِدٍ وهو: ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾»، قال: «ومثله قوله تعالىٰ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٣٨] أُجيبا بجوابٍ واحدٍ، وهما شرطان»[١].

ص: ٣٥٤

فصل

طبقات الناس عند الحشر

فلمَّا قام الدليل، ووضح السبيل، وتَمَّ البرهان علىٰ أنَّهم مملوكُون، مَرْبُوبُون، مجزيُّون، محاسبون = ذكر طبقاتهم عند الحشر الأوَّل، والقيامة الصغرىٰ. وهي ثلاثةٌ:

١ - طبقةُ المُقَرَّبين.

٢ - وطبقةُ أصحاب اليمين.

٣ - وطبقةُ المكذِّبين.

فجعل تحيَّة المقرَّبين عند الموافاة: الرَّوْحَ، والريحانَ، والجنَّةَ. وهذه الكرامات الثلاث التي يُعْطَونها بعد الموت نظير الثلاثة التي يُعْطَونَها يوم القيامة.

فـ«الرَّوْحُ»: الفَرَحُ، والسرورُ، والابتهاجُ، ولذَّة الرُّوحِ، فهي كلمةٌ جامعةٌ لنعيم

(١) «معاني القرآن» للفرَّاء (٣/ ١٣٠).

«الرُّوحِ» ولذَّتِها، وذلك قُوَّتُها وغذاؤها.

و«الرَّيْحَانُ»: الرِّزْقُ، وهو الأكلُ والشرب.

و«الجنَّةُ»: المَسْكَنُ الجامعُ لذلك كلِّه.

فَيُعطَون هذه الثلاثةَ في البرزخ، وفي المَعَاد الثاني.

ثُمَّ ذكر **الطبقة الثانية**، وهي طبقة أصحاب اليمين. ولمَّا كانوا دون المقرَّبين في المرتبة جعلَ تحيَّتَهم عند القُدُوم عليه السلامةَ من الآفات والشرور التي تحصل للمكذِّبين الضَّالِّين فقال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩١﴾ [الواقعة:٩٠، ٩١].

قال مقاتل: «يُسَلِّمُ اللهُ لهم أمرَهم، بِتَجَاوزِه عن سيئاتهم، وتقَبُّلِهِ حسناتهم»[(١)].

وقال الكلبي: «يُسَلِّمُ عَليه أهلُ الجنَّة، ويقولون: السلامةُ لَكَ».

وعلىٰ هذا فقوله: ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾، أي: هذه التحيَّة حاصلةٌ لك من إخوانك أصحاب اليمين، فإنَّه إذا قَدِمَ عليهم حَيَّوْهُ بهذه التحيَّة، وقالوا: السلامةُ لك.

وفي الآية أقوالٌ أُخَر، فيها تكلُّفٌ وتعسُّفٌ، فلا حاجة إلىٰ ذكرها.

ثُمَّ ذكر **الطبقة الثالثة**، وهي طبقةُ الضَّالِّ في نفسه، المكذِّبِ لأهل الحقِّ، وإنَّ له عند الموافاة نُزُل الحميم، وسُكْنَىٰ الجحيم.

ثُمَّ أكَّدَ هذا الخبر بما جعله كأنَّه رأي العين لمن آمن بالله ورسوله فقال ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ [الواقعة:٩٥]، فرفَعَ شَأْنَهُ عن درجة الظَّنِّ إلىٰ العلم، وعن درجة العلم إلىٰ اليقين، وعن درجة اليقين إلىٰ حَقِّهِ.

ثُمَّ أمره أن يُنَزِّهَ اسمَهُ - تبارك وتعالىٰ - عمَّا لا يليق به، وتنزيه الاسم متضمِّنٌ لتنزيه المُسَمَّىٰ عمَّا يقوله الكاذبون والجاحدون.

---

(١) «تفسيره» (٣/ ٣١٩).

ص: ٣٥٧

فصل

قسم الله تعالى بالنجم

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣﴾ [النجم:١-٣].

أقسَمَ - سبحانه - بالنَّجْم عند هُوِيِّهِ علىٰ تنزيه رسوله، وبراءته ممَّا نسبه إليه أعداؤه من الضلالِ والغَيِّ.

واختلف النَّاس في المراد بـ«النَّجْم»:

فقال الكلبي، عن ابن عباس: «أقسَمَ بالقرآن إذا نزل مُنَجَّمًا علىٰ رسوله: أربع آياتٍ، وثلاث آياتٍ، والسورة، وكان بين أوَّله وآخره عشرون سنة».

وعلىٰ هذا فَسُمِّيَ القرآنُ «نَجْمًا»؛ لتفرُّقِهِ في النزول، والعرب تُسمِّي التفرُّقَ: تَنَجُّمًا، والمفرَّقَ: مُنَجَّمًا. ونُجُوم الكتابَةِ: أَقْسَاطُها، وتقول: جعلتُ مالي علىٰ فلانٍ نجومًا منجَّمَةً كلَّ نجمٍ كذا وكذا.

وأصل هذا أنَّ العرب كانت تجعل مطالعَ منازل القمر ومساقطَها مواقيتَ لِحُلُول دُيُونها وآجالها، فيقولون: إذا طلع النَّجمُ - يريدون «الثُّرَيَّا» - حَلَّ عليك الدَّينُ.

وقوله تعالىٰ: ﴿هَوَىٰ﴾ - علىٰ هذا القول - أي: نَزَلَ من عُلُوٍّ إلىٰ سُفْلٍ.

عُدْنَا إلىٰ قوله: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾:

وقال ابن عباس - في رواية علي بن أبي طلحة، وعطية -: «يعني: «الثُّرَيَّا» إذا سقَطَتْ وغَابَتْ». وهو الرواية الأخرىٰ عن مجاهد[1].

والعرب إذا أطلقت «النَّجْم» تعني به: «الثُرَيَّا».

---

(١) انظر: «معالم التنزيل» (٧/ ٣٩٩).

وقال أبو حمزة الثُّمَالي: «يعني: النُّجُوم إذا انْتَثَرَتْ يوم القيامة»[(١)].

وقال ابن عباس - في رواية عكرمة -: «يعني: النُّجُوم التي تُرْمَىٰ بها الشياطينُ إذا سقطت في آثارها عند استراق السمع».

وهذا قول الحسن[(٢)]، وهو أظهر الأقوال.

ويكون - سبحانه - قد أقسَمَ بهذه الآية الظاهرة المشاهَدَة، التي نَصَبَها الله - سبحانه - آيةً، وحِفْظًا للوحي من استراق الشياطين له؛ علىٰ أنَّ ما أتىٰ به رسولُه حقٌّ وصِدْقٌ، لا سبيل للشيطان ولا طريقَ له إليه، بل قد حُرِسَ بـ«النَّجْم» إذا هَوَىٰ؛ رَصْدًا بين يدي الوحي، وحرسًا له.

وعلىٰ هذا فالارتباط بين المُقْسَمِ به والمُقْسَمِ عليه في غاية الظهور، وفي المُقْسَمِ به دليلٌ علىٰ المُقْسَمِ عليه.

وليس بالبَيِّن تسمية القرآن عند نزوله بـ: النَّجْم إذا هَوَىٰ، ولا تسمية نزوله: هويًّا، ولا عُهِد في القرآن بذلك فيُحْمَل هذا اللفظ عليه.

وليس بالبَيِّن - أيضًا - تخصيصُ هذا القَسَم بـ«الثُّرَيَّا» وحدها إذا غَابَتْ.

وليس بالبَيِّنِ - أيضًا - القَسَمُ بالنُّجُوم عند انتثارها يوم القيامة، بل هذا ممَّا يُقْسِمُ الرَّبُّ عليه، ويدلُّ عليه بآياته، فلا يجعله نفسَهُ دليلًا، لعدم ظهوره للمخاطَبِين، ولاسيما منكرو البعث، فإنَّه - سبحانه - إنَّما يستدِلُّ بما لا يمكنَ جَحْدُه، ولا المكابرة فيه. فأظهر الأقوال قول الحسن. والله أعلم.

وبين المُقْسَم به والمُقْسَم عليه من التناسب ما لا يخفىٰ؛ فإنَّ النُّجُومَ التي تُرمَىٰ

---

(١) انظر: «معالم التنزيل» (٧/ ٤٠٠).

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (١٤/ ٨١).

بها الشياطين آياتٌ من آياتِ الله، يَحْفَظُ بها دينَهُ، ووحيَهُ، وآياته المنزَّلة علىٰ رسوله، فَبِها ظهر دينُهُ، وشرعُهُ، وأسماؤُهُ، وصفاتُهُ، وجُعِلَتْ هذه النُّجُومُ المشاهَدة خَدَمًا وحرسًا لهذه النُّجُوم الهادية.

ونَفَىٰ - سبحانه - عن رسوله الضلالَ المنافي للهُدَىٰ، والغَيَّ المنافي للرَّشَاد. ففي ضمن هذا النَّفْي الشهادة له بأنَّه علىٰ الهُدَىٰ والرُّشْد، فالهُدَىٰ في عِلْمِهِ، والرُّشْد في عَمَلِهِ.

وهذان الأصلان هما غاية كمال العبد، وبهما سعادته وفلاحه. وبهما وَصَفَ النبيُّ ﷺ خلفاءَهُ؛ فقال: «**عليكم بِسُنَّتي وسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدين المَهْدِيِّين مِنْ بعدي**»[1].

فالرَّاشِد ضِدُّ الغاوي، والمَهْديُّ ضِدُّ الضَّالِّ، وهو الذي زَكَتْ نَفْسُهُ بالعلم النَّافع والعمل الصالح، وهو صاحب الهُدَىٰ ودينِ الحقِّ.

وتأمَّلْ كيف قال سبحانه: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾، ولم يقل: ما ضَلَّ محمدٌ؛ تأكيدًا لإقامة الحُجَّة عليهم، بأنَّه صاحبهم، وهم أعلم الخلق به وبحاله، وأقواله، وأعماله، وأنَّهم لا يعرفونه بكذبٍ، ولا غَيٍّ، ولا ضلالٍ، ولا يَنْقِمُون عليه أمرًا واحدًا قَطُّ. وقد نبَّهَ علىٰ هذا المعنىٰ بقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ﴾ [المؤمنون:٦٩]، وبقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير:٢٢].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وصححه الترمذي وابن حِبَّان (٥).

ص: ٣٦٦

فصل

تنزيه الله تعالى لنبيه عن قول الباطل

ثُمَّ قال سبحانه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم:٣، ٤]، يُنَزِّهُ -تعالىٰ- نُطْقَ رسولِهِ أن يَصْدُرَ عن هَوًىٰ، وبهذا الكمال هُدَاهُ ورُشْدُهُ.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾، ولم يقل: وما ينطق بالهَوَىٰ؛ لأنَّ نَفْيَ نُطْقِهِ عن الهَوَىٰ أبلغ، فإنَّهُ يتضمَّنُ أنَّ نُطْقَهُ لا يصدر عن هَوًىٰ، وإذا لم يَصْدُر عن هَوًىٰ فكيف ينطق به؟ فتضمَّنَ نَفْيَ الأمرين: نَفْيَ الهَوَىٰ عن مصدر النُّطْق، ونَفْيَهُ عن النُّطْقِ نَفْسِهِ. فَنُطْقُه بالحقِّ، ومصدَرُهُ الهُدَىٰ والرَّشَاد، لا الغَيُّ والضلالُ.

ثُمَّ قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾؛ فأعاد الضمير علىٰ المصدر المفهوم من الفعل، أي: ما نُطْقُهُ إلا وَحْيٌ يُوحَىٰ.

وهذا أحسنُ من قول من جعل الضمير عائدًا إلىٰ القرآن، فإنَّهُ يَعُمُّ نُطْقَهُ بالقرآن والسُّنَّةِ، وإنَّ كليهما وحيٌ يُوحَىٰ.

وقد احتجَّ الشافعيُّ لذلك فقال[1]: «لعلَّ من حُجَّةِ من قال بهذا قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء:١١٣]». قال: «ولعلَّ من حُجَّته أن يقول: قال رسول الله ﷺ لأبي الزَّاني بامرأةِ الرجلِ الذي صالَحَهُ علىٰ الغنم والخادم: «**والذي نفسي بيده لأَقْضِيَنَّ بينكما بكتاب الله: الغنمُ والخَادِمُ رَدٌّ عليك...**»[2] الحديث.

وقد صحَّ عنه أنَّه قال: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الكتابَ ومثلَهُ مَعَهُ»[3]، وهذا هو «السُّنَّةُ» بلا شك، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء:١١٣]؛ وهما القرآن والسُّنَّة. وبالله التوفيق.

---

(١) «كتاب الأم» (٦/ ٣٢٩ - ٣٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩٥)، ومسلم (١٦٩٧).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٠٤)، وصححه ابن حِبَّان (١٢).

ص: ٣٧١

فصل

وصف الله تعالى لجبريل بالشدة والقوة

ثُمَّ أخبر - تعالىٰ - عن وَصْفِ من علَّمَهُ الوحيَ والقرآنَ، بما يُعْلَم أنَّه مضادٌّ لأوصاف الشيطان مُعَلِّم الضَّلَال والغواية، فقال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾، وهذا نظير قوله تعالىٰ: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ [التكوير:٢٠]، وذكرنا هناك السِّرَّ في وصفه بالقوَّةِ(١).

وقوله تعالىٰ: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي: جميلُ المَنْظَر، حَسَنُ الصورة، ذو جلالةٍ، ليس شيطانًا - أقبَحَ خلق الله، وأشوهَهم صورةً - بل هو من أجمل الخلق، وأقواهم، وأعظمِهم أمانةً ومكانةً عند الله ﷻ.

وهذا تعديلٌ لِسَنَدِ الوحي والنُّبوَّة، وتزكيةٌ له كما تقدَّمَ نظيرُهُ في «سورة التكوير»(٢).

فوَصَفَهُ بالعلم، والقوَّةِ، وجمالِ المَنْظَرِ، وجلالته. وهذه كانت أوصاف الرسول البَشَرِيِّ والمَلَكِيِّ؛ فكان رسولُ الله ﷺ أشجعَ النَّاس، وأعلمَهم، وأجمَلهم، وأَجَلَّهم.

والشياطين وتلامذتهم بالضِّدِّ من ذلك كلِّه، فهم أقبح الخلق صورةً ومعنىً، وأجهلُ الخَلْق وأضعفُهم هِمَمًا ونفوسًا.

ثُمَّ ذكر استواءَ هذا المعلِّم بالأُفُق الأَعْلَىٰ، ودُنُوَّهُ، وتَدَلِّيَهُ، وقُرْبَهُ من رسول الله ﷺ، وإيحاءَهُ إليه ما أَوْحَىٰ.

وأخبر - سبحانه - عن مسافة هذا القُرْب، بأنَّه قَدْرُ قوسين أو أدنىٰ من ذلك، وليس هذا علىٰ وجه الشَّكِّ، بل تحقيقٌ لِقَدْرِ المسافة، وأنَّها لا تزيد علىٰ قوسين أَلْبَتَّةَ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات:١٤٧] تحقيقًا

(١) ينظر: (ص:٨٧).

(٢) ينظر: (ص:٨٦).

لهذا العدد، وأنَّهم لا ينقصون عن مائةِ ألفِ رَجُلًا واحدًا. ونظيره قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة:٧٤]؛ أي: لا تنقصُ قَسْوَتُها عن قسوة الحجارة، بل إنْ لم تَزِدْ علىٰ قسوة الحجارة لم تكن دونها.

وهذا المعنىٰ أحسنُ وألطفُ وأدق مِنْ قول من جعل «أو» في هذه المواضع بمعنىٰ «بل»، ومِنْ قول من جعلها للشكِّ بالنسبة إلىٰ الرائي، وقول من جعلها بمعنىٰ «الواو»، فتأمَّلْهُ.

فصل

ص: ٣٧٣

وصف الله تعالى لنبيه بتصديق ما رآه في المعراج

ثُمَّ أخبر - تعالىٰ - عن تصديق فؤادِهِ لِمَا رأَتْهُ عيناهُ، وأنَّ القلبَ صَدَّقَ العينَ، وليس كمن رأىٰ شيئًا علىٰ خلاف ما هو به، فكذَّبَ فُؤَادُهُ بَصَرَهُ، بل ما رآه بِبَصَرِهِ صدَّقَهُ الفؤادُ، وعَلِمَ أنَّه كذلك.

وفيها قراءتان:

إحداهما: بتخفيف «كَذَبَ».

والثانية: بتشديدها.

و«ما»:

إمَّا أن تكون مصدريَّة؛ فيكون المعنىٰ: ما كَذَبَ فؤادُهُ رؤيتَهُ.

وإمَّا أن تكون موصولة؛ فيكون المعنىٰ: ما كَذَّبَ الفؤادُ الذي رآه بعينه.

وعلىٰ التقديرين؛ فهو إخبارٌ عن تطابقِ رؤية القلب لرؤية البصر وتوافُقِهما، وتصديقِ كلٍّ منهما لصاحبه.

ثُمَّ أنكر - سبحانه - عليهم مُكَابَرَتَهُم وجَحْدَهُم له علىٰ ما رآه، كما يُنْكَرُ علىٰ الجاهل مُكَابَرَتُهُ للعالِم، ومُمَاراتُهُ له علىٰ ما عَلِمَهُ.

وفيها قراءتان: «أَفَتُمَارُونَهُ»، و«أَفَتَمْرُونَهُ».

وهذه المادَّةُ أصلها من: الجَحْدِ والدَّفْعِ، تقول: مَرَيْتُ الرجلَ حقَّه؛ إذا جَحَدْتَهُ.

ومنه: المُمَارَاةُ، وهي: المُجَادَلَة، والمُكَابَرة. ولهذا عُدِّيَ هذا الفعلُ بـ«علىٰ» وهي علىٰ بابها. وليست بمعنىٰ «عن» كما قاله المُبرِّد[1]، بل الفعل متضمِّنٌ معنىٰ المكابرة، وهذا في قراءة الألف أظهر.

قال أبو عليٍّ: «من قرأ «أَفَتُمَارُونَه» فمعناه: أفتجادلونه جِدالًا تَرُومُون به دفعه عمَّا عَلِمَهُ وشاهَدَهُ؟ ويُقَوِّي هذا الوجه قوله تعالىٰ: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال:٦]. ومن قرأ «أَفَتَمْرُونَهُ» كان المعنىٰ: أَفَتَجْحَدُونه؟». قال: «والمُجَادَلة كأنَّها أشبه في هذا؛ لأنَّ الجُحُود كان منهم في هذا وفي غيره، وقد جادله المشركون في الإسراء»[2].

قلتُ: القومُ جمعوا بين الجدالِ، والدَّفْعِ، والإنكارِ. فكان جدالُهم جدالَ جحودٍ ودفعٍ؛ لا جدالَ استرشادٍ وتَبَيُّنٍ للحقِّ.

وإثبات «الأَلِف» يدلُّ علىٰ المُجَادَلة، والإتيان بـ«علىٰ» يدلُّ علىٰ المُكَابَرة؛ فكانت قراءة «الألف» منتظِمةً للمعنيين جميعًا، فهي أَوْلَىٰ. وبالله التوفيق.

فصل

ص: ٣٧٧

رؤية النبي لجبريل عليهما السلام

ثمَّ أخبر - سبحانه - عن رؤيته لجبريل مرَّةً أخرىٰ، عند سِدْرَة المُنْتَهىٰ؛ **فالمرَّةُ الأولَى** كانت دون السماء بالأُفُقِ الأَعْلَىٰ، **والثانية** كانت فوق السماء عند سدرة المُنْتَهىٰ.

(١) انظر: «الكامل» (٢/ ٧٢١).

(٢) «الحُجَّة للقُرَّاء السبعة» لأبي علي الفارسي (٦/ ٢٣٠).

وقد صحَّ عنه ﷺ أنَّه - يعني جبريل عليه الصلاة والسلام - رآهُ علىٰ صورته التي خُلِقَ عليها مرَّتين، كما في «الصحيحين» عن زِرِّ بن حُبَيش أنَّه سئل عن قوله تعالىٰ: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ قال: أخبرني ابن مسعود أنَّ النبيَّ ﷺ رأىٰ جبريل له ستمائة جناح[١].

وفي «الصحيحين» - أيضًا - عن عبد الله بن مسعود ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ قال: «رأىٰ جبريل في صورته؛ له ستمائة جناح»[٢].

وقال البخاريُّ عنه: «رأىٰ رَفْرَفًا أخضر، سَدَّ الأُفُق»[٣].

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ قال: «رأىٰ جبريل عليه السلام»[٤].

وفي «الصحيحين» عن مسروق - أيضًا - قال: سألتُ عائشة رضي الله عنها: هل رأىٰ محمدٌ ربَّه؟ فقالت: «سبحان الله! لقد قَفَّ[٥] شعري ممَّا قلتَ»[٦].

وفي «صحيح مسلم» أنَّ أبا ذَرٍّ سأله ﷺ: هل رأيتَ ربَّكَ؟ فقال: «نورٌ أَنَّىٰ أَرَاهُ»[٧].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٣٣، ٤٨٥٨).

(٤) أخرجه مسلم (١٧٥).

(٥) «قَفَّ شَعري» معناه: اقشعَرَّ جلدي حتَّىٰ قام ما عليه من الشَّعْر، إعظامًا لهذا القول. انظر: «أعلام الحديث» للخطَّابي (٣/ ١٩١٤).

(٦) أخرجه البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧).

(٧) أخرجه مسلم (١٧٨).

وفي «صحيحه» - أيضًا - من حديث أبي موسىٰ الأشعري قال: قام فِينَا رسولُ الله ﷺ بخمس كلماتٍ، فقال: **«إنَّ اللهَ لا ينامُ، ولا ينبغي له أن يَنَامَ، يَخْفِضُ القِسْطَ ويرفَعُه، يُرْفَعُ إليه عَمَلُ الليل قبل النَّهار، وعَمَلُ النَّهار قبل الليل، حِجَابُه النُّور، لو كَشَفَهُ لأحرقت سُبُحَاتُ وجهِهِ ما انتهىٰ إليه بَصَرُهُ من خَلْقِهِ»**[١].

وهذا الحديث ساقه مسلمٌ بعد حديث أبي ذَرٍّ المتقدِّم عَقِيبه، وهو كالتفسير له.

والمقصود أنَّ المُخْبَر عنه بالرؤية في سورة «النَّجْم» هو: جبريلُ.

وأمَّا قولُ ابن عباس: «رأىٰ محمدٌ ربَّه بفؤاده مرَّتين»[٢]؛ فالظاهر أنَّ مُسْتَنَدَهُ هذه الآية، وقد تبيَّنَ أنَّ المرئيَّ فيها جبريلُ، فلا دلالة فيها علىٰ ما قاله ابن عباس.

وقد حكىٰ عثمانُ بن سعيد الدَّارمي الإجماعَ علىٰ ما قالته عائشة ﵂، فقال - في نَقْضِهِ علىٰ المَرِيسي، في الكلام علىٰ حديث ثوبانَ، ومعاذٍ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: **«رأيتُ ربِّي البَارِحَةَ في أحسَنِ صُورَةٍ»**[٣] فحكىٰ تأويل المَرِيسِي الباطل له - ثُمَّ قال: «وَيْلَكَ؛ إنَّ تأويل هذا الحديث علىٰ غير ما ذهبتَ إليه، لما أنَّ رسول الله ﷺ قال في حديث أبي ذَرٍّ: «إنَّه لم يَرَ ربَّهُ»[٤]، وقال رسول الله ﷺ: «لن تَرَوا ربَّكُم حتَّىٰ تَمُوتُوا»[٥]، وقالت عائشة ﵂: «من زَعَم أنَّ محمدًا رأىٰ ربَّهُ فقد أعظم علىٰ الله الفِرْيَة»[٦]. وأجمع المسلمون علىٰ ذلك؛ مع قول الله تعالىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٦).

(٣) أمَّا حديث معاذ ﵁ فسيأتي تخريجه بعد قليل.

وأمَّا حديث ثوبان ﵁ فأخرجه: ابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٥٤٣).

(٤) أخرجه مسلم (١٧٨).

(٥) أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٣٢٤)، وأخرجه مسلم (٢٩٣١) بنحوه.

(٦) أخرجه مسلم (١٧٧).

ﵟٱلۡأَبۡصَٰرُﵞ يَعْنُون أبصارَ أهل الدنيا. وإنَّما هذه الرؤية كانت في المنام، وفي المنام يمكن رؤية الله علىٰ كل حالٍ.

كذلك روىٰ معاذ بن جبل، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**صليتُ ما شاء الله من الليل، ثُمَّ وَضَعْتُ جَنْبِي، فأتاني ربِّي في أحسَنِ صُورةٍ**»[(١)]، فهذا تأويل هذا الحديث عند أهل العلم.

فصل

ص: ٣٩٦

تنزيه الله تعالى لنبيه عن زيغ البصر وطغيانه

وقوله تعالىٰ: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١٧]؛ قال ابن عباس: «ما زَاغَ البصر يمينًا ولا شمالًا، ولا جاوز ما أُمر به»[(٢)]. وعلىٰ هذا المفسِّرون.

فنَفَىٰ عن نبيِّهِ ما يعرض للرائي الذي لا أدب له بين يدي الملوك والعظماء، من التفاته يمينًا وشمالًا، ومجاوزة بصره لما بين يديه. وأخبر عنه بكمال الأدب في ذلك المقام، وفي تلك الحضرة إذ لم يلتفت جانبًا، ولم يَمُدَّ بصرَهُ إلىٰ غير ما أُرِي من الآيات، وما هناك من العجائب، بل قام مقام العبد الذي أوجب أدبُهُ إطراقَه وإقبالَه علىٰ ما أُريه، دون التفاته إلىٰ غيره، ودون تطلُّعه إلىٰ ما لم يَرَهُ، مع ما في ذلك من ثبات الجأش، وسكون القلب وطمأنينته، وهذا غاية الكمال.

فزيغ البصر: التفَاتُه جانبًا، وطغيانُه: مَدُّهُ أمامه إلىٰ حيث ينتهي.

فنزَّهَ في هذه السورة علمَهُ عن الضَّلَال، وقَصْدَهُ وعمَلَهُ عن الغَيِّ، ونُطْقَه عن الهوىٰ، وفُؤَادَه عن تكذيب بصرِه، وبَصَرَهُ عن الزَّيغِ والطغيان، وهكذا يكون المدح.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٣٥)، وصححه.

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١١/ ٥١٨).

ص: ٣٩٧

فصل

من بلاغة القرآن الكريم: أسلوب الاستطراد

ولمَّا ذكر - سبحانه - رؤيته لجبريل عند «سِدْرَة المُنْتَهىٰ» استطرد منها، وذكر أنَّ جَنَّةَ المأوىٰ عندها، وأنَّها يغشاها من أمره وخلقه ما يغشىٰ.

وهذا من أحسن الاستطراد، وهو أسلوبٌ لطيفٌ جدًّا في القرآن، وهو نوعان:

أحدهما: أن يستطرد من الشيء إلىٰ لازمه، مثل هذا، ومثل قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف:٩]، ثُمَّ استطرد من جوابهم إلىٰ قوله: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾ [الزخرف:١٠-١٣]، وهذا ليس من جوابهم ولكن تقريرًا له، وإقامةً للحُجَّةِ عليهم.

ومثله قوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ [طه:٤٩-٥٢] فهذا جواب موسىٰ، ثُمَّ استطرد - سبحانه - منه إلىٰ قوله: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [طه:٥٣-٥٥]، ثُمَّ عاد إلىٰ الكلام الذي استطردَهُ منه.

والنَّوع الثاني: أن يستطرد من الشخص إلىٰ النَّوع؛ كقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [المؤمنون:١٢، ١٣] إلىٰ آخره، **فالأوَّل**: آدمُ، **والثاني**: بَنُوه.

ومثله قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الأعراف:١٨٩-١٩٠] إلىٰ آخر الآيات، فاستطرد من ذِكْر الأَبوين إلىٰ ذِكْر المشركين من أولادهما. والله أعلم.

فصل

ص: ٣٩٩

قسم الله تعالى بالطور

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾ [الطور:١-٨]؛ تضمَّنَ هذا القَسَمُ خمسةَ أشياء، وهي مظاهر آياته، وقدرته، وحكمته الدالَّة علىٰ ربوبيته ووحدانيته.

فـ«**الطُّور**»: هو الجبل الذي كلَّم اللهُ عليه نبيَّهُ وكليمَهُ موسىٰ بن عِمْران، عند جمهور المفسِّرين من السَّلف والخَلَف.

وعرَّفَهُ هاهنا بـ«اللَّام»، وعرَّفَهُ في موضعٍ آخر بالإضافة؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين:٢].

الثاني: «الكتاب المسطور» في الرَّقِّ المنشور، واختُلف في هذا الكتاب:

فقيل: هو اللوح المحفوظ. وهذا غلطٌ؛ فإنَّه ليس بـ«رَقٍّ».

وقيل: هو الكتاب الذي تضمَّن أعمالَ بني آدم. قال مقاتل: «تُخْرَجُ إليهم أعمالُهم يومَ القيامة في رَقٍّ منشور»[١].

(١) «تفسير مقاتل» (٣/ ٢٨٢).

وهذا وإن كان أقوىٰ وأصحَّ من القول الأوَّل، واختاره جماعةٌ من المفسِّرين ومنهم من لم يذكر غيره؛ فالظاهر أنَّ المراد به الكتاب المنزَّل من عند الله، وأقسَمَ اللهُ به لعظمته وجلالته، وما تضمَّنَهُ من آيات ربوبيته، وأدلَّةِ توحيده، وهدايةِ خلقه.

ثُمَّ قيل: هو التوراة التي أنزلها الله علىٰ موسىٰ.

وكأنَّ صاحب هذا القول رأىٰ اقتران هذا الكتاب بالطُّور، فقال: هو التوراة، ولكنَّ التوراةَ إنَّما أُنزلت في ألواحٍ لا في رَقٍّ، إلَّا أن يقال: هي في رَقٍّ في السماء وأنزلت في ألواح.

وقيل: هو القرآن؛ ولعلَّ هذا أرجح الأقوال؛ لأنَّه - سبحانه - وصَفَ القرآن بأنَّهُ ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس:١٣-١٦]، فالصُّحُفُ هي «الرَّقُّ»، وكونه بأيدي السَّفَرَة هو كونه منشورًا.

وعلىٰ هذا فيكون قد أقسَمَ بسيِّدِ الجبال، وسيِّدِ الكتب. ويكون ذلك متضمِّنًا للنُّبوَّتَين العظيمتَين: نُبُوَّةِ موسىٰ، ونُبُوَّةِ محمدٍ صلَّىٰ الله عليهما وسلَّم. وكثيرًا ما يُقْرَنُ بينهما، وبين مَحَلِّهما كما في سورة «والتِّين والزيتون».

ثُمَّ أَقْسَمَ بسيِّدِ البيوت، وهو «البيت المعمور».

وأمَّا «البيت المعمور»؛ فالمشهور أنَّه «الضُّرَاح»[1] الذي في السماء الذي رُفع للنبيِّ ﷺ ليلةَ الإسراء، يدخله كُلَّ يومٍ سبعون ألف مَلَكٍ، ثُمَّ لا يعودون إليه آخر ما عليهم[2]. وهو بحيال البيت المعمور في الأرض.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١١/ ٤٨٠ - ٤٨١).

و«الضُّرَاح»: من المضَارَحَة؛ وهي المقَابَلَة والمضارَعَة. وسمي بذلك لأنه يقابل البيت الحرام في السماء، ويضارعه في الحُرْمَة. «النهاية» لابن الأثير (٣/ ٨١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤).

وقيل: هو البيت الحرام.

ولا ريب أنَّ كلًّا منهما بيتٌ معمورٌ: فهذا معمورٌ بالملائكة وعبادتهم، وهذا معمورٌ بالطائفين والقائمين والرُّكَّعِ السجود. وعلىٰ كلا القولين فكلٌّ منهما سيِّد البيوت.

ثُمَّ أقسَمَ - سبحانه - بمخلوقَين عظيمَين من بعض مخلوقاته، وهما مظهر آياته، وعجائب صنعته، وهما:

السَّقْفُ المرفوعُ؛ وهو السماء، فإنَّها من أعظم آياته قدرًا، وارتفاعًا، وسَعةً، وسُمْكًا، ولونًا، وإشراقًا. وهيٰ مَحَلُّ ملائكته، وهي سَقْفُ العالَم، وبها انتظامه، وهي مَحَلُّ النَّيِّرين اللَّذَين بهما قوامُ الليل، والنَّهارِ، والسِّنين، والشهورِ، والأيامِ، والصَّيفِ، والشِّتاءِ، والرَّبيع، والخريفِ. ومنها تنزل البركاتُ، وإليها تصعد الأرواح وأعمالُها وكلماتُها الطَّيِّبةُ.

والثاني: البحر المَسْجُور؛ وهو آيةٌ عظيمةٌ من آياته، وعجائبُهُ لا يحصيها إلا الله.

واختُلف في هذا البحر، هل هو البحر الذي فوق السماوات، أو البحر الذي نشاهده؟ علىٰ قولين:

فقالت طائفةٌ: هو البحر الذي عليه العرش، وبين أعلاه وأسفله مسيرة خمسمائة عامٍ.

والثاني: أنَّه بحر الأرض.

واختُلف في «المَسْجُور»:

فقيل: المَمْلُوء، هذا قول جميع أهل اللغة.

وكذا قال ابن عباس: «المسجور: المُمْتَلِئ».

وقال مجاهد[١]: «المسجورُ: المُوْقَدُ».

وهذا يرجع إلىٰ القول الأوَّل؛ لأنَّكَ تقول: سَجَرْتُ التنُّورَ؛ إذا ملأْتَهُ حَطبًا.

وعن ابن عباس أنَّ المسجور: «اليابس الذي قد نَضَب ماؤُه وذهب»[٢].

وقد رُوِي عن ابن عباس أنَّ المسجور: المحبوس.

والمعنىٰ علىٰ هذا أنَّه محبوسٌ بقدرة الله أن يَفِيضَ علىٰ الأرض فيُغْرِقَها.

وأقوىٰ الأقوال في «المَسْجُور» أنَّه المُوْقَد - وهذا هو المعروف في اللغة - من: السَّجْر، ويدلُّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير:٦]، قال عليُّ بن أبي طالب، وابنُ عباس: «أُوقِدَتْ فَصَارَتْ نارًا».

ومن قال: «يَبِسَت وذَهَب ماؤها»؛ فلا يُناقض كونها نارًا مُوقَدَةً. وكذا من قال: «مُلِئت»؛ فإنَّها تُمْلأُ نارًا.

وإذا اعتبرتَ أسلوبَ القرآن ونَظْمَهُ ومفرداته رأيتَ اللفظة تدلُّ علىٰ ذلك كلِّه، فإنَّ البحر محبوسٌ بقدرة الله ﷻ، ومملوءٌ ماءً، ويذهب ماؤُه يوم القيامة ويصير نارًا. فكلٌّ من المفسِّرين أخذ معنىً من هذه المعاني. والله أعلم.

فصل

ص: ٤١١

إقسام الله تعالى على المعاد والجزاء

وأقسَمَ - سبحانه - بهذه الأمور علىٰ المَعَاد والجزاء، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الطور:٧].

ولمَّا كان الذي يقع قد يُمْكِنُ دَفْعُهُ أخبَر - سبحانه - أنَّه لا دافع له. وهذا

(١) «تفسيره» (٢/ ٦٢٤).

(٢) أخرجه الثعلبي في «الكشف والبيان» (٩/ ١٢٥).

يتناول أمرين:

أحدهما: أَنَّهُ لا دافع لوقوعه.

والثاني: أنه لا دافع له إذا وقع.

ثُمَّ ذكر - سبحانه - وقتَ وقوعه فقال: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الطور:٩، ١٠].

و«المَوْرُ»: قد فُسِّر بالحركة، وفُسِّر بالدَّوَران، وفُسِّر بالتموُّج والاضطراب.

والتحقيقُ؛ أَنَّه حركةٌ في تموُّجٍ، وتكفُّؤٍ، وذهابٍ، ومجيءٍ.

ولهذا فرَّق بين حركة السماء وحركة الجبال، فقال: ﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ [التكوير:٣]، فالجبالُ تسير من مكانٍ إلىٰ مكانٍ، وأمَّا السماء فإنَّها تتكفَّأُ، وتتموَّجُ، وتذهبُ، وتجيءُ.

ثُمَّ ذَكَر وعيدَ المكذِّبين بالمَعَادِ والنُّبُوَّةِ، وذكر أعمالَهم وعلومَهم التي كانوا عليها، وهي «الخَوْض» الذي هو كلامٌ باطلٌ، و«اللَّعِبُ» الذي هو سَعْيٌ ضَائعٌ. فلا علمٌ نافعٌ، ولا عملٌ صالحٌ؛ بل علومُهم خَوْضٌ بالباطل، وأعمالُهم لَعِبٌ.

ولمَّا كانت هذه العلومُ والأعمالُ مُسْتَلزِمةً لدفع الحقِّ بعُنْفٍ وقَهْرٍ؛ أُدخِلُوا جهنَّم وهم يُدَعُّونَ إليها دعًّا، أي: يُدفعُون في أَقْفِيَتِهم وأكتافهم، دَفْعًا بعد دَفْع، فإذا وَقَفُوا عليها وعَايَنُوها وُقِّفُوا، وقيل لهم: ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾، وتقولون لا حقيقة لها، ولا مَنْ أخبر بها صادِقٌ. ثم يُقَال لهم: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ ﴾ الآن كما كنتم تقولون للحقِّ الذي جاءتكم به الرُّسُل: إنَّه سِحْرٌ، وإنَّهم سَحَرَةٌ؛ فهذا - الآن - سِحْرٌ لا حقيقةَ له كما قلتم، أَمْ علىٰ أبصاركم غِشَاوةٌ فلا تبصرونها، كما كان عليها غِشَاوَةٌ في الدنيا فلا تُبْصِر الحقَّ؟ أَفَعَمِيَتْ أبصارُكم اليومَ عن رؤية هذا الحقِّ، كما عَمِيَتْ في الدنيا؟



ثُمَّ سُلِبَ عنهم نَفْعُ الصَّبْرِ الذي كانوا في الدنيا إذا دَهَمَتْهم الشدائدُ وأحاطت بهم لجأوا إليه، وتعلَّلُوا بانقضاء البليَّةِ لانقضاء أمدها. فقيل لهم يومئذٍ: ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ﴾ [الطور:١٦] كلاهما سواءٌ عليكم لا يُجْدي عليكم الصبر ولا الجَزَع، فلا الصبر يُخَفِّفُ عنكم حِمْلَ هذا العذاب، ولا الجَزَعُ يعطِفُ عليكم قلوبَ الخَزَنَةِ، ولا يستنزل لكم الرحمة.

ثُمَّ أُعْلِمُوا بأنَّ الرَّبَّ - تعالىٰ - لم يظلمهم بذلك، وإنَّما هو نَفْسُ أعمالهم صارت عذابًا، فلم يجدوا من اقترانهم به بُدًّا؛ بل صارت عذابًا لازمًا لهم.

فصل

ص: ٤١٤

من أوصاف أهل الجنة: التفكه

ثُمَّ ذَكَر - سبحانه - أربابَ العلومِ النَّافعة، والأعمالِ الصالحة، والاعتقاداتِ الصحيحة؛ وهم المُتَّقُون، فذكر مساكنَهم وهي الجِنَان، وحالَهم في المساكن وهو النَّعيم.

وذكر نعيم قلوبهم وراحتهم بكونهم ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ [الطور:١٨]، و«الفَاكِهُ»: المُعْجَبُ بالشيء، المسرورُ المُغْتَبطُ به.

والمقصودُ أنَّه - سبحانه - جمَعَ لهم بين النَّعِيمَين: نعيمِ القلب بالتفكُّهِ، ونعيمِ البَدَن بالأكل والشُّرب والنكاح.

ووَقَاهُم عذاب الجحيم؛ فوَقَاهُم ممَّا يكرهون، وأعطاهم ما يحبُّون جزاءً وِفاقًا؛ لأنَّهم تَوَقَّوا ما يكرهُ، وأَتَوا بما يحبُّ، فكان جزاؤهم مُطابِقًا لأعمالهم.

ثُمَّ أخبرَ عن دَوَام ذلك لهم بما أَفْهَمَهُ قولُه: ﴿هَنِيٓـَٔۢا﴾؛ إذ لو عَلِمُوا زَوَالَهُ وانقطاعَه لَنغَّصَ عليهم ذلك نعيمَهم، ولم يكن هنيئًا لهم.

ثُمَّ ذكَرَ مجالسَهم، وهيئَاتِهم فيها؛ فقال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصۡفُوفَةٍۖ﴾ [الطور:٢٠]، وفي ذِكْرِ اصْطِفَافِها تنبيهٌ علىٰ كمال النِّعمة عليهم بقُرْب بعضهم من بعضٍ، ومقابلةِ بعضهم بعضًا، كما قال تعالىٰ: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾ [الواقعة:١٦]، فإنَّ من تمام اللذَّةِ والنَّعيم أن يكون مع الإنسان في بستانه ومنزله من يحبُّ معاشرتَهُ، ويُؤْثِرُ قُرْبَهُ، ولا يكون بعيدًا منه قد حِيلَ بينه وبينه، بل سريرُه إلىٰ جانب سريرِ من يحبُّه، ومقابِلُه سريرُ من يحبُّه.

وذكر أزواجَهم وأنَّهم «الحُورُ العِينُ». وقد تكرَّرَ وصْفُهُنَّ في القرآن بهاتين الصِّفَتين، قال أبو عبيدة: «جعلناهم أزواجًا كما تُزَوَّجُ النَّعْلُ بالنَّعْلِ، جعلناهم اثْنَين اثْنَين»[1].

وقال يونس: «قَرَنَّاهُم بِهِنَّ، وليس من عقد التزويج»[2].

وعلىٰ هذا «فزوَّجْنَاهُم» عند هؤلاء من الاقتران والشَّفْع، أي: شَفَعْنَاهُم، وقرنَّاهُم بِهِنَّ.

وقالت طائفةٌ - منهم مجاهد[3] -: زوَّجْنَاهم بِهِنَّ، أي: أَنْكَحْنَاهُم إيَّاهُنَّ.

قلتُ: وعلىٰ هذا فتَلْوِيحُ فِعْل التزويج قد دلَّ علىٰ النكاح، وتعديته بـ«الباء» المُتَضمِّنة معنىٰ الاقترانِ والضَّمِّ، فالقولان واحدٌ. والله أعلم.

وأمَّا «الحُورُ العِينُ»؛ فقال قتادة: «بـ«حُور» أي: بِيض»[4]. وكذلك قال ابن عباس[5].

---

(١) «مجاز القرآن» (٢/ ٢٠٩).

(٢) انظر: «الجامع» (١٧/ ٦٥).

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١١/ ٢٤٨).

(٤) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١١/ ٢٤٩).

(٥) انظر: «مسائل نافع بن الأزرق» (١٨٢).

وقال مقاتل: «"الحُور": البِيضُ الوجوه، "العِين": الحِسَانُ الأَعْين»(١).

وعَيْنٌ حَوْرَاء: شديدةُ السَّوَاد، نَقِيَّةُ البياض، طويلةُ الأهداب مع سوادها، كاملة الحُسْن. ولا تسمَّىٰ المرأة «حَوْرَاء» حتَّىٰ تكون مع حوَر عينها بيضاءَ لون الجسد.

فَوَصَفَهُنَّ بالبياضِ والحُسْنِ والمَلَاحَةِ، كما قال تعالىٰ: ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن:٧٠]، فالبياضُ في ألوانهنَّ، والحُسْن في وجوههنَّ، والمَلَاحَة في عيونهنَّ. وقد وصف الله - سبحانه - نساءَ الجنَّةِ بأحسن الصفات، ودلَّ بما وصف علىٰ ما سكت عنه.

فصل

ص: ٤٢١

إلحاق الذرية بالوالدين في الجنة

ثُمَّ أخبر - سبحانه - عن تكميل نعيمهم بإلحاق ذُرِّياتهم بهم في الدرجة - وإنْ لم يعملوا أعمالهم - لِتَقَرَّ أعينُهم بهم، ويَتِمَّ سرورُهم وفرحُهم.

وأخبر - سبحانه - أنَّه لم ينقُص الآباءَ من عملهم من شيءٍ بهذا الإلحاق، فينزلهم من الدرجة العُلْيا إلىٰ السُّفْلَىٰ، بل أَلْحَقَ الأبناء بالآباء، ووفَّر علىٰ الآباء أجورَهم ودرجاتهم.

ثُمَّ أخبر - سبحانه - أنَّ هذا إنَّما هو فعله في أهل الفضل، وأمَّا أهل العدل فلا يفعل بهم ذلك، بل ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور:٢١]، ففي هذا رفْعٌ لتوهُّم التسوية بين الفريقين في هذا الإلحاق، كما في قوله: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور:٢١] رفْعٌ لتوهُّم حَطِّ الآباء إلىٰ درجة الأبناء، وقسمةِ أجور الآباء بينهم وبين الأبناء فينتقص أجر أعمالهم، فرفع هذا التوهُّمَ بقوله: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي: ما نَقَصْنَاهم.

(١) «تفسيره» (٣/ ٢٠٨).

ثُمَّ ذكر إمدادَهم باللَّحم، والفاكهة، والشَّراب، وأنَّهم يتعاطَون كؤوس الشَّراب بينهم، يشرب أحدُهم ويناول صاحبه ليتمَّ بذلك فرحهم وسرورهم.

ثُمَّ نَزَّه ذلك الشَّراب عن الآفات من اللَّغْو من أهله عليه، ولُحُوق الإثم لهم؛ فقال: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور:٢٣]، فنفَىٰ بـ«اللَّغْوِ»: السِّبَابَ، والتخاصُمَ، والهُجْرَ[1]، والفُحْشَ في المقال، والعَرْبَدَةَ. ونَفَىٰ بـ«التأثيم» جميع الصفات المذمومة التي أَثَّمَتْ شارب الخمر.

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ ولم يَقُل: ولا إثْم، أي: ليس فيها ما يحملهم علىٰ الإثم، ولا يُؤَثِّم بعضُهم بعضًا بشربها، ولا يُؤَثِّمُهم اللهُ بذلك، ولا الملائكةُ، فلا يَلْغُون، ولا يأثمون.

قال ابن قتيبة: «لا تذهب بعقولهم فيلغُوا، ولم يقع منهم ما يُؤَثِّمُهم».

ثُمَّ وصَفَ خدمَهم الطائفين عليهم بأنَّهم كاللؤلؤ في بياضهم. و«المكْنُون»: المَصُون الذي لا تدنِّسُه الأيدي، فلم تُذْهِب الخدمةُ تلك المحاسِنَ، وذلك اللَّونَ والصفاءَ والبهجةَ، بل مع انتصابهم لخدمتهم كأنَّهم لؤلؤٌ مكنونٌ.

ووصفهم في موضعٍ آخر بأنَّ رائيهم يحسبهم لؤلؤًا منثورًا؛ ففي ذكره «المنثورَ» إشارةٌ إلىٰ تفرُّقِهم في حوائج ساداتهم، وخدمتهم، وذهابهم، ومجيئهم، وسَعَة المكان، بحيث لا يحتاجون أن يَنْضَمَّ بعضُهم إلىٰ بعضٍ فيه لضيقه.

ثُمَّ ذكر - سبحانه - ما يتحدَّثون به هناك، وأنَّهم يقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور:٢٦] أي: كُنَّا خائفين في مَحَلِّ الأمن بين الأهل والأقارب

---

(١) «الهُجْر» هو: الفاحش والقبيح من القول، وكذلك إذا أكثر الكلام فيما لا ينبغي. «النهاية» (٥/ ٢٤٥).

والعشائر، فأوصلنا ذلك الخوف والإشفاق إلى أنْ مَنَّ اللهُ علينا، فأمَّنَنَا ممَّا نخاف ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور:٢٧]، وهذا ضدُّ حال الشقيِّ الذي كان في أهله مسرورًا. فهذا كان مسرورًا مع إساءته، وهؤلاء كانوا مُشْفِقِين مع إحسانهم، فبدَّلَ الله - سبحانه - إشفاقَهم بأعظم الأمن، وبدَّلَ أمن أولئك بأعظم المخاوِف. فبالله المستعان.

ثُمَّ أخبر - تعالىٰ - عن حالهم في الدنيا، وأنَّهم كانوا يعبدون الله فيها، فأوصَلَتْهُم عبادتُه وحدَهُ إلىٰ قُرْبِه وجوَارِه، ومَحَلِّ كرامته، والذي جمع لهم ذلك كلَّه بِرُّهُ ورحمتُه؛ فإنَّه هو «البرُّ الرَّحيمُ».

فهذا هو المُقْسَمُ عليه بتلك الأقسام الخمسة في أوَّل السورة. والله أعلم.

فصل

ص: ٤٢٤

قسم الله تعالى بالذاريات

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا (١) فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا (٢) فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا (٣) فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا (٤)﴾ [الذاريات:١-٤]، أقْسَم بـ«الذَّاريات» وهي: الرِّياح؛ تَذْرُو المطرَ، وتَذْرُو الترابَ، وتَذْرُو النَّباتَ إذا تَهَشَّم، كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف:٤٥]؛ أي: تفرِّقُه وتَنْشُرُه.

ثُمَّ أقسَمَ بما فوقها وهي: السَّحَاب الحاملات وِقْرًا، أي: ثِقْلًا من الماء، وهي رَوَايَا[1] الأرض، يسوقها الله - سبحانه - علىٰ مُتُون الرِّياح؛ كما في «جامع

(١) الرَّوايا من الإبل: الحوامل للماء، واحدتها: رَاوِيَة، ومنه سُمِّيت «المَزَادَة»: رَاوِيةً. «النهاية» (٢/ ٢٧٩).

الترمذي»[1] من حديث الحسن عن أبي هريرة قال: بينما نبيُّ الله ﷺ جالسٌ وأصحابُه إذ أتىٰ عليهم سَحَابٌ، فقال نبيُّ الله ﷺ: «**هل تَدْرُون ما هذا؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «هذا العَنَانُ، هذه رَوَايَا الأرض، يَسُوقُها اللهُ - تبارك وتعالىٰ - إلىٰ قومٍ لا يشكرونه، ولا يَدْعُونه».

ثُمَّ أقسَمَ - سبحانه - بما فوق ذلك، وهي «الجاريات يُسْرًا»؛ وهي: النُّجُوم التي من فوق الغَمَام، و«يُسْرًا» أي: مُسَخَّرةً مُذَلَّلةً مُنْقادَةً.

وقال جماعة من المفسِّرين: إنَّها السُّفُن تجري مُيَسَّرَةً في الماء جريًا سهلًا، ومنهم من لم يذكر غيره.

واختار شيخنا - رحمه الله - القول الأوَّل، وقال: هو أحسن في الترتيب والانتقال من السافل إلىٰ العالي؛ فإنَّه بدأ بالرِّياح، وفوقها السَّحاب، وفوقه النُّجُوم، وفوقها الملائكة المقسِّمَات أَمْرَ اللهِ الذي أُمِرَتْ به بين خلقه.

والصحيح أنَّ «المقسِّمات أمرًا» لا تختصُّ بأربعةٍ.

وقيل: هُمْ:

«جبريل»؛ يقسم الوحيَ، والعذابَ، وأنواعَ العقوبة علىٰ من خالف الرُّسُل.

و«ميكائيل»؛ علىٰ القَطْر، والبَرَدِ، والثَّلْج، والنَّبَات، يقسمها بأمر الله.

و«ملك الموت»؛ يقسم المَنَايا بين الخلق بأمر الله تعالىٰ.

و«إسرافيل»؛ يقسم الأرواحَ علىٰ أبدانها عند النَّفْخ في الصُّور.

وهم «المُدبِّراتُ أمرًا».

وليس في اللفظ ما يدلُّ علىٰ الاختصاص بهم. والله أعلم.

---

(١) رقم (٣٢٩٨).

وأقسَمَ - سبحانه - بهذه الأمور الأربعة لمكان العبرة والآية، والدلالة الباهرة علىٰ ربوبيته ووحدانيته، وعِظَم قدرته.

ففي «الرِّياح» من العِبَر: هُبُوبُها، وسُكُونُها، ولينُها، وشدَّتُها، واختلافُ طبائِعها وصفاتها ومَهَابِّها، وتصريفها، وتنوُّعُ منافعها، وشدَّةُ الحاجة إليها.

وذلك يقضي بوجود خالقٍ مصرِّفٍ لها، مُدَبِّرٍ لها، ويصرِّفُها كيف يشاء، ويجعلها رُخَاءً تارةً، وعاصفةً تارةً، ورحمةً تارةً، وعذابًا تارةً.

وهي من رَوْح الله تأتي بالرحمة، ومن عقوبته تأتي بالعذاب.

وهي أقوىٰ خَلْقِ الله كما رواه الترمذي في «جامعه» من حديث أنس بن مالك، عن النبيِّ ﷺ قال: «**لمَّا خلقَ اللهُ الأرضَ جَعَلَتْ تَمِيدُ، فخلق الجبالَ، فقال بها عليها، فاستَقَرَّتْ، فَعَجِبَت الملائكةُ من شدَّةِ الجبالِ، وقالوا: يا رَبُّ؛ هل مِنْ خَلْقِكَ شيءٌ أشدُّ من الجبال؟ قال: نعم، الحديد. قالوا: يا رَبُّ؛ فهل مِنْ خَلْقِكَ شيءٌ أشدُّ من الحديد؟ قال: نعم، النَّار. قالوا: يا ربُّ؛ فهل مِنْ خَلْقِكَ شيءٌ أشدُّ من النَّار؟ قال: نعم، الماء. قالوا: يا رَبُّ؛ فهل مِنْ خَلْقِكَ شيءٌ أشدُّ من الماء؟ قال: نعم، الريح. قالوا: يا رَبُّ فهل مِنْ خَلْقِكَ شيءٌ أشدُّ من الريح؟ قال: نعم، ابنُ آدم، تصدَّقَ بصدقةٍ بيمينه يُخفِيها مِنْ شِمَاله**»؛ ورواه الإمام أحمد في «مسنده»(١).

والمقصود أنَّ الرِّياح من أعظم آيات الرَّبِّ، الدَّالَّة علىٰ عظمته، وربوبيته، وقدرته.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ١٢٤)، والترمذي (٣٣٦٩)، بسندٍ ضعيف.

فصل

ص: ٤٢٩

قسم الله تعالى بالسحاب

ثُمَّ أقسَمَ - سبحانه - بـ«السَّحَاب»، وهو من أعظم آياته، بُخَارٌ يُنْشِئه اللهُ في الجَوِّ في غاية الخِفَّة، ثُمَّ يحمل الماءَ والبَرَدَ، فيصير أثقلَ شيءٍ، فيأمر الرِّياح، فتحمله علىٰ مُتُونها، وتسير به حيث أُمِرَت، فهو مُسَخَّرٌ بين السماء والأرض، حامِلٌ لأرزاق العباد والحيوان، فإذا أَفْرَغَه حيث أُمِر به اضْمَحَلَّ وتَلَاشَىٰ بقدرة الله، فإنَّه لو بَقِيَ لأَضَرَّ بالنَّبَات والحيوان. فأنشأَهُ - سبحانه - في زمنٍ يصلح إنشاؤه فيه، وحمَّلَهُ من الماء ما تحمَّلَه، وساقَهُ إلىٰ بلدٍ شديدِ الحاجةِ إليه.

فَسَلِ «السَّحَاب»: مَنْ أنشأه بعد عَدَمِهِ؟ ومَنْ حمَّلَهُ الماءَ والثَّلْجَ والبَرَدَ؟ ومَنْ حَمَلَهُ علىٰ ظهور الرِّياح؟ ومَنَ أمسكه بين السماء والأرض بغير عماد؟

وَسَلِ «الرِّياح»: مَنْ أنشأها بقدرته؟ وصرَّفها بحكمته، وسخَّرها بمشيئته، وأرسلها بُشْرًا بين يدي رحمته، وجعلها سببًا لتمام نعمته، وسلَّطها علىٰ من شاء بعقوبته؟

وَسَلِ «الجَارِيات يُسْرًا» مِنَ السُّفُن مَنْ أَمْسَكَها علىٰ وجه الماء؟ ومَنْ سخَّرَ لها البحر؟ ومَنْ أرسل لها الرِّياح التي تَسُوقها في الماء سَوقَ السَّحَاب علىٰ مُتُون الرِّياح؟

وَسَلِ «الجاريات يُسْرًا» من الكواكب، والشمس، والقمر: مَنِ الذي خَلَقَها، وأحسن خَلْقها، ورفع مكانها، وزيَّنَ بها قُبَّةَ العالَم؟ وفَاوَتَ بين أشكالها، ومقاديرها، وألوانها، وحركاتها، وأماكنها.

وأنتَ إذا تأمَّلتَ أحوال هذه الكواكب وجدتها تدلُّ علىٰ المَعَاد كما تدلُّ علىٰ المبدأ، وتدلُّ علىٰ وجود الخالق، وصفات كماله، وربوبيته، وحكمته، ووحدانيته = أعظمَ دلالة.

فصل

ص: ٤٣٢

قسم الله تعالى بالملائكة المقسمات

وأمَّا دلالةُ «المُقَسِّماتِ أمرًا» وهم الملائكة؛ فَلِأَنَّ ما يُشَاهَد من تدبير العالَم العُلْوِيِّ والسُّفْلِيِّ وما لا يُشَاهَد إنَّما هو علىٰ أيدي الملائكة، فالرَّبُّ - تعالىٰ - يدبِّرُ بهم أمر العالَم، وقد وكَّل بكلِّ عملٍ من الأعمال طائفةً منهم.

هذا مع ما في خَلْقِ الملائكة من البهاء والحُسْن، وما فيهم من القوةِ والشدَّةِ، ولطافةِ الجسم، وحُسْن الخِلْقَة، وكمال الانقياد لأمره، والقيام في خدمته، وتنفيذ أوامره في أقطار العالَم.

ثُمَّ أقسَمَ - سبحانه - بهذه الأمور علىٰ صِدْقِ وَعْدِهِ، ووقوع جزائه بالثواب والعقاب فقال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ [الذاريات:٥]؛ أي: ما توعدون من أمر الساعة والثواب والعقاب لَحَقٌّ كائنٌ، وهو وَعْدُ صدقٍ لا كذب، ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الذاريات:٦]؛ أي: إنَّ الجزاء لَكَائنٌ لا محالة.

ويجوز أن تكون «ما» موصولةً، والعائد محذوف، والمعنىٰ: إنَّ الذي توعدونه لَصَادِقٌ، أي: كائنٌ وثابتٌ.

وأن تكون مصدريَّةً، أي: إنَّ وَعْدَكم لَحَقٌّ وصِدْقٌ.

وَوَصْفُ الوَعْدِ بكونه «صادقًا» أبلغ من وصْفِه بكونه «صِدْقًا»، ولا حاجة إلىٰ تكلُّفِ جعله بمعنىٰ: مصدوقًا فيه، بل هو صادِقٌ نفسُه؛ كما يوصف المتكلِّم بأنَّه صادِقٌ في كلامه، يُوصف كلامه بأنَّه: صادِقٌ. وهذا مثل قولهم: سرٌّ كاتم، وليلٌ قائمٌ، ونهارٌ صائمٌ، وماءٌ دافقٌ، ومنه: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة:٢١]، وليس ذلك بمَجَازٍ، ولا مخالفٍ لمقتضىٰ التركيب.

وإذا تأمَّلتَ هذا التناسُبَ والارتباطَ بين المُقْسَم به والمُقْسَم عليه؛ وجدته دالًّا عليه، مرشدًا إليه.

ثُمَّ أقسَمَ - سبحانه - بـ«السماء ذات الحُبُك».

أصل «الحَبْكِ» في اللغة: إجَادَةُ النَّسْج. يقال: حَبَكَ الثوبَ؛ إذا أجاد نَسْجَه. وحَبْلٌ محبوكٌ؛ إذا كان شديد الفَتْل.

وقال أبو عبيدة، والمبرِّد: «الحُبُكُ: الطرائقُ، واحدها: حِبَاك»(١).

وقال الفَرَّاء: «الحُبُك: تَكَسُّرُ كلِّ شيءٍ، كالرَّمْلِ إذا مرَّتْ به الرِّيح، والماءِ الدائم إذا مَرَّتْ به الرِّيح»(٢).

والمقصود بهذا كلِّه ما أفصح به ابن عباس، فقال: «يريد الخَلْقَ الحَسَنَ»(٣).

فصل

ص: ٤٣٧

تناقض موقف الكفار من القرآن الكريم

ثُمَّ ذكر المُقْسَم عليه فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾ [الذاريات:٨، ٩]، فالقول المُخْتَلِف: أقوالُهم في القرآن، وفي النبيِّ ﷺ، وهو خَرْصٌ كلُّه. فإنَّهم لمَّا كذَّبوا بالحقِّ اختلفت مذاهبُهم، وآراؤهم، وطرائقُهم، وأقوالُهم. فإنَّ الحقَّ شيءٌ واحدٌ، وطريقٌ مستقيمٌ، فمن خالفه اختلفت به الطرق والمذاهب، كما قال تعالىٰ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق:٥]، أي: مُخْتَلِطٍ مُلْتَبِسٍ.

وفي ضمن هذا الجواب: أنكم في أقوالٍ باطلةٍ متناقضةٍ، يكذِّبُ بعضُها بعضًا، بسبب تكذيبهم بالحقِّ.

---

(١) «مجاز القرآن» (٢/ ٢٢٥).

(٢) «معاني القرآن» (٣/ ٨٢).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٤٥).

ثُمَّ أخبر - سبحانه - أنَّه يَصْرِفُ بسبب ذلك «القول المُخْتَلِفِ» مَنْ صَرَفَ. فـ«عَنْ» هاهنا فيها طَرَفٌ من معنىٰ: التَّسْبِيب، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ [هود:٥٣]، أي: بسبب قولك.

وقوله: ﴿مَنْ أُفِكَ﴾؛ أي: من سَبَقَ في علم الله أنَّه يُضَلُّ ويُؤْفَكُ، كقوله: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ [الصافات:١٦١-١٦٣].

وقالت طائفةٌ: الضمير يرجع إلىٰ القرآن.

وقيل: إلىٰ الإيمان.

وقيل: الرسول.

والمعنىٰ: يَصْرِفُ عنه من صَرَفَ حتَّىٰ يكذِّبَ به.

ولمَّا كان هذا «القول المُخْتَلِف» خَرْصًا وباطلًا قال: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾؛ أي: الكذَّابون، ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ﴾ وجَهَالةٍ قد غَمَرَ قلوبهم - أي: غَطَّاها، وغشَّاها، كغَمْرَة الماء، وغَمْرَة الموت؛ فَغَمَراتٍ - ما غطَاها من جهلٍ، أو هَوىً، أو سُكْرٍ، أو غَفْلةٍ، أو حُبٍّ، أو بُغْضٍ، أو خوفٍ، أو هَمٍّ وغمٍّ، ونحو ذلك. قال تعالىٰ: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [المؤمنون:٦٣]؛ أي: غَفْلَة، وقيل: جهالة.

ثُمَّ وصفهم بأنَّهم ساهون في غَمْرتهم، و«السَّهْو»: الغَفْلَةُ عن الشيء، وذهابُ القلب عنه.

والفرق بينه وبين «النِّسْيَان»: أنَّ «النِّسْيَانَ» الغفلةُ بعد الذِّكْر والمعرفة، و«السَّهْو» لا يستلزم ذلك.

ثُمَّ قال: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ استبعادًا لوقوعه وجَحْدًا، فأخبر - تعالى - أنَّ ذلك ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾.

والمشهور في تفسير هذا الحرف أنَّه بمعنى: يُحْرَقُون، ولكن لفظة «على» تعطي معنىً زائدًا على ما ذكروه، ولو كان المراد نفس الحريق لقيل: يوم هم في النَّار يفتنون.

ولهذا لمَّا عَلِمَ هؤلاء ذلك قال كثيرٌ منهم: «على» بمعنى «في»، كما تكون «في» بمعنى «على».

والظاهر أنَّ فتنتهم على النَّار قبلَ فتنتهم فيها، فَلَهُم عند عرضهم عليها ووقوفهم عليها فتنةٌ، وعند دخولها والتعذيب بها فتنةٌ أشدُّ منها.

فَهُم ومَنْ جعل «الفتنةَ» هاهنا من: الحريق؛ أخذه من قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ [البروج:١٠]، واستشهد علىٰ ذلك - أيضًا - بهذه اللفظة التي في «الذَّاريات».

وحقيقة الأمر أنَّ «الفتنة» تطلق علىٰ العذاب وسببه، ولهذا سمَّىٰ اللهُ الكفر: فتنةً، فهم لمَّا أَتَوا بالفتنة -التي هي أسباب العذاب- في الدنيا سمَّىٰ جزاءهم: فتنةً، ولهذا قال: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾، وكان وقوفُهم علىٰ النَّار وعرضُهم عليها من أعظم فتنتهم، وآخر هذه الفتنة دخولُ النَّار، والتعذيبُ بها.

فَفُتِنُوا أَوَّلًا بأسباب الدنيا وزينتها، ثُمَّ فُتِنُوا بإرسال الرُّسُل إليهم، ثُمَّ فُتِنُوا بمخالفتهم وتكذيبهم، ثُمَّ فُتِنُوا بعذاب الدنيا، ثُمَّ فُتِنُوا بما بعد الموت، ثُمَّ يُفْتَنُون في موقف القيامة، ثُمَّ إذا حُشِرُوا إلىٰ النَّار ووُقِفُوا عليها، وعُرِضُوا عليها، وذلك من أعظم فتنتهم، ثُمَّ الفتنة الكبرىٰ التي أنستهم جميع الفتن قبلها.

ص: ٤٤٠

فصل

فضيلة قيام الليل بالصلاة والذكر

ثُمَّ ذكر - سبحانه - جزاء من خَلَصَ من هذه الفتن بالتقوىٰ، وهو: الجَنَّاتُ والعيون، وأنَّهم آخذون ما آتاهم ربُّهم من الخير والكرامة.

ثُمَّ ذكر السبب الذي أوصلهم إلىٰ ذلك، وهو إحسانُهم المتضمِّنُ لعبادته وحده لا شريك له، والقيامِ بحقوقِهِ وحقوقِ عباده.

ثُمَّ ذكر لَيْلَهم، وأنَّهم قليلٌ هُجُوعُهم منه.

وقد قيل: إنَّ «ما» نافية، والمعنىٰ: ما يهجعون قليلًا من الليل، فكيف بالكثير؟

وهذا ضعيفٌ لوجوه:

أحدها: أنَّ قيامَ من نام من الليل نِصْفَه أحبُّ إلىٰ الله مِنْ قيام مَنْ قامَهُ كلَّه.

الثاني: أنَّهُ لو كان المراد بذلك إحياء الليل جميعِهِ لكان أَوْلَىٰ النَّاس بهذا رسولُ الله ﷺ، وما قام ليلةً حتَّىٰ الصَّبَاح.

الثالث: أنَّ الله - سبحانه - إنَّما أمر رسوله أنْ يتهجَّدَ بالقرآن من الليل؛ لا في الليل كلِّه، فقال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾ [الإسراء:٧٩].

الرابع: أنَّ الله - تعالىٰ - أَثْنَىٰ عليهم بأنَّهم كانت ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة:١٦]، وهذه المضاجع إنَّما هي مضاجع النَّوم، فكانت جُنُوبُهم تتجافىٰ وتقلق عنها حتَّىٰ يقوموا إلىٰ الصلاة، ولهذا جازاهم عن هذا التجافي - الذي سببه قَلَقُ القلب واضطرابُه حتَّىٰ يقوموا إلىٰ الصلاة - بِقُرَّةِ الأَعْيُنِ.

الخامس: أنَّ الصحابة - الذين هم أوَّلُ وأَوْلَىٰ من دخل في هذه الآية - لم يفهموا منها عدم نومهم بالليل أصلًا.

وقيل: «ما» زائدةٌ، وخَبَرُ «كان»: «**يهجعون**»، و«**قليلًا**» منصوبٌ:

١ - إمَّا علىٰ المصدريَّة، أي: هُجُوعًا قليلًا.

٢ - وإمَّا علىٰ الظَّرْف، أي: زمنًا قليلًا.

وقيل: «ما» مَصْدَرِيَّةٌ، وهي في موضع رَفْعٍ بـ«قليل»، أي: كانوا قليلًا هُجُوعُهم. وهو قولٌ حَسَنٌ.

وقيل: إنَّ «ما» موصولةٌ بمعنىٰ «الذي»، والعائد محذوفٌ، أي: قليلٌ من الليل الوقت الذي يهجعونه. وفيه تكلُّفٌ.

ثُمَّ أخبر عنهم بأنَّهم مع صلاتهم بالليل كانوا يستغفرون الله عند السَّحَر، فخَتَمُوا صلاتهم بالاستغفار والتوبة، فباتوا لربِّهم سُجَّدًا وقيامًا، ثُمَّ تابوا إليه واستغفروه عقيب ذلك.

وكان النبيُّ ﷺ إذا سلَّم من صلاته استغفر ثلاثًا[1]. وأمره الله - سبحانه - أن يختم عمره بالاستغفار. وأمر عباده أن يختموا إفاضتهم من عرفات بالاستغفار. وشَرَعَ ﷺ للمتوضِّئ أن يختم وضوءَهُ بالتوبة[2]. فأحسنُ ما خُتِمَتْ به الأعمالُ: التوبةُ والاستغفارُ.

ثُمَّ أخبر - سبحانه - عن إحسانهم إلىٰ الخَلْق مع إخلاصهم لربِّهم، فَجَمَعَ لهم بين الإخلاص والإحسان، ضِدُّ حال ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ٧﴾ [الماعون:٦، ٧].

وأكَّدَ إخلاصَهم في هذا الإحسان بأنَّ مَصْرِفَهُ ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾، الذي لا يُقْصَدُ بعطائه الجزاءُ منه ولا الشكورُ. و«المحروم»: المتعفِّفُ الذي لا يسأل.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٩١).

(٢) أخرجه الترمذي (٥٥) وضعفه.

وتأمَّلْ حكمة الرَّبِّ - تعالىٰ - في كونه حَرَمَهُ بقضائه، وشَرَعَ لأصحاب الجِدَةِ إعطاءَهُ، وهو - سبحانه - أغنىٰ الأغنياء، وأجود الأجودين. فلم يجمع عليه بين الحِرْمَان بالقَدَر وبالشرع، بل شرع عَطَاءَهُ بأمره، وحَرَمَهُ بِقَدَرِهِ، فلم يجمع عليه حِرْمَانَين.

فصل

ص: ٤٤٦

من آيات الله تعالى: الأفقية والنفسية

ثُمَّ ذكَّرَهُم - سبحانه - بآياته الأُفُقِيَّة والنَّفْسِيَّة، فقال تعالىٰ: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

فآياتُ الأرض أنواعٌ كثيرةٌ:

منها خَلْقُها، وحُدُوثها بعد عَدَمِها، وشواهد الحدوث والافتقار إلىٰ الصانع عليها لا تُجْحَد، فإنَّها شواهدُ قائمةٌ بها.

ومنها بُرُوز هذا الجانب منها عن الماء، مع كون مقتضىٰ الطبيعة أن يكون مغمورًا به.

ومنها سَعَتُها، وكِبَرُ خَلْقِها.

ومنها تَسْطِيحُها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ٢٠]، ولا ينافي ذلك كونها كُرَةً. فهي كُرَةٌ في الحقيقة، لها سَطْحٌ يستقرُّ عليه الحيوان.

ومنها أنَّه جعلها فراشًا لتكون مَقَرًّا للحيوان ومساكنه، وجعلها قرارًا.

وجعلها مهادًا، وجَعَلَها ذَلُولًا تُوطَأُ بالأقدام، وتُضْرَبُ بالمَعَاوِل والفُؤوس، وتَحْمِلُ علىٰ ظهرها الأبنيةَ الثِّقَالَ. فهي ذَلُولٌ مُسَخَّرَةٌ لما يريد العبدُ منها.

وجعلها بِسَاطًا، وجعلها كِفَاتًا للأحياء تَضُمُّهم علىٰ ظهرها، وللأمواتِ تضمُّهم في بَطْنها.

وطَحَاها؛ فَمَدَّها، وبَسَطَها، وَوَسَّعَها، ودَحَاها، فهيَّأَها لما يُرَادُ منها بأن أخرج منها ماءها ومَرْعَاها، وشقَّ فيها الأنهار، وجعل فيها السُّبُلَ والفِجَاجَ.

ومن آياته أنْ جعلها مختلفةَ الأجناسِ، والصفاتِ، والمنافعِ، مع أنَّها قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ، متلاصِقةٌ:

فهذه سَهْلَةٌ، وهذه حَزْنَةٌ[١] تُجَاوِرُها وتلاصِقُها.

وهذه طَيِّبَةٌ تُنبِتُ، وتلاصِقُها أرضٌ لا تُنْبِت.

وهذه ثَرِيَّةٌ[٢]، وتلاصقُها رمال.

وهذه صُلْبَةٌ، وتلاصقها وتليها رِخْوَةٌ[٣].

وهذه سوداء، وتليها أرضٌ بيضاء.

وهذه حصىً كلُّها، وتجاورها أرضٌ لا يوجد فيها حجر.

وهذه تصلح لنبات كذا وكذا، وهذه لا تصلح له بل تصلح لغيره.

وهذه سَبِخَةٌ[٤] مالحة، وهذه بضدِّها.

وهذه ليس فيها جَبَلٌ، ولا مَعْلَمٌ، وهذه مُسَجَّرةٌ[٥] بالجبال.

ومن الآيات التي فيها وَقَائِعُهُ - سبحانه - التي أَوْقَعَها بالأُمم المكذبين لرسله، المخالفين لأمره، وأبقىٰ آثارهم دالَّةً عليهم كما قال تعالىٰ: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ ﴾ [العنكبوت:٣٨].

---

(١) السَّهْلُ ضدُّ الحَزْنِ، والحَزْنُ: ما غَلُظَ من الأرض. «القاموس» (١٥٣٥).

(٢) أرض ثَرِيَّة: أي نَدِيَّة. «القاموس» (١٦٣٥).

(٣) أرضٌ رِخْوَة - بكسر الراء على الأفصح - أي: هَشَّةٌ لَيِّنَةٌ. «لسان العرب» (٥/ ١٨١).

(٤) أرضٌ سَبِخَةٌ - بكسر الباء - أي: ذات ملحٍ ونَزٍّ - وهو ما يتحلَّب من الأرض من الماء . انظر: «مختار الصحاح» (٣٠٤، ٦٧٩).

(٥) معنىٰ «مُسَجَّرة» أي: ممتلئةٌ منها. «لسان العرب» (٦/ ١٧٧).

وقال - تعالىٰ - في قوم لوط: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ الصافات: ١٣٧، ١٣٨]، وقال تعالىٰ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الحجر:٧٣-٧٦] أي: بطريقٍ ثابتٍ لا يزول عن حاله، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر:٧٧].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾ [الحجر:٧٨، ٧٩]؛ أي: دِيَارُ هاتَين الأُمَّتَين لَبطريقٍ واضحٍ يمُرُّ به السَّالِكُون.

وقال تعالىٰ: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم:٤٥].

وقال عن قوم عاد: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف:٢٥].

وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ [السجدة:٢٦].

ومن الآيات التي في الأرضِ ما يُحْدِثُه فيها كلَّ وقتٍ ممَّا يُصدِّق رُسُلَهُ فيما أخبرَتْ به، فلا تزال آياتُ الرُّسُلِ، وأعلامُ صِدْقِهم، وأدلَّةُ نُبوَّتهم يُحدِثُها الله - سبحانه وتعالى - في الأرض، إقامةً للحُجَّةِ على مَنْ لم يُشَاهِد تلك الآيات التي قارَبَت عَصْرَ الرسول، حتَّى كأنَّ أهلَ كلِّ قَرْنٍ يشاهدون ما يشاهده الأَوَّلُون أو نظيره، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣].

وهذه الإِرَاءَةُ لا تختصُّ بقَرْنٍ دون قَرْنٍ، بل لا بدَّ ما يُري اللهُ - سبحانه - أهلَ كُلِّ قَرْنٍ من الآيات ما يبيِّنُ لهم أنَّه اللهُ الذي لا إله إلا هو، وأنَّ رُسُلَهُ صادقون.

وآياتُ الأرض أعظمُ ممَّا ذُكر وأكثر، فنبَّهَ باليسير منها علىٰ الكثير.

فصل

ص: ٤٥٧

حث القرآن الكريم على تفكر الإنسان في ذاته

ثُمَّ قال تعالىٰ: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١]، لمَّا كان أقربُ الأشياء إلىٰ الإنسان نفسَهُ؛ دعاهُ خالقُه وبارئه ومصوِّرُه وفاطِرُه من قَطْرة ماءٍ إلىٰ التبصُّرِ والتفكُّرِ في نفسه.

فإذا تفكَّرَ الإنسانُ في نفسه استَنَارَتْ له آياتُ الربوبية، وسَطَعَتْ له أنوارُ اليقين، واضمحلَّتْ عنه غَمَراتُ الشكِّ والرَّيْب، وانْقَشَعَتْ عنه ظلماتُ الجهل.

فإنَّه إذا نظر إلىٰ نفسه وجد آثارَ التدبير فيه قائمةً، وأدلَّةَ التوحيد علىٰ ربِّه ناطِقةً شاهِدةً لمُدَبِّره، دالَّةً عليه، مرشِدَةً إليه؛ إذ يَجِدُهُ مُكَوَّنًا من قطرة ماءٍ: لحومًا مُنَضَّدَةً، وعظامًا مركَّبَةً، وأوصالًا متعدِّدةً، مَأْسُورَةً مشدُودةً بحبال العُرُوق والأعصاب، قد قُمِطَتْ وشُدَّتْ، وجُمِعَتْ بجلدٍ متينٍ، مشتملٍ علىٰ ثلاثمائةٍ وستين مَفْصِلًا، ما بين كبيرٍ وصغيرٍ، وثَخِينٍ ودقيقٍ، ومستطيلٍ ومستديرٍ، ومستقيمٍ ومُنْحَنٍ، وشُدَّت هذه الأوصال بثلاثمائة وستين عِرْقًا، للاتصالِ والانفصالِ، والقَبْضِ والبَسْطِ، والمَدِّ والضَّمِّ، والصنائع والكتابة.

وجعل فيه تسعةَ أبوابٍ: فبابان للسَّمع، وبابان للبصر، وبابان للشَّمِّ، وبابٌ للكلام والطعام والشراب والنَّفَسِ، وبابان لخروج الفَضَلات التي يُؤْذِي احتباسُها.

وجعل داخل بَابَي السَّمع مُرًّا قاتِلًا؛ لئلا تَلِجَ فيهما دابةٌ تَخْلُصُ إلىٰ «الدِّمَاغ» فتؤذيه.

وجعل داخل بابي البصر مالحًا؛ لئلَّا تُذِيبَ الحرارةُ الدائمةُ ما هناك من الشَّحْم.

وجعل داخل باب الطعام والشراب حُلْوًا؛ ليُسِيغَ به ما يأكله ويشربه، فلا يتنغَّصُ به لو كان مُرًّا أو مالحًا.



وجعل له مِصْبَاحَين من نورٍ كالسِّرَاجَين المُضِيئَين، مركَّبين في أعلىٰ مكانٍ منه، وفي أشرف عُضْوٍ من أعضائه، طليعةً له.

وجعل علىٰ مَحَلِّه غَلْقًا بمِصْرَاعَين أعلَىٰ وأسفل، وركَّبَ في ذَينِكَ المِصْرَاعَين «أهْدَابًا» من الشَّعْر؛ وِقَايَةً «للعَينَين»، وزينةً وجمالًا.

وجعل فوق ذلك كلِّه «حاجِبَين» من الشَّعْر، يَحْجُبَان «العين» من العَرَقِ النَّازل من فَوق، ويَتَلَقَّيَانِ عنها ما ينصَبُّ من هناك.

ولمَّا كانت «العين» كالمرآة، التي إنَّما تنطبع فيها الصُّوَر إذا كانت في غاية الصَّقَالَة والصَّفَاء = جعل - سبحانه - هذه «الأجفان» متحرِّكَةً - جدًّا - بالطَّبْع إلىٰ الانطباق، من غير تكلُّفٍ، لتبقىٰ هذه المرآة نقيَّةً صافيةً من جميع الكُدْرَات[1].

فصل

ص: ٤٦٠

العينان هما مرآة القلب

وكما جعل - سبحانه - «العَينَين» مؤدِّيتين «للقلب» ما تَريانه، فتُوصِلانه إليه كما رَأَتَاهُ = جعلهما مرآتين «للقلب»، يظهر فيهما ما هو مُودَعٌ فيه من الحُبِّ والبُغْضِ، والخيرِ والشَّرِّ، والبَلَادَةِ والفِطْنَةِ، والزَّيغ والاستقامة.

فيُستَدَلُّ بأحوال «العين» على أحوال «القلب»، وهو أحد أنواع الفِرَاسَة الثلاثة، وهي: فراسة «العين»، وفراسة «الأُذُن»، وفراسة «القلب».

فـ«العين» مرآةٌ «للقلب»، وطليعةٌ ورسولٌ.

(١) «الكُدْرات» جمع: كُدْرَة؛ وهي نقيض الصَّفَاء. «تاج العروس» (١٤/ ٢٢).

ص: ٤٦١

فصل

من أدلة الإتقان في خلق الله: الأذنان

ومن ذلك: «الأُذُنَان». شَقَّهُما - تبارك وتعالىٰ - في جانبي الوجه، وأَوْدَعَهما من الرطوبة ما يكون مُعينًا علىٰ إدراك السَّمعِ، وأَوْدَعَهما القوَّةَ السَّامعة، وأحاط علىٰ هذه القوَّةِ صَدَفَةً مستديرةً مجوَّفةً تَحْتَوِشُ الصوتَ وتجمعه، وتؤدِّيه إلىٰ «الصِّمَاخ» فيؤدِّيه إلىٰ القوَّة السَّامعة.

وجعل - سبحانه - في هذه الصَّدَفَةِ انحرافاتٍ واعوِجَاجَاتٍ، لتطول المسافة قليلًا، فلا يصل الهواء إلىٰ داخل «الأُذُن» إلَّا بعد انكسار حِدَّته، فلا يصدمها وَهْلَةً واحدةً فيؤذيها.

وأيضًا؛ فَلِئلَّا يَفْجَأَها الداخلُ إليها من الدبيب والحشرات، بل إذا دخل إلىٰ عَوْجَةٍ من تلك الانعطافات وقَفَ هناك، فسهُلَ إخراجه.

وأيضًا؛ فتُمسك ما يصل إليها من الغبار والوسخ، فيَنْحجِبُ هناك عن الوصول، فيسهُلُ إخراجه.

وكانت «العَينَان» في وسط الوجه و«الأُذُنَان» في جانبيه؛ لأنَّ «العَينيَن» مَحَلُّ المَلَاحة والزِّينة والجَمَال، وهما بمنزلة النُّور الذي يمشي به بين يدي الإنسان.

وأمَّا «الأُذُنَان» فكان جَعْلُهما في الجانبين لكون إدراكهما لما خلف الإنسان، وأمامه، وعن يمينه، وعن شماله = سواءً، فتأتي المسموعات إليهما علىٰ نسبةٍ واحدةٍ.

وخُلقت «العَينَان» بغِطَاءٍ، و«الأُذُنان» بغير غطاءٍ. وهذا في غاية الحكمة؛ إذ لو كان للأذنين غطاءٌ لَمَنع الغطاء إدراك الصوت، فلا يحصل إلا بعد ارتفاع الغطاء، والصوتُ عَرَضٌ لا ثبات له، فكان يزول قبل كشْفِ الغطاء، بخلاف ما تراه «العين»، فإنَّه أجسامٌ وأعراضٌ ثابِتةٌ؛ فلا تزول فيما بين كشف الغطاء وفتح «العين».

ص: ٤٦٢

فصل

من أدلة الإتقان في خلق الله: الأنف

ومن ذلك: «الأَنْفُ»؛ نَصَبَهُ اللهُ - سبحانه وتعالىٰ - في وَسْط الوجه قائمًا معتدلًا، في أحسن شَكْلٍ وأَوْفَقِهِ للمنفعة، وأَوْدَعَهُ حاسَّةَ الشَّمِّ، التي يُدْرِكُ بها الأَرَايح وأنواعها، وكيفياتها، ومنافعَها، ومضارَّها. ويستدلُّ بها علىٰ مَضَارِّ الأغذية والأدوية ومنافِعِها.

وأيضًا؛ فإنَّه يستنشِقُ بـ«المِنْخَرَين» الهواءَ الباردَ الرَّطْبَ، فيؤدِّيه إلىٰ «القلب»، فيتروَّحُ به، فيستغني بذلك عن فتح «الفَمِ» أبدًا.

وجعل تجويفه بقَدْر الحاجة، فلم يوسِّعْهُ عن ذلك، فيَدْخُلَه هواءٌ كثيرٌ، ولم يضيِّقهُ فلا يَدْخُلَه من الهواء ما يكفيه.

وجعل ذلك التجويفَ مستطيلًا؛ لينحصر فيه الهواء، وينكسر فيه بَرْدُه وحِدَّته قبل أن يصل إلىٰ «الدِّمَاغ»، فلولا ذلك لَصَدَمه بِحِدَّتِه وقوَّتِه.

وكما أنَّ تجويفَهُ جُعِلَ لاستنشاق الهواء، فإنَّه جُعل مَصَبًّا لفَضَلات «الدِّمَاغ»، تنحَدِرُ منه في تلك القَصَبَة، فتخرج، فيستريح «الدِّمَاغ».

ولذلك جَعَلَ عليها سِتْرًا ولم يجعلها بارِزةً فتستَقْبِحَها العيونُ.

وجُعل فيه تجويفَانِ، فإنَّه قد يَنْسَدُّ أحدُهما أو تَعْرِضُ له آفةٌ تمنعُه من الإدراكِ والاستنشاقِ، فيبقىٰ التجويف الثاني نائبًا عنه، يعمل عمله، كما اقتضت الحكمة مثل ذلك في «العَينيَن» و«الأُذُنين».

فصل

ص: ٤٦٤

من أدلة الإتقان في خلق الله: الفم

وأمَّا «الفَمُ» فمَحَلُّ العجائب، وباب الطعام والشَّراب والنَّفَس والكلام، ومسْكَنُ اللِّسان النَّاطقِ الذي هو آلةُ العلوم، وتَرْجَمَانُ «القلب» ورسولُه المؤدِّي عنه.

ثُمَّ جَعَلَ في «الحَنْجَرَة»، و«الحَنَك»، و«اللِّسَان»، و«الشَّفَتين»، و«الأسنان» مقاطِعَ ومخارِجَ مختلفةً، بسبب اختلافها تميَّزَتِ الحروفُ بعضُها عن بعضٍ، ثُمَّ أَلْهَمَ العبدَ تركيبَ تلك الحروف ليؤدِّي بها عن «القلب» ما يأمر به.

فتأمَّلْ هذه الحكمةَ الباهِرَةَ؛ حيث لم يُضِعْ - سبحانه - ذلك النَّفَسَ المُسْتَغْنَىٰ عنه المُحْتَاجَ إلىٰ دَفْعه وإخراجه، بل جَعَلَ فيه - إذا استُغْنِي عنه - منفعةً ومصلحةً هي من أكمل المنافع والمصالح. فإنَّ المقصود الأصليَّ من النَّفَس هو إيصالُ النَّسِيمِ البارِدِ إلىٰ «القلب». فأمَّا إخراجُ النَّفَس فهو جارٍ مَجْرَىٰ دَفْع الفَضْلَةِ الفاسدةِ، فصَرَفَ ذلك - سبحانه - إلىٰ رعايةٍ تُصْلِحُهُ، ومنفعةٍ أخرىٰ، فجعله سببًا للأصوات والحروف والكلام.

ثُمَّ إنَّه - سبحانه - جعل «الحَنَاجِر» مختلفة الأشكال في الضِّيقِ، والسَّعَة، والخُشُونة، والمَلَاسَة؛ لتختلف الأصواتُ باختلافها، فلا يتشابه صوتان، كما لا تتشابه صورتان.

وأَوْدَعَ «اللِّسانَ» من المنافع: منفعةَ الكلام - وهي أعظمها -، ومنفعةَ الذَّوْق والإدراك.

وجعل - سبحانه - «اللِّسانَ» عُضْوًا لحميًّا، لا عَظْمَ فيه ولا عَصَب؛ لتسهُلَ حركته.

ولهذا لا تجد في الأعضاء مَنْ لا يكْتَرِثُ بكثرة الحركة سواه، فإنَّ أيَّ عُضْوٍ من

الأعضاء إذا حَرَّكْتَهُ كما تحرِّكُ «اللِّسان» لم يُطِعْكَ لذلك، ولم يلْبَثْ أنْ يَكِلَّ ويَخْلُدَ إلىٰ السُّكُون، إلا «اللِّسان».

وجعل - سبحانه - على «اللِّسان» غَلَقَين:

أحدهما: «الأسنان».

والثاني: «الفَم».

وجعل حركته اختياريَّة.

وجعل على «العين» غطاءً واحدًا، ولم يجعل على «الأُذُن» غطاءً؛ وذلك لخطر «اللِّسَان» وشَرَفه، وخطر حركاته، وكونه في «الفَمِ» بمنزلة «القلب» في الصَّدْر.

وفي ذلك من اللَّطَائف: أنَّ آفة الكلام أكثرُ من آفة النَّظَر، وآفة النَّظَر أكثرُ من آفة السَّمع. فجعل للأكثر آفاتٍ طبقتين، وللمتوسِّط طبقًا، وجعل الأقلَّ آفة بلا طبق.

فصل

ص: ٤٦٨

من أدلة الإتقان في خلق الله: ما يوجد داخل الفم

وجعل - سبحانه - «الفَمَ» أكثرَ الأعضاء رُطُوبةً، والرِّيقُ يتحلَّلُ إليه دائمًا لا يُفَارِقُه.

وجعله حُلْوًا لا مالحًا كماء «العين»، ولا مُرًّا كالذي في «الأُذُن»، ولا عَفِنًا كالذي في «الأنف»، بل هو أعذَبُ مياه البدن وأحلاها، حكمةٌ بالغةٌ؛ فإنَّ الطعام والشراب يخالطه، بل هو الذي يُحِيلُ الطعامَ، ويمتزجُ به امتزاجَ العجين بالماء، فلولا أنَّه حُلْو لما الْتَذَّ الإنسانُ - بل ولا الحيوان - بطعامٍ ولا شرابٍ، ولا سَاغَهُ إلا علىٰ كُرْهٍ وتنغيصٍ.

ولمَّا كان كثيرٌ من الطعام لا يمكن جَبْذُهُ إلا بعد طَحْنِهِ؛ جعل الرَّبُّ - تعالىٰ - له آلةً للتقطيع والتفصيل، وآلةً للطَّحْن. فجعل آلةَ القَطْع - وهي «الثَّنايا» وما يليها - حادَّةَ الرؤوس ليسهُلَ بها القَطْع. وجعل «النَّوَاجِذَ» وما يليها من «الأَضْرَاس» مُسَطَّحَةَ الرؤوس، عريضةً، ليتأتَّىٰ بها الطَّحْنُ. ونَظَمَها أحسنَ نظام كاللؤلؤ المنظُومِ في سلْكٍ، وجعلها من الجانب الأعلىٰ والأسفل؛ ليتأتَّىٰ بها القطع والطَّحْن.

ومن عجيب أمرها الاتفاقُ والمُوَالَاةُ التي بينها وبين «المعدة»، فإنَّه يُسَلِّمُ إليها الشيء اليابسُ والصُّلْبُ فتطْحَنه، ثُمَّ تُسَلِّمه إلىٰ «اللِّسان» فيعجِنُه، ثُمَّ يسلِّمه إلىٰ «الحَلْق» فيوصله إلىٰ «المعدة» فتُنْضِجُه وتطبخه.

فصل

ص: ٤٧٠

من أدلة الإتقان في خلق الله: الشعر

ثُمَّ تأمَّلْ حال «الشَّعْر»، ومَنْبَته، وسببه، وغايته.

فإنَّ في«شَعْر الرأس» منافع ومصالح:

١ - منها وقايته عن الحر والبرد والمرض.

٢ - ومنها الزِّينة والحُسْن.

وأمَّا شَعْر «الحاجِبَين» ففيه - مع الحُسْن والزِّينة والجَمَال - وِقايةُ «العَينَين» ممَّا ينحدر من «الرأس».

وأمَّا شَعْر «اللِّحْيَة» ففيه منافع:

١ - منها الزِّينة، والجمال، والوقار، والهَيْبَة. ولهذا لا يُرَىٰ علىٰ الصبيان والنِّساء والسِّنَاطِ[1] من الهَيْبَة والوقار ما يُرَىٰ علىٰ ذوي اللِّحَىٰ.

---

(١) «السِّنَاط» هو: الكَوْسَج الذي لا لحية له أصلاً. «مختار الصحاح» (٣٣٨).

٢ - ومنها التمييز بين الرجال والنِّساء.

وأمَّا شَعْر «العَانَة» و«الإبط» و«الأنف»؛ فمنفعته تنقية البدن عن الفَضْلَة، ولهذا إذا أُزِيلَ من هذه المواضعِ وجَدَ البدنُ خِفَّةً ونشاطًا، وإذا وَفَرَ وتُرِكَ وجد البدنُ ثِقَلًا وكَسَلًا وغمًّا.

ولهذا جاءت الشريعة بحَلْق «العَانَة»، ونَتْفِ «الإبِط». وكان حَلْقُ «العَانَة» أولىٰ من نَتْفِها لصَلَابة «الشَّعْر»، وتَأَذِّي صاحبه بنتفه. وكان نَتْفُ «الإبِط» أولىٰ من حَلْقه لضَعْف «الشَّعْر» هناك، وشدَّته وتَفَحُّلِهِ بالحَلْق. فجاءت الشريعة بالأنفع في هذا وهذا.

وتأَمَّلْ حكمة الرَّبِّ - تعالىٰ - في كونه أخلَىٰ «الكَفَّين» و«الجَبْهَة» و«الأَخْمَصَين»[١] من «الشَّعْر». فإنَّ «الكَفَّين» خُلِقا حاكمين علىٰ الملموسات، فلو جُعِل «الشَّعْر» فيهما لأَخَلَّ ذلك بالحكمة التي خُلِقا لها.

وخُلِقا للقبض، وإلصاقُ اللَّحَم علىٰ المقبوض أعْوَنُ علىٰ جودته من التصاق «الشَّعْر» به.

وأيضًا؛ فإنَّهما آلة الأخذ، والعطاء، والأكل، ووجود «الشَّعْر» فيهما يُخِلُّ بتَمَامِ هذه المنفعة.

وأمَّا «الأَخْمَصَان» فلو نَبَتَ فيهما «الشَّعْر» لأضرَّ ذلك بالماشي، ولأَعَاقَهُ في المشي كثيرًا ممَّا كان يَعْلَقُ بشَعْره ممَّا علىٰ الأرض، ويتعلَّقُ شَعْرُه بما عليها أيضًا.

وأمَّا «الجَبْهَة» فلو نبت «الشَّعْر» عليها لسَتَر محاسِنَها، وأظلم الوجه، وتدلَّىٰ

---

(١) «الأَخْمَصان»: مثنَّىٰ: الأَخْمَص، وهو ما جَفَا عن الأرض من باطن القَدَم. انظر: «خلق الإنسان» لابن أبي ثابت (٣٢٣).

إلىٰ «العينين»، فكان يحتاج إلىٰ حَلْقه دائمًا، ومَنَعَ «العينين» من كمال الإدراك.

ولا تَسْتَطِلْ هذا الفصل؛ فإنَّ أمر «الشَّعْر» من السَّمِّيَّات والفَضَلات وهذا شأنه، فما الظَّنُّ بغيره من الأجزاء الأصليَّة؟

فإذا كانت هذه قليلًا من كثيرٍ من حكمة الرَّبِّ - تعالى - في «الشُّعُور»، ومواضعها، ومنافعها؛ فكيف بحكمته في: «الرأس»، و«القلب»، و«الكبد»، و«الصَّدْر»، وغيرها؟

ولا تَضْجَر من ذلك، فإنَّ الخَلْقَ فيه من الفقه والحِكَم نظيرُ ما في الأمر، فالرَّبُّ - تعالى - حكيمٌ في خَلْقه وأمره، ويُحِبُّ من يَفْقَهُ عند ذلك، ويستدلَّ به عليه وعلى كمال حكمته، وعلمه، ولُطْفِه، وتدبيره، فإذا كان الرَّبُّ - تعالى - لم يَضَعْ هذه الفضلات في الإنسان سُدَىً فما الظنُّ بغيرها؟

فصل

ص: ٦٠٨

من أدلة الإتقان في خلق الله: بدء الخلق من نطفة

فاستقبل الآن النظر في نفسك من رأسٍ، وانظر إلىٰ المبدأ الأوَّل وهو «النُّطْفَة»؛ التي هي قطرةٌ مهينةٌ ضعيفةٌ، لو تُرِكَت ساعة لبَطَلَت وفَسَدَت، كيف أخرجها رَبُّ الأرباب من بين الصُّلْب والترائب؟! وكيف أوقع المحبة والإلْفَ بين الذَّكَر والأنثىٰ، ثُمَّ قادهما بسلسلة المحبة والشهوة إلىٰ الاجتماع، ثُمَّ استخرج «النُّطْفَة» من الذَّكَر بحركة الوِقَاع من أعماق «العُرُوق»، وجمَعَها في «الرَّحِم» في قرارٍ مكينٍ، لا تناله يدٌ، ولا تطلع عليه شمسٌ، ولا يصيبه هواءٌ، ثُمَّ صرَّف تلك «النُّطْفَة» طَوْرًا بعد طَوْرٍ، وطَبَقًا بعد طَبَقٍ، وغَذَّاها بدم الحيض.

وكيف جعل - سبحانه - «النُّطْفَةَ» - وهي بيضاء مشرقة - عَلَقَةً حمراء، ثُمَّ جعلها مُضْغَةً، ثُمَّ قسَّمَ أجزاء «المُضْغَة» إلىٰ: «العظامِ»، و«الأعصابِ»، و«العُرُوقِ»،

و«الأوتارِ»، و«اللَّحْمِ» في داخل «الرَّحِم» في الظلمات الثلاث.

ثُمَّ تأمَّلْ هذه القُبَّةَ العظيمةَ التي قد رُكِّبَت علىٰ «المَنْكِبين»، وما أُودِعَ فيها من العجائب، وما رُكِّبَ فيها من الخزائن، وما أُودِعَ في تلك الخزائن من المنافع، وما اشتملت عليه هذه القُبَّة من «العظام» المختلفة الأشكال والصفات والمنافع؛ ومن الرُّطُوبات، و«الأعصاب»، والطرق، والمجاري، و«الدِّماغ»، والمنافذ، والقُوىٰ الباطنة من الذِّكْرِ، والفِكْرِ، والتخييل، وقوَّةِ الحفظ.

وتأمَّلْ كيف انقلبت تلك «النُّطْفَة» اللَّيِّنَة الضعيفة إلىٰ «العظام» الصُّلْبة الشديدة؟

ثُمَّ تأمَّلْ كيف قدَّرَ - سبحانه - كلَّ واحدٍ من تلك «العظام» بشكلٍ مخصوصٍ، لو وُضِع بخلافِ ذلك لبطلت المنفعة، وفاتَ الغَرَض. ثُمَّ ركَّبَ بعضَها مع بعضٍ؛ بحيث حصل من مجموعها «كُرَةُ الرأس» علىٰ هذه الخِلْقَة المخصوصة.

ولمَّا كان «الرأسُ» أشرفَ الأعضاء الإنسانية، وأجمَعَها للقُوىٰ والمنافع والآلات والخزائن = اقتضت العناية الإلهيَّة بأن صِينَ بأنواعٍ من الصيانات.

و«الدِّمَاغ» من «الرأس» بمنزلة «القلب» من البدن.

واختلف الفقهاء: هل العقل في «القلب» أو في «الدِّماغ»؟ علىٰ قولين؛ حُكِيا روايتين عن الإمام أحمد.

والتحقيق: أنَّ أصلَهُ ومادَّتَهُ من «القلب»، وينتهي إلىٰ «الدِّمَاغ». قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج:٤٦]، فجعل العقل بـ«القلب»، كما جعل السَّمْعَ بـ«الأُذُن»، والبَصَرَ بـ«العين».

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧]، قال غيرُ واحدٍ من السلف: «لمن كان له عقلٌ».

ص: ٦٢٣

فصل

أشرف ما في الإنسان قلبه

ثُمَّ انزِلْ إلىٰ «الصَّدْرِ»؛ تَرَىٰ معدنَ العلم، والحِلْم، والوقار، والسكينة، والبِرِّ، وأضدادِها. فتجد صدور العِلْيَة تغلي بالبرِّ، والخير، والعلم، والإحسان، وصدورَ السَّفِلَةِ[1] تغلي بالفجورِ، والشَّرِّ، والإساءةِ، والحَسَدِ، والمَكْرِ.

ثُمَّ انفُذْ من ساحة «الصَّدْر» إلىٰ مشاهدة «القلب»؛ تجد مَلِكًا عظيمًا جالسًا علىٰ سرير مملكته، يأمر وينهىٰ، ويولِّي ويعزِل. وقد حَفَّ به الأمراءُ والوزراء والجُند وكلُّهم في خدمته، إن استقامَ استقاموا، وإن زَاغَ زاغُوا، وإن صحَّ صَحُّوا، وإن فسد فسدوا، فعليه المُعَوَّلُ.

وهو مَحَلُّ نظر الرَّبِّ تعالىٰ، ومَحَلُّ معرفته، ومحبَّته، وخشيته، والتوكُّلِ عليه، والإنابةِ إليه، والرِّضَىٰ به وعنه. والعبوديةُ عليه أوَّلًا؛ وعلىٰ رعيَّته وجنده تبعًا.

فأشرفُ ما في الإنسان «قلبُه»، فهو العالِمُ بالله، العامِلُ له، السَّاعي إليه، المُحِبُّ له، فهو مَحَلُّ الإيمان والعرفان.

وهو المخاطَبُ المبعوثُ إليه الرُّسُلُ، المخصوصُ بأشرف العطايا، وهو الإيمان والعقل.

وإنَّما الجوارح أتباعٌ، وتُبَّعٌ «للقلب» يستخدمها استخدام الملوك للعبيد، والراعي للرعيَّة. والذي يسري إلىٰ الجوارح من الطاعات والمعاصي إنَّما هي آثاره، فإنْ أظْلَمَ أظْلَمَت الجوارح، وإن اسْتَنَارَ استنارت، ومع هذا فهو بين إصبعين من أصابع الرحمن ﷻ[2].

---

(١) «السَّفِلَة»: سَقَطُ الناسِ وغَوغاؤهم. «مختار الصحاح» (٣٢٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٤).

فسبحان مُقَلِّب القلوب، ومُودِعِها ما يشاء من أسرار الغيوب، الذي يحول بين المرء وقلبه، ويعلم ما ينطوي عليه من طاعته وذنبه.

ويطلق «القلب» علىٰ معنيين:

أحدهما: أمرٌ حِسِّيٌّ؛ وهو العضو اللَّحْميُّ الصَّنَوبَرِيُّ الشَّكْل، المُودَعُ في الجانب الأيسر من «الصَّدْر»، وفي باطنه تجويفٌ، وفي التجويف دَمٌ أسود، وهو منبع «الرُّوح».

والثاني: أمرٌ معنويٌّ؛ وهو لطيفةٌ ربَّانيةٌ رحمانيةٌ، روحانيَّةٌ، لها بهذا العضو تعلُّقُ اختصاصٍ. وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسانيَّة.

و«للقلب» جُنْدَان: جندٌ يُرَىٰ بالأبصار، وجندٌ يُرَىٰ بالبصائر.

فأمَّا جندُهُ المشاهَدَةُ: فالأعضاءُ الظاهرة والباطنة، وخُلِقَت خادِمةً له لا تستطيع له خلافًا. فإذا أَمَرَ «العينَ» بالانفتاح انفتحت، وإذا أمرَ «اللِّسَانَ» بالكلام تكلَّم، وإذا أمرَ «اليدَ» بالبطش بطَشَت، وإذا أمرَ «الرِّجْلَ» بالسعي سَعَت، وكذا جميع الأعضاء ذُلِّلَتْ له تذليلًا.

ولمَّا خُلِقَ «القلبُ» للسفر إلىٰ الله - تعالىٰ - والدار الآخرة، وجُعِلَ في هذا العالَم ليتزوَّدَ منه = افتقر إلىٰ المَرْكبِ والزَّادِ لسفره الذي خلق لأجله، فأُعِينَ بالأعضاء والقُوَىٰ، وسُخِّرَت له، وأُقِيمَت في خدمته؛ لتجلب له ما يوافقه من الغذاء والمنافع، ويدفع عنه ما يضرُّهُ ويهلكه، فافتقر إلىٰ جُنْدَين:

١ - باطنٍ؛ وهو الإرادة، والشهوة، والقُوىٰ.

٢ - وظاهرٍ؛ وهو الأعضاء.

فخلق في «القلب» من الإرادات والشهوات ما احتاج إليه، وخُلِقَت له الأعضاءُ

التي هي آلةُ الإرادة، واحتاج لِدَفْع المَضَارِّ إلىٰ جندين:

١ - باطنٍ؛ وهو الغضب الذي يدفع المُهْلِكَات، وينتقم من الأعداء.

٢ - وظاهرٍ؛ وهو الأعضاء التي يُنْفِذُ بها غَضَبَهُ، كالأسلحة للمقاتل.

ولا يتمُّ له ذلك إلا بمعرفته ما يَجْلِبُ وما يَدْفَعُ، فأُعِينَ بجُنْدٍ من العلم يكشف له حقائق ما ينفعه وما يضرُّه.

ولمَّا سُلِّطَت عليه الشهوةُ، والغضبُ، والشيطانُ؛ أُعِين بجندٍ من الملائكة، وجَعَلَ له مَحَلًّا من الحلال يُنْفِذُ فيه شهواتِه، وجَعَلَ بإزائه أعداءً له يُنْفِذُ فيهم غَضَبَهُ، فما ابتُلِيَ بصفةٍ من الصفات إلا وجُعِلَ له مَصْرِفٌ ومَحَلٌّ يُنْفِذُها فيه. فجُعِلَ لقوَّة الحَسَدِ فيه مَصْرِفُ المنافسة في فِعْلِ الخير، والغِبْطَة عليه، والمسابقة إليه.

ولقوَّة الكِبْرِ التكبُّرُ على أعداء الله - تعالى - وإهانتهم، وقد قال النبيُّ ﷺ لمن رآه يختال بين الصَّفَّين في الحرب: «إنَّهَا لمِشْيَةٌ يبغضُها اللهُ إلا في هذا المَوطِنِ»[1]. وقد أمر الله - سبحانه - بالغِلْظَة على أعدائه.

وجَعَلَ لقوَّة الحِرْصِ مَصْرِفًا، وهو الحرصُ على ما ينفع، كما قال النبيُّ ﷺ: «احرص على ما ينفعك»[2].

ولقوَّة الشهوة مَصْرِفًا، وهو التزوُّجُ بأربع، والتَّسَرِّي بما شاء.

ولقوَّة حُبِّ المال مَصْرِفًا، وهو إنفاقُه في مرضاته، والتزوُّدُ منه لمَعَاده. فمحبَّة المال علىٰ هذا الوجه لا تُذَمُّ.

ولمحبَّة الجَاهِ مَصْرِفًا، وهو استعماله في تنفيذِ أوامره، وإقامةِ دينه، ونَصْرِ

---

(١) أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» رقم (٥٠٥)، وهو يتقوىٰ ببعض الأحاديث التي تؤيد معناه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

المظلوم، وإغاثةِ الملهوف، وإعانةِ الضعيف، وقَمْعِ أعداء الله. فمحبَّةُ الرياسة والجاه علىٰ هذا الوجه عبادةٌ.

وجَعَلَ لقوَّة اللعب واللهو مَصْرِفًا، وهو لَهْوُهُ مع امرأته، أو بقوسِهِ وسَهْمِهِ، أو تأديبُهُ فَرَسَهُ.

وكلُّ ما أعانَ علىٰ الحقِّ فهو من الحقِّ، وكلُّ ما أعانَ علىٰ الباطل فهو من الباطل والضلال.

وجَعَلَ لقوَّة التحيُّلِ والمَكْرِ فيه مَصْرِفًا، وهو التحيُّلُ علىٰ عدوِّهِ وعدوِّ الله - تعالىٰ - بأنواع التحيُّلِ، حتَّىٰ يُرَاغِمَهُ ويردَّهُ خاسئًا، ويستعملَ معه من أنواع المَكْر ما يستعمله عدوُّهُ معه.

وهكذا جميع القُوى التي رُكِّبَت فيه، فإنَّها لا تزول، ولا يُطْلَبُ إعْدَامُها؛ وقد ركَبَها اللهُ فيه لمصالح اقتضتها حكمته، فلا يُطْلَبُ تعطيلها، وإنَّما تُصْرَفُ مجاريها من مَحَلٍّ إلى مَحَلٍّ، ومن موضعٍ إلى موضعٍ. ومن تأمَّلَ هذا الموضع وتفقَّه فيه؛ عَلِمَ شدَّةَ الحاجة إليه، وعظم الانتفاع به.

فصل

ص: ٦٣٠

أصول أمراض القلب أربعة

وجِمَاعُ الطرقِ والأبواب التي يُصابُ منها «القلب» وجنودُه: أربعةٌ، فمن ضَبَطَها، وعَدَّلَها، وأصلح مجارِيَها، وصرَّفَها في مَحَالِّها اللائقة بها = ضُبِطَتْ وحُفِظَتْ جوارحُه، ولم يشْمَتْ به عدوُّه، وهي: الحِرْصُ، والشهوةُ، والغَضَبُ، والحَسَدُ.

فهذه الأربعة هي أصول مجامع طرق الشَّرِّ والخير، وكما هي طرقٌ إلىٰ العذاب السَّرْمَدِيِّ، فهي طرقٌ إلىٰ النَّعيم الأَبَدِيِّ.

فـ«آدم» - أبو البشر ﷺ أُخرِجَ من الجنَّة بالحرص، ثُمَّ أُدخل إليها بالحرص، ولكن فرقٌ بين حرصه الأوَّل، وحرصه الثاني.

و«أبو الجنِّ» أُخرج منها بالحَسَد، ثُمَّ لم يُوَفَّق لمنافسةٍ وحَسَدٍ يُعِيدُهُ إليها، وقَد قال النبيُّ ﷺ: «**لا حسدَ إلا في اثنتين: رجلٍ آتاهُ اللهُ مالًا، وسلَّطَهُ علىٰ هَلَكَتِهِ في الحقِّ. ورجلٍ آتاهُ اللهُ القرآنَ، فهو يقومُ به آناءَ الليلِ وأطرافَ النَّهار**»[١].

وأمَّا الغَضَب فهو غُولُ[٢] العَقْلِ، يغتاله كما يغتال الذئبُ الشاةَ، وأعظم ما يفترسه الشيطانُ عند غضبه وشهوته.

فإذا كان حِرْصُهُ علىٰ ما ينفعه، وحَسَدُهُ منافسةً في الخير، وغَضَبُهُ لله وعلىٰ أعدائه، وشهوتُهُ مُستعمَلَةً فيما أبيح له = كان ذلك عونًا له علىٰ ما أُمِر به، ولم تضرَّهُ هذه الأربعة؛ بل ينتفع بها أعظم الانتفاع.

فصل

ص: ٦٣١

حال القلب مع الملك والشيطان

وإذا تأمَّلْتَ حال «القلب» مع المَلَكِ والشيطانِ رأيتَ أعجب العجائب، فهذا يُلِمُّ به مرَّةً، وهذا يُلِمُّ به مرَّةً، فإذا أَلَمَّ به المَلَكُ حدَثَ من لَمَّتِه الانفساحُ، والانشراحُ، والنُّورُ، والرَّحمةُ، والإخلاصُ، والإنابةُ، ومحبَّةُ الله، وإيثارُه على ما سواه، وقِصَرُ الأَمَلِ، والتَّجَافي عن دار البلاء والامتحان والغرور، فلو دامت له تلك الحالة لكان في أَهْنَأ عَيشٍ وأَلَذِّهِ وأَطْيَبِهِ.

ولكن تأتيه لَمَّةُ الشيطان، فتُحْدِثُ له من الضِّيقِ، والظُّلْمةِ، والهَمِّ، والغَمِّ،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٢٥)، ومسلم (٨١٥).

(٢) «الغُولُ»: كلُّ ما اغتالَ الإنسان فأهلكه. «مختار الصحاح» (٥١٠).

والخوفِ، والسَّخَطِ على المقدور، والشَّكِّ في الحقِّ، والحرص على الدنيا وعاجِلِها، والغفلةِ عن الله = ما هو من أعظم عذاب «القلب».

ثُمَّ للنَّاس في هذه المحنة مراتب لا يحصيها إلا الله عَزَّ وَجَلَّ:

فمنهم من تكون لَمَّةُ المَلَك أغلب عليه من لَمَّةِ الشيطان وأقوىٰ، فإذا أَلَمَّ به الشيطانُ وجَدَ من الألَم، والضِّيق، والحَصْر، وسوء الحال بحسب ما عنده من حياة «القلب»، فيُبَادِرُ إلىٰ مَحْوِ تلك اللَّمَّة، ولا يَدَعها تستحكِمُ فيصعب تداركها. فهو دائمٌ بين اللَّمَّتَين، يُدَالُ له مرَّةً، ويُدَالُ عليه مرَّةً أخرىٰ، والعاقبة للتقوىٰ.

ومنهم من تكون لَمَّةُ الشيطان أغلب عليه من لَمَّةِ المَلَك وأقوىٰ، فلا تزال تغلبُ لَمَّةَ المَلَك حتَّىٰ تستحكم ويصير الحكم لها، فيموت «القلب»، فلا يُحِسُّ بما ناله الشيطان، مع أنَّه في غاية العذاب، والألَم، والضِّيق، والحَصْر، ولكنَّ سُكْرَ الشهوة والغفلة حَجَبَ عنه الإحساس بذلك المُؤْلِم.

فإذا كُشِفَ عنه بعض غطائه أدركَ سُوءَ حاله، وعَلِمَ ما هو فيه، فإن استمرَّ له كَشْفُ الغطاء أمكَنَهُ تدارُكُ هذا الدَّاءِ وحَسْمُهُ، وإن عادَ الغطاءُ عادَ الأمر كما كان، حتَّىٰ يُكْشَفَ عنه وقت المُفَارَقَة، فتظهر حينئذٍ تلك الآلامُ، والهُمومُ، والغمومُ، والأحزانُ، وهي لم تتجدَّدْ له، وإنَّما كانت كامنةً فيه، تُوَارِيها الشَّوَاغِلُ، فلمَّا زالت الشَّوَاغل ظهر ما كان كامنًا، وتجدَّدَ له أضعافُه.

فصل

ص: ٦٣٣

طرق دفع إلمام الشيطان بالقلب

والشيطانُ يُلِمُّ بـ«القلب» لِمَا له هناك من جَوَاذِب تجذبه، وهي نوعان: صفات، وإرادات.

فإذا كانت الجَوَاذِبُ صفاتٍ قَوِيَ سُلْطَانُه هناك، واسْتفْحَلَ أمرُهُ، ووجَدَ موطِنًا ومَقَرًّا، فتبقىٰ الأذكارُ والدَّعواتُ والتعوُّذَاتُ التي يأتي بها الإنسانُ حديثَ نفسٍ، لا تدفعُ سلطانَ الشيطان؛ لأنَّ مَرْكبَهُ صفةٌ لازِمةٌ.

فإذا قلع العبدُ تلك الصفاتِ من قلبه، وعَمِلَ علىٰ التَّطهُّرِ منها والاغتسال، بَقِيَ للشيطان بـ«القلب» خَطَرَاتٌ، ووَسَاوِسُ، ولَمَّاتٌ من غير استقرار، وذلك يُضْعِفُه، ويقوِّي لَمَّةَ المَلَك، فتأتي الأذكارُ، والدَّعواتُ، والتعوُّذَاتُ؛ فتدفعه بأسهل شيء.

وأمَّا «القلب» الذي فيه تلك الصفات التي هي مَرْكبه وموطنه، فيقع الذِّكْرُ في حواشيها وجوانبها، ولا يقوىٰ علىٰ إخراج العدوِّ.

ومصداق ذلك تجدُهُ في الصلاة، فتأمَّل الحالَ، وانظر: هل تُخْرِجُ الصلاةُ وأذكارُها وقراءَتُها الشيطانَ من قلبك، وتفرغه كلَّهُ لله تعالىٰ، وتُقِيمُه بين يديه مقبلًا بكُلِّيَّتِهِ عليه، يصلي لله - تعالىٰ - كأنَّه يَرَاهُ، قد اجتمع هَمُّهُ كلُّهُ علىٰ الله، وصار ذِكْرُه، ومراقَبتُه، ومحبَّتُه، والأُنْسُ به؛ في مَحَلِّ الخواطر والوساوس؛ أم لا؟ فالله المستعان.



ص: ٦٣٥

فصل

حفظ القلب من الخطرة

وأوَّلُ ما يطرق «القلبَ»: الخَطْرَةُ. فإن دَفعَها استراحَ ممَّا بعدها، وإن لم يدفَعْها قَوِيَت، فصارت: وَسْوَسَةً، فكان دفْعُها أصعب. فإن بادَرَ ودَفعها، وإلا قويت، فصارت: شَهْوَةً. فإن عالَجَها، وإلا صارت: إرَادَةً. فإن عالَجها، وإلا صارت: عَزِيمَةً.

ومتىٰ وصَلَتْ إلىٰ هذه الحال لم يمكنه دَفْعُها، واقترَنَ بها الفعلُ ولا بدَّ، وما يقدر عليه من مقدِّمَاتِه. وحينئذٍ ينتقل العلاجُ من مقدِّماته إلىٰ أقوىٰ الأدوية، وهو الاستفراغُ التَّامُّ بالتوبة النَّصُوحِ.

ولا ريب أنَّ دفْعَ مبادِئ هذا الدَّاءِ أوَّلًا أسهلُ بكثير من طلب الدواء، وإذا وازَنَ العبدُ بين دَفْع هذا الداءِ من أوَّله، وبين استفراغه بعد حصوله - وساعَدَ القَدَرُ، وأعَانَ التوفيقُ - رأىٰ أنَّ الدَّفْعَ أَوْلَىٰ به.

وإنْ تألَّمَت النَّفْسُ بمفارقة المحبوب، فَلْيُوازِنْ بين فَوَاتِ هذا المحبوب الأَخَسِّ المنقطِعِ النَّكِدِ، المَشُوبِ بالآلام والهموم، وبين فوات المحبوب الأعظم الدائم الذي لا نسبةَ لهذا المحبوب إليه أَلْبَتَّةَ؛ لا في قَدْرِهِ، ولا في دَوَامِهِ وبقائه.

وَلْيُوازِنْ بين أَلَم فَوتِه، وبين أَلَم فَوتِ المحبوبِ الأخَسِّ.

وَلْيُوازِنْ بين لذَّةِ الإنابةِ والإقبالِ علىٰ الله تعالىٰ، والتنعُّمِ بحُبِّهِ، وذِكْرِهِ، وطاعتِهِ؛ ولذَّةِ الإقبال علىٰ الرذائل، والأَنْتَانِ، والقبائح.

وهذا فصلٌ جَرَّهُ الكلام في قوله تعالىٰ: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١]، أشرنا إليه إشارة، لو استقصيناه لاستدعَىٰ عِدَّةَ أسفارٍ، ولكن فيما ذكرناه تنبيه علىٰ ما تركناه. وبالله التوفيق.

فصل

ص: ٦٣٧

رزق الدارين في السماء

ولنرجع إلىٰ المقصود:

ثُمَّ قال الله تعالىٰ: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢].

أمَّا «الرِّزْقُ»: ففُسِّر بالمطر، وفُسِّر بالجنَّة.

فَفُسِّر برزق الدنيا والآخرة، ولا ريب أنَّ المطر من الرَّحمة، وأنَّ الجنَّةَ مستقَرُّ الرَّحمة. فَرِزْقُ الدَّارَين في السماء التي هي في العُلُوِّ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾، قال عطاء: «من الثواب والعقاب».

وقال الكلبي: «من الخير والشَّرِّ».

فصل

ص: ٦٣٨

إقسام الله تعالى على أجل الحقوق

ثُمَّ أقسم - سبحانه - أعظمَ قسمٍ، بأعظم مُقْسَمٍ به، علىٰ أَجَلِّ مُقْسَمٍ عليه، وأكَّدَ الإخبار به بهذا القَسَم، ثُمَّ أكَّدَهُ - سبحانه - بشِبْهِه بالأمر المُحَقَّق الذي لا يشكُّ فيه ذو حاسَّةٍ سليمةٍ، قال تعالىٰ: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات:٢٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يريدُ إنَّه لَحَقٌّ واقعٌ، كما أنكم تنطقون».

وقال الفرَّاء: «إنَّه لَحَقٌّ كما أنَّ الآدميَّ ناطِقٌ»[١].

وقال الزجَّاجُ: «هذا كما تقول في الكلام: إنَّ هذا لحقٌّ كما أنَّك هاهنا»[٢].

---

(١) «معاني القرآن» (٣/ ٨٥).

(٢) «معاني القرآن» (٥/ ٥٤).

قلت: وفي الحديث «إِنَّه لَحَقٌّ كما أَنَّكَ هاهنا»[١].

فشَبَّهَ - سبحانه - تحقيقَ ما أخبر به بتحقيق نطق الآدميِّ ووجوده. والواحدُ منَّا يعرف أَنَّه ناطقٌ ضرورةً، ولا يحتاج نُطْقُهُ إلىٰ استدلالٍ علىٰ وجوده، ولا يُخَالِجُه شَكٌّ في أَنَّه ناطِقٌ. فكذلك ما أخبر الله - سبحانه - عنه من أمر التوحيد، والنبوَّة، والمَعَاد، وأسمائه، وصفاته؛ حقٌّ ثابتٌ في نفس الأمر، يُشْبِهُ ثُبوت نطقكم ووجوده.

وهذا بابٌ يعرفه النَّاس في كلامهم، يقول أحدُهم: هذا حقٌّ مثل الشمس. وأفصح الشاعر[٢] عن هذا بقوله:

وليس يَصِحُّ في الأَذْهَانِ شيءٌ ... إذا احتاجَ النَّهارُ إلىٰ دليل

وهاهنا أمرٌ ينبغي التفطُّنُ له؛ وهو أنَّ الرَّبَّ - تعالىٰ - شَهِدَ بصحة ما أخبر به، وهو أصدق الصادقين، وأقسم عليه، وهو أَبَرُّ المُقْسِمِين، وأَكَّدَهُ بتشبيهه بالواقع الذي لا يقبل الشكَّ بوجهٍ، وأقام عليه من الأدلَّة العِيَانيَّةِ والبُرْهَانيَّة ما جعله مُعَايَنًا مُشَاهَدًا بالبصائر، وإن لم يُعَايَنْ بالأبصار = ومع ذلك فأكثر النُّفوس في غفلةٍ عنه لا تستعِدُّ له، ولا تأخذ له أُهْبَتَهُ.

والمستعِدُّ له، الآخذُ له أُهْبَتَهُ؛ لا يعطيه حقَّه منهم إلا الفَرْد بعد الفَرْد، فأكثر هذا الخلق لا ينظرون في المراد من إيجادهم وإخراجهم إلىٰ هذه الدار، ولا يتفكرون في قِلَّةِ مَقَامِهم في دار الغرور، ولا في رحيلهم وانتقالهم عنها، ولا إلىٰ أين يرحلون؟ وأين يستقرُّون؟ قد مَلَكَهُم الحِسُّ، وقلَّ نصيبُهم من العقل، وشملتهم الغفلة، وغرَّتهم الأمانيُّ التي هي كالسَّرَاب، وخَدَعَهم طُولُ الأمل، فكأنَّ المقيمَ لا يَرْحَل، وكأنَّ أحدَهم لا يُبْعَث ولا يُسْأل، وكأنَّ مع كل مقيمٍ توقيعًا من الله لفلانِ ابن فلانٍ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٩٤)، وحسنه ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٩/ ١٠٩).

(٢) هو المتنبي «ديوانه» (٣٤٣).

بالأَمَانِ من عذابه، والفوزِ بجزيل ثوابه.

فصل

ص: ٦٤٣

التعجب من حال الكفار

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾ [ق:١-٢].

الصحيحُ أنَّ: «ق»، و«ن»، و«ص»؛ بمنزلة «حم»، و«ألم»، و«طس»؛ تلك حروفٌ مُفْرَدَةٌ، وهذه متعدِّدَةٌ، وقد تقدَّمت الإشارة إلىٰ بعض ما قيل فيها[1].

وهاهنا قد اتَّحَدَ المُقْسَمُ به، والمُقْسَمُ عليه؛ وهو: القرآن.

فأقسَمَ بالقرآنِ علىٰ ثبوته وصدقه، وأنَّه حقٌّ من عنده. ولذلك حذف الجوابَ ولم يُصَرِّح به؛ لمَا في القَسَم من الدلالة عليه، ولأنَّ المقصود نفس المُقْسَم به كما تقدَّم بيانه.

ثُمَّ أخذ - سبحانه - في بيان عَجَبِ الكفَّار من غير عَجَبٍ، بل بما لا ينبغي أن يقع سواهُ، كما قال سبحانه: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس:١-٢]، فأيُّ عَجَبٍ من هذا حتَّىٰ يقول الكافرون: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؟ وكيف يُتَعَجَّبُ من رحمةِ الخالقِ عبادَهُ، وهدايتِه، وإنعامِه عليهم بتعريفهم علىٰ لسان رسوله ﷺ بطريق الخير والشَّرِّ، وما هم صائرون إليه بعد الموت، وأمرِهِم ونَهْيِهِم = حتَّىٰ يُقَابَلَ ذلك بالتعجُّبِ، ونسبةِ مَنْ جاء به إلىٰ السِّحْر، لولا غاية الجهل والظلم، بل العَجَبُ كلُّ العَجَب قولُهم وتكذيبُهم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ [الرعد:٥].

---

(١) ينظر: (ص:١٢٧).

ص: ٦٤٥

فصل

قسم الله تعالى بكتابه على صدق رسوله

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿حمٓ ١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢﴾ [الزخرف:١-٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ [ص:١]، وقوله تعالىٰ: ﴿يسٓ ١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣﴾ [يس:١-٣].

والصحيح أنَّ «يس» بمنزلة «حم»، و«ألم»؛ ليست اسمًا من أسماء النبيِّ ﷺ.

وأقسم - سبحانه - بكتابه علىٰ صدق رسوله، وصحَّة نبوَّته ورسالته، فتأمَّلْ قَدْرَ المُقْسِمِ، والمُقْسَمِ به، والمُقْسَمِ عليه.

وقوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ جُوِّزَ فيه ثلاثة أوجهٍ:

١ - أن يكون خبرًا بعد خبر، فأخبر عنه بأنَّه رسولٌ، وأنَّه علىٰ صراطٍ مستقيمٍ.

٢ - وأن يكون حالًا من الضمير في الخبر، أي: من المرسلين كائنًا علىٰ صراطٍ مستقيم.

٣ - وأن يكون متعلِّقًا بالخبر نفسه. تعلُّقَ المعمول بعامله، أي: أُرسِلْتَ علىٰ صراطٍ. وهذا يحتاج إلىٰ بيانٍ وتقديره: المَجْعُولين علىٰ صراطٍ مستقيمٍ. وكونه من المرسلين مستلزِمٌ لذلك؛ فاستغنىٰ عن ذكره.

ص: ٦٤٦

فصل

قسم الله تعالى بالملائكة الصافات

ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ [الصافات:١].

أقسم - سبحانه - بملائكته الصَّافَّات للعبوديَّة بين يديه، كما قال النبيُّ ﷺ لأصحابه: «ألا تَصُفُّونَ كما تَصُفُّ الملائكةُ عند رَبِّها؟ يُتِمُّون الأوَّلَ

فالأوَّل، ويَتَراصُّونَ في الصفِّ»(١)، وكما قالوا عن أنفسهم: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ [الصافات:١٦٥].

والملائكة «الصَّافَّات»: التي تَصُفُّ أجنحَتَها في الهواء. و«الزَّاجِرَاتُ»: الملائكة التي تزجُرُ السَّحَاب وغيرَه بأمر الله، فـ«التاليات»: التي تتلو كلام الله.

وقيل: «الصَّافَّات» الطير، كما قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك:١٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ [النور:٤١]، و«الزَّاجِرَات»: الآيات والكلمات الزاجرات عن معاصي الله، و«التاليات»: الجماعات التاليات كتابَ الله ﷻ.

وقيل: «الصَّافَّات» للقتال في سبيل الله، فـ«الزَّاجِرات» الخيلَ للحمل علىٰ أعدائه، فـ«التاليات» الذاكرين له عند مُلَاقَاةِ عدوِّهم.

وقيل: «الصَّافَّات»: الجماعاتُ الصَّافَّاتُ أبدانها في الصلاة، «الزَّاجِرات» أنفسها عن معاصي الله، فـ«التاليات» آياتِ اللهِ.

واللفظ يحتمل ذلك كلَّه، وان كان أحقَّ من دخل فيه وأَوْلَىٰ الملائكةُ، فإنَّ الإقسام كالدليلِ والآيةِ علىٰ صحَّةِ ما أقسم عليه من التوحيد، وما ذُكِر غير الملائكة فهو من آثار الملائكة، وبواسطتها كان.

وأقسم - سبحانه - بذلك علىٰ توحيد ربوبيَّته وإلهيَّته، وقرَّر توحيدَ إلهيَّتِه بتوحيد ربوبيَّتِه، فقال: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ [الصافات:٤، ٥]، وهذا من أعظم الأدلَّة علىٰ أنَّه إلهٌ واحدٌ، ولو كان معه إلهٌ آخر لكان الإله مشاركًا له في ربوبيَّتِه، كما شاركه في إلهيَّتِه. تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٣٠).

وهذه قاعدة القرآن؛ يقرِّرُ توحيد الإلهية بتوحيد الربوبية، فيقرِّرُ كونه معبودًا وحدَهُ بكونه خالقًا رازقًا وحده.

فصل

ص: ٦٤٩

قسم الله تعالى بحياة رسوله

ومن ذلك قوله - تعالىٰ - في قصة لوط عليه السلام، ومراجعة قومه له: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٠ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٧١ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢﴾ [الحجر:٧٠-٧٢].

أكثر المفسِّرين من السَّلَفِ والخَلَف - بل لا يُعْرَفُ عن السلف فيه نزاعٌ - أنَّ هذا قَسَمٌ من الله بحياة رسوله ﷺ. وهذا من أعظم فضائله؛ أنْ يُقْسِم الرَّبُّ ﷻ بحياتِه، وهذه مزيَّةٌ لا تُعْرَفُ لغيره.

قال ابن عباس ﵄: «﴿لَعَمْرُكَ﴾ أي: وحياتِك». قال: «وما أقسم الله - تعالىٰ - بحياة نبيٍّ غيره»[(١)].

و«العَمْرُ» و«العُمْرُ»: واحدٌ، إلا أنَّهم خَصُّوا القَسَم بالمفتوح لإثبات الأخفِّ، لكثرة دَوَرَان الحَلِفِ علىٰ ألسنتهم.

وأيضًا: فإنَّ «العَمْرَ» حياتُه خُصُوصةً، فهو عُمْرٌ شريفٌ عظيمٌ، أَهْلٌ أنْ يُقْسَمَ به، لمزيَّته علىٰ كلِّ عُمْرٍ من أعمار بني آدم.

ولا ريب أنَّ عُمْرَهُ ﷺ له مَزِيَّةٌ علىٰ عُمْر كلِّ من سواه، والآياتُ التي كانت في عُمْرِه وحياتِهِ من أعظم الآيات، بل عُمْرُهُ وحياتُهُ من أعظم النِّعَمِ والآياتِ، فهو أهلٌ أنْ يُقْسَمَ به، والقَسَمُ به أَوْلَىٰ من القَسَم بغيره من المخلوقات.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَعْمَهُونَ﴾؛ أي: يَتَحَيَّرُون.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٧/ ٥٢٦).

وإنَّما وصف الله - سبحانه - اللُّوطِيَّةَ بالسَّكْرة؛ لأنَّ العِشْقَ له سَكْرةٌ مثلُ سَكْرَةِ الخَمْرِ وأشدُّ، كما قال القائل[1]:

سُكْرَان: سُكْرُ هَوىً، وسُكْرُ مُدَامَةٍ ... ومتىٰ إفَاقَةُ مَنْ به سُكْرَانِ؟

فصل

ص: ٦٥٢

قسم الله تعالى بذاته المقدسة

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥].

أقسم - سبحانه - بنفسِهِ المُقَدَّسَةِ، قَسَمًا مؤكَّدًا بالنفي قبله؛ علىٰ عدم إيمان الخَلْق حتَّىٰ يحكِّموا رسوله في كلِّ ما شَجَر بينهم من الأصولِ، والفروع، وأحكامِ الشَّرْع، وأحكامِ المَعَادِ، ومسائِلِ الصِّفَاتِ وغيرِها.

ولم يُثبِتْ لهم الإيمانَ بمُجَرَّدِ هذا التحكيم حتَّىٰ ينتفي عنهم الحَرَجُ، وهو ضيقُ الصَّدْر، فتنشرح صدورُهم لحُكْمِه كلَّ الانشراح، وتَنْفَسِحَ له كلَّ الانْفِسَاح، وتقبَلَهُ كلَّ القبول.

ولم يُثْبِتْ لهم الإيمانَ بذلك - أيضًا - حتَّىٰ يَنْضَافَ إليه مُقَابَلَةُ حكمه بالرِّضىٰ والتسليمِ، وعدمِ المُنَازَعةِ، وانتفاءِ المعارضةِ والاعتراض.

فهاهنا ثلاثةُ أمورٍ: التحكيم، وانتفاء الحرج، والتسليم.

فلا يلزم من التحكيم انتفاء الحَرَج؛ إذ قد يحكِّم الرجلُ غيرَهُ وعنده حَرَجٌ من حكمه.

---

(١) هو: ديكُ الجِنِّ «ديوانه» (١٩٤).

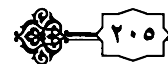
ولا يلزم من انتفاءِ الحَرَج الرِّضا والتسليمُ والانقيادُ؛ إذ قد يحكِّمُه وينتفي الحَرَجُ عنه في تحكيمه، ولكن لا ينقَادُ قلبُه، ولا يرضىٰ كلَّ الرِّضىٰ بحكمه.

فالتسليمُ أخَصُّ من انتفاءِ الحَرَجِ. فالحَرَجُ مانعٌ، والتسليمُ أمرٌ وجوديٌّ، ولا يلزم من انتفاءِ الحَرَجِ حصولُه بمجرَّدِ انتفائه، إذ قد ينتفي الحَرَجُ ويبقىٰ «القلبُ» فارغًا منه، ومن الرِّضىٰ والتسليمِ، فتأمَّلْهُ.

وعند هذا تعلَمُ أنَّ الرَّبَّ - تبارك وتعالىٰ - أقسَمَ علىٰ انتفاء إيمان أكثر الخلق، وعند الامتحان تُعْلَمُ مثل هذه الأمور الثلاثة؛ هل هي موجودةٌ في قلب أكثر من يدَّعي الإسلام أم لا؟

والله - سبحانه - المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله العلي العظيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

آخِره؛ والحمد لله ربِّ العالمين، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد، وآله وصحبه، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا دائمًا إلىٰ يوم الدين.



فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة

فهرس الفوائد

الفائــدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
والمُقْسَمُ عليه يُرَاد بالقَسَم توكيدُهُ وتحقيقُهُ، فلا بدَّ أن يكون ممَّا يَحْسُن فيه ذلك، كالأمور الغائبةِ والخَفِيَّة إذا أُقْسِمَ علىٰ ثبوتها. فأمَّا الأمور المشهودة الظاهرة كالشمس، والقمرِ، واللَّيلِ، والنَّهارِ، والسماءِ، والأرضِ، فهذه يُقْسَمُ بها ولا يُقْسَمُ عليها. وما أقْسَمَ عليه الرَّبُّ – سبحانه – فهو من آياته، فيجوزُ أن يكون مُقْسَمًا به، ولا ينعكس.	١٢	٥
فهو – سبحانه – يُقْسِمُ بـ «الليل» في جميع أحواله، إذ هو من آياته الدالَّة عليه. فأقسم به وقت غشيانه، وأتىٰ به بصيغة المضارع لأنَّه يغشىٰ شيئًا بعد شيء، وأمَّا «النَّهار» فإنَّه إذا طلعت الشمس ظهر وتجلَّىٰ وَهْلَةً واحدةً، ولهذا قال في سورة «الشمس وضحاها»: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ [الشمس:٣، ٤].	٤٥	٨٦
وتفسير النَّاس يدور علىٰ ثلاثة أصول: ١- تفسيرٌ علىٰ اللفظ؛ وهو الذي ينحو إليه المتأخرون. ٢- وتفسيرٌ علىٰ المعنىٰ؛ وهو الذي يذكره السلف. ٣- وتفسيرٌ علىٰ الإشارة والقياس؛ وهو الذي ينحو إليه كثيرٌ من الصوفية وغيرهم. وهذا لا بأس به بأربعة شرائط: ١- أن لا يناقض معنىٰ الآية. ٢- وأن يكون معنىً صحيحًا في نفسه. ٣- وأن يكون في اللفظ إشعارٌ به. ٤- وأن يكون بينه وبين معنىٰ الآية ارتباطٌ وتلازُمٌ. فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان استنباطًا حسنًا.	٥٩	١٢٤

الفائــدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
ثُمَّ أخبر - سبحانه - أنَّما أعدَّ لهم عذابَ جهنَّم وعذابَ الحريق حيث لم يتوبوا، وأنَّهم لو تابوا بعد أن فتنوا المؤمنين وعذَّبُوهم بالنَّار لَغَفَرَ لهم ولم يعذِّبهم، وهذا غاية الكرم والجود. قال الحسن: «انظروا إلىٰ هذا الكرم والجود، يقتلون أولياءه، ويفتنونهم، وهو يدعوهم إلىٰ التوبة والمغفرة».	٦٨	١٤٥
وما ألطف اقتران اسم «الودود» بـ«الرحيم» وبـ«الغفور»، فإنَّ الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبُّه، وكذلك قد يرحم من لا يحبُّه. والرَّبُّ - تعالىٰ - يغفر لعبده إذا تاب إليه، ويرحمه، ويحبُّه مع ذلك، فإنَّه يحبُّ التوَّابين، وإذا تاب إليه عبدُهُ أحبَّهُ ولو كان منه ما كان.	٦٩	١٤٦
وجُمِعَ الشمسُ والقمرُ ولم يجتمعا قبل ذلك، بل يجمعهما الذي يجمع عظام الإنسان بعدما فرَّقَها البِلَىٰ ومزَّقَها، ويَجْمَعُ للإنسان يومئذٍ جميع عمله الذي قدَّمه وأخَّره من خَيرٍ أو شرٍّ. ويَجْمَعُ ذلك من جَمَعَ القرآنَ في صدر رسوله ﷺ، ويجمع المؤمنين في دار الكرامة، فيكرِمُ وجوهَهم بالنظر إليه، ويجمع المكذِّبين في دار الهَوَان، وهو قادِرٌ علىٰ ذلك كلِّه؛ كما جمع خلق الإنسان من نطفةٍ من مَنِيٍّ يُمْنَىٰ، ثُمَّ جعله عَلَقَةً مجتمعة الأجزاء بعدما كانت نطفةً متفرِّقةً في جميع بدن الإنسان، وكما يجمع بين الإنسان ومَلَك الموت، ويجمع بين السَّاق والسَّاق.	١٠٥	٢٣٦
وهذا أَعَمُّ قَسَمٍ وقع في القرآن، فإنَّه يَعُمُّ العُلْوِيَّات والسُّفْلِيَّات، والدنيا والآخرة، وما يُرَىٰ وما لا يُرَىٰ، ويدخل في ذلك الملائكةُ كلُّهم، والجِنُّ، والإنسُ، والعرشُ، والكرسيُّ، وكلُّ مخلوقٍ، وذلك كلُّه من آيات قدرته وربوبيته، وهو - سبحانه - يصرِّفُ الأقسام كما يصرِّفُ الآيات.	١١٥	٢٦٤

الفائـدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
ذكر الله – سبحانه – في كتابه مراتب اليقين، وهيٰ ثلاثةٌ: حقُّ اليقين، وعلمُ اليقين، وعينُ اليقين.	١٢٠	٢٨٤
وقد ضرب بعض العلماء للمراتب الثلاثِ مثالًا؛ فقال: إذا قال لك مَنْ تَجْزِمُ بِصِدْقِهِ: عندي عَسَلٌ أُرِيد أن أُطْعِمَك منه، فصدَّقْتَهُ؛ كان ذلك «علم اليقين»، فإذا أحضره بين يديك صار ذلك «عين اليقين»، فإذا ذُقْتَهُ صار ذلك «حقَّ اليقين».	١٢١	٢٨٦
وجاء في كلِّ موضع ما يناسبه، فجاء في «سورة الرحمن»: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾؛ لأنَّها سورةٌ ذُكِرَتْ فيها المُزْدَوِجَات، فذُكِرَ فيها الخلقُ والتعليمُ، والشمسُ والقمرُ، والنَّجْمُ والشجرُ، والسماءُ والأرضُ، والحَبُّ والثَّمَرُ، والجنُّ والإنسُ، ومادةُ أبي البشر، ومادةُ أبي الجنِّ، والبحرين، والجنَّةُ والنَّارُ، وقسَمَ الجنَّةَ إلىٰ: جَنَّتَين عاليتين، وجَنَّتَين دونهما، وأخبرَ أنَّ في كلِّ جنَّةٍ عَيْنَين؛ فناسب كلَّ المناسبة أن يذكر المشرقين والمغربين.	١٢٣	٢٨٨– ٢٨٩
الصحيح أنَّ «ن» و«ق» و«ص» من حروف الهجاء التي يفتتح الرَّبُّ – سبحانه – بها بعض السور، وهي: أُحادية، وثُنائية، وثُلاثية، ورُباعية، وخماسية، ولم تُجَاوِز الخمسة، ولم تُذكر –قطُّ – في أوَّل سورةٍ إلا وَعَقِبَها يُذْكَرُ القرآنُ؛ إمَّا مُقْسَمًا به، وإمَّا مُخْبَرًا عنه، ما خلا سورتين: سورة «كهيعص»، و«ن».	١٢٧	٢٩٩
وإذا دعاك اللفظ إلىٰ المعنىٰ من مكانٍ قريبٍ فلا تُجِبْ من دعاك إليه من مكانٍ بعيدٍ.	–	٣٢٠
وقع الاعتراض بين القَسَم وجوابه بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾، ووقع الاعتراض بين الصفة والموصوف في جملة هذا الاعتراض بقوله تعالىٰ: ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾، فجاء هذا الاعتراض في ضمن هذا الاعتراض، أَلْطَفَ شيءٍ وأحسَنَهُ موقعًا. وأحسن ما يقع هذا الاعتراض إذا تضمَّنَ تأكيدًا أو تنبيهًا أو احترازًا.	١٣٥	٣٢٣– ٣٢٤

الإحالة في الأصل	رقم الصفحة	الفائـدة
٣٢٤-٣٢٥	١٣٦	ومن أَلْطَفِ الاعتراضِ وأحسَنِهِ قوله تعالىٰ: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل:٥٧]، فاعترض بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ بين الجعْلَين. وفوائد الاعتراض تختلف بحسب قَصْدِ المتكلِّم، وسياق الكلام، من قَصْدِ الاعتناء، والتقرير، والتوكيد، وتعظيم المُقْسَم به، والمخبر عنه، ورفع تَوَهُّمِ خلاف المراد، والجواب عن سؤال مقدَّرٍ، وغير ذلك.
٣٢٨	١٣٦	ومن الاعتراض الذي هو في أعلىٰ درجات الحُسْن قوله تعالىٰ: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ [لقمان:١٤]، فاعترض بذكر شأن حَمْلِهِ وَوَضْعِهِ بين الوصية والمُوصَىٰ به، توكيدًا لأمر الوصية بالوالدة التي هذا شأنها، وتذكيرًا لولدها بحقِّها، وما قاسَتْهُ من حَمْلِهِ وَوَضْعِهِ ممَّا لم يتكلَّفْهُ الأَبُ.
٣٣٠	١٣٧	قال تعالىٰ: ﴿ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ [الواقعة:٧٨]، اختلف المفسِّرون في هذا، فقيل: هو اللوح المحفوظ. والصحيح أنَّه الكتاب الذي بأيدي الملائكة، وهو المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [عبس:١٣-١٦].
٣٣٨	١٣٩	وسمعتُ شيخ الإسلام يقرِّرُ الاستدلالَ بالآية علىٰ أنَّ المصحف لا يمسُّه المُحْدِثُ بوجهٍ آخر، فقال: هذا من باب التنبيه والإشارة، وإذا كانت الصحف التي في السماء لا يمسُّها إلا المطهَّرون، فكذلك الصحف التي بأيدينا من القرآن لا ينبغي أن يمسَّها إلا طاهِرٌ، والحديث مشتَقٌّ من هذه الآية، وهو قوله: «لا تَمسَّ القرآنَ إلا وأنتَ طاهِرٌ» رواه أهل «السنن».

الفائـدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
ودلَّت الآيةُ - بإشارتها وإيمائها - علىٰ أنَّه لا يُدْرِك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة، وحرامٌ علىٰ القلب المتلوِّث بنجاسة الباع والمخالفات أن ينال معانيه، وأن يفهمه كما ينبغي. قال البخاري في «صحيحه» في هذه الآية: «لا يجد طعمه إلا مَنْ آمَنَ به».	١٣٩-١٤٠	٣٤٠
واستَدَلَّ بكونه ربَّ العالَمين علىٰ ثبوتِ رسالة رسوله ﷺ، وصحةِ ما جاء به. وهذا الاستدلال أقوىٰ وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق، وإن كانت دلالتها أقرب إلىٰ أذهان عموم النَّاس، وتلك إنَّما تكون لخواصِّ العقلاء. وقد أشار - سبحانه - إلىٰ الطريقين في غير موضع من كتابه، كقوله تعالىٰ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت:٥٣]، فهذا استدلالٌ بالآيات المُعَايَنَة المخلوقة، ثُمَّ قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾، فهذا استدلالٌ بكمال ربوبيته، وكمال أوصافه؛ علىٰ صدق رسوله فيما جاء به.	١٤١	٣٤٣- ٣٤٤
وتأمَّلْ استدلال سيدة نساء العالَمين خديجة ﵂ بصفات الرَّبِّ تعالىٰ، وصفات محمد ﷺ، واستنتاجها من بين هذين الأمرين صحة نبوَّته، وأنَّه رسول الله حقًّا، وأنَّ من كانت هذه صفاته فصفات ربِّهِ وخالقه تَأْبَىٰ أن يُخزِيَهُ، وأنَّه لا بُدَّ أن يؤيِّدَه، ويُعْلِيَهُ، ويُتِمَّ نعمته عليه.	١٤١	٣٤٤
فهذا استدلالٌ بالفقه الأكبر في الأسماء والصفات علىٰ الفقه العَمَليِّ في باب الأمر والنَّهْي.	-	٣٤٥- ٣٤٦

الفائـدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
ثُمَّ ذكر - سبحانه - ما يتحدَّثون به هناك، وأنَّهم يقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور:٢٦] أي: كُنَّا خائفين في مَحَلِّ الأمن بين الأهل والأقارب والعشائر، فأوصلنا ذلك الخوف والإشفاق إلىٰ أنْ مَنَّ اللهُ علينا، فأمَّننَا ممَّا نخاف ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور:٢٧]، وهذا ضدُّ حال الشقيِّ الذي كان في أهله مسرورًا. فهذا كان مسرورًا مع إساءته، وهؤلاء كانوا مُشْفِقِين مع إحسانهم، فبدَّلَ الله - سبحانه - إشفاقَهم بأعظم الأمن، وبدَّلَ أمن أولئك بأعظم المخاوِف. فبالله المستعان.	١٦٥-١٦٦	٤٢٢-٤٢٣
و«السَّهْو»: الغَفْلَةُ عن الشيء، وذهابُ القلب عنه. والفرق بينه وبين «النِّسْيَان»: أنَّ «النِّسْيَانَ» الغفلةُ بعد الذِّكْر والمعرفة، و«السَّهْو» لا يستلزم ذلك. ثُمَّ قال: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ استبعادًا لوقوعه وجَحْدًا، فأخبر - تعالىٰ - أنَّ ذلك ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾. والمشهور في تفسير هذا الحرف أنَّه بمعنىٰ: يُحْرَقُون، ولكن لفظة «علىٰ» تعطي معنىً زائدًا علىٰ ما ذكروه، ولو كان المراد نفس الحريق لقيل: يوم هم في النَّار يفتنون. ولهذا لمَّا عَلِمَ هؤلاء ذلك قال كثيرٌ منهم: «علىٰ» بمعنىٰ «في»، كما تكون «في» بمعنىٰ «علىٰ». والظاهر أنَّ فتنتهم علىٰ النَّار قبلَ فتنتهم فيها، فَلَهُم عند عرضهم عليها ووقوفهم عليها فتنةٌ، وعند دخولها والتعذيب بها فتنةٌ أشدُّ منها.	١٧٢-١٧٣	٤٣٨-٤٣٩
وكان النبيُّ ﷺ إذا سلَّم من صلاته استغفر ثلاثًا. وأمره الله - سبحانه - أن يختم عمره بالاستغفار. وأمر عباده أن يختموا إفاضتهم من عرفات بالاستغفار. وشَرَعَ ﷺ للمتوضِّئ أن يختم وضوءَهُ بالتوبة. فأحسنُ ما خُتِمَتْ به الأعمالُ: التوبةُ والاستغفارُ.	١٧٥	٤٤٥-٤٤٦

الفائـدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
ومن الآيات التي في الأرضِ ما يُحْدِثُه فيها كلَّ وقتٍ ممَّا يُصَدِّق رُسُلَهُ فيما أخبرَتْ به، فلا تزال آياتُ الرُّسُلِ، وأعلامُ صِدْقِهم، وأدلَّةُ نُبوَّتهم يُحدِثُها الله - سبحانه وتعالىٰ - في الأرض، إقامةً للحُجَّةِ علىٰ مَنْ لم يُشَاهِد تلك الآيات التي قارَبَت عَصْرَ الرسول، حتَّىٰ كأنَّ أهلَ كلِّ قَرْنٍ يشاهدون ما يشاهده الأَوَّلُون أو نظيره، كما قال تعالىٰ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت:٥٣]. وهذه الإِرَاءَةُ لا تختصُّ بقَرْنٍ دون قَرْنٍ، بل لا بدَّ ما يُري اللهُ - سبحانه - أهلَ كُلِّ قَرْنٍ من الآيات ما يبيِّنُ لهم أنَّه اللهُ الذي لا إله إلا هو، وأنَّ رُسُلَهُ صادقون.	١٧٨- ١٧٩	٤٥٦- ٤٥٧
وكما جعل - سبحانه - «العَينَين» مؤدِّيتين «للقلب» ما تَريانه، فتُوصِلانه إليه كما رَأَتَاهُ = جعلهما مرآتين «للقلب»، يظهر فيهما ما هو مُودَعٌ فيه من الحُبِّ والبُغْضِ، والخيرِ والشَّرِّ، والبَلَادَةِ والفِطْنَةِ، والزَّيغِ والاستقامة. فيُستَدَلُّ بأحوال «العين» علىٰ أحوال «القلب»، وهو أحد أنواع الفِرَاسَة الثلاثة، وهي: فراسة «العين»، وفراسة «الأُذُن»، وفراسة «القلب». فـ«العين» مرآةٌ «للقلب»، وطليعةٌ ورسولٌ.	١٨٠	٤٦٠

الفائـدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
جعل - سبحانه - علىٰ «اللِّسان» غَلَقَين: أحدهما: «الأسنان». والثاني: «الفَم». وجعل حركته اختياريَّةً. وجعل علىٰ «العين» غطاءً واحدًا، ولم يجعل علىٰ «الأُذُن» غطاءً؛ وذلك لخطر «اللِّسان» وشَرَفه، وخطر حركاته، وكونه في «الفَمِ» بمنزلة «القلب» في الصَّدْر. وفي ذلك من اللَّطَائف: أنَّ آفةَ الكلام أكثرُ من آفة النَّظَر، وآفةَ النَّظَر أكثرُ من آفة السَّمع. فجعل للأكثر آفاتٍ طبقتين، وللمتوسِّط طبقًا، وجعل الأقلَّ آفةً بلا طبق.	١٨٤	٤٦٧
فإذا كانت هذه قليلًا من كثيرٍ من حكمة الرَّبِّ - تعالىٰ - في «الشُّعُور»، ومواضعها، ومنافعها؛ فكيف بحكمته في: «الرأس»، و«القلب»، و«الكبد»، و«الصَّدْر»، وغيرها؟ ولا تَضْجَر من ذلك، فإنَّ الخَلْقَ فيه من الفقه والحِكَمِ نظيرُ ما في الأمر، فالرَّبُّ - تعالىٰ - حكيمٌ في خَلْقه وأمره، ويُحِبُّ من يَفْقَهُ عند ذلك، ويستدلَّ به عليه وعلىٰ كمال حكمته، وعلمه، ولُطْفِه، وتدبيره، فإذا كان الرَّبُّ - تعالىٰ - لم يَضَعْ هذه الفضلات في الإنسان سُدَىً فما الظنُّ بغيرها؟	١٨٧	٤٨٧

الفائـدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
فتضمَّن الحديثان أمرين ترتَّب عليهما أثَران: سَبْقُ الماءِ، وعلوُّهُ. فتأثير السَّبْقِ في الشَّبَه، وتأثير العُلُوِّ في الإذْكَار والإينَاث، فإن اجتمع الأمران ترتَّبَ عليهما الأثران معًا، وأيُّهما انفرد ترتَّبَ عليه أثره: فإذا سَبَقَ ماءُ الرَّجُل وعَلَا: أذْكَر، وكان الشَّبَهُ له. وإنْ سَبَقَ ماءُ المرأة وعَلَا: آنَثَتْ، وكان الشَّبَهُ لها. وإنْ سَبَقَ ماءُ المرأة؛ وعَلَا ماءُ الرَّجُل: أذْكَرَ، وكان الشَّبَهُ لها. وإنْ سَبَقَ ماءُ الرَّجُل؛ وعَلَا ماءُ المرأةِ: آنَثَتْ، وكان الشَّبَهُ له. ومع هذا كلِّه فهذا جُزْءُ سببٍ ليس بمُوجِب، والسبب المُوجِب مشيئة الله تعالىٰ.	-	٥١٤
ولهذا كان نوعُ الإنسان أعدلَ أنواع الحيوان مزاجًا، لاعتدال غذائه. وكان الاغتذاء بالدَّمِ ولحوم السِّبَاع يُورِث المغتذي بها قوَّةً شيطانيَّةً سَبُعِيَّةً عادِيَةً علىٰ النَّاس. فمن محاسن الشريعة تحريم هذه الأغذية وأشباهها، إلا إذا عارضها مصلحةٌ أرجح منها، كحال الضرورة. ولهذا أكلت النَّصارىٰ لحوم الخنازير، فأورثها نوعًا من الغِلْظَة والقَسْوة، وكذلك من أكل لحوم السِّبَاع والكلاب صار فيهم قوَّة منها. ولمَّا كانت القوَّةُ الشيطانيَّة السَّبُعيَّةُ ثابتةً لازمةً لذوات الأنياب من السِّبَاع حرَّمَها الشارع. ولمَّا كانت القوَّةُ الشيطانيَّةُ عارضةً في الإبل أمر بكسرها بالوضوء لمن أكل منها. ولمَّا كانت الطبيعة الحِمَاريَّةُ لازمةً للحِمَار حرَّمَ رسولُ الله ﷺ لحوم الحُمُر الأهليَّة. ولمَّا كان «الدَّمُ» مَرْكَبَ الشيطان ومَجْرَاهُ حرَّمَهُ الله - تعالىٰ - تحريمًا لازمًا. فمن تأمَّلَ حكمة الله - سبحانه - في خلقه وأمره، وطابق بين هذا وهذا = فَتَحَا له بابًا عظيمًا من معرفة الرَّبِّ - سبحانه - وأسمائه وصفاته.	-	٥٦٦- ٥٦٧

الفائـــدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
وإذا قويت موادُّ الإيمان، ومعرفةِ الله وأسمائه وصفاته، ومحبتِه، ورجائه، والشوقِ إلىٰ لقائه في «القلب» = استغنىٰ بها العبدُ عن كثيرٍ من الغذاء، ووجد لها قوَّة تزيد علىٰ قوَّة الغذاء الحيوانيِّ. فإن كَثُفَت طِبَاعُك عن هذا، وكنتَ عنه بمعزلٍ؛ لاشتغالك بالغذاء الحيوانيِّ وامتلائك به، فتأمَّل حال الفَرِح المسرور بتجدُّدِ نعمةٍ عظيمةٍ، واستغنائه مدَّةً عن الطعام والشراب مع وفور قوَّته، وظهور الدَّمَوِيَّة علىٰ بَشَرَته، وتَغَذِّيه بالسرور والفرح. ولا نسبة لذلك إلىٰ فرح «القلب» ونعيمه، وابتهاج «الرُّوح» بقُرْب الرَّبِّ - تعالىٰ - ومحبته ومعرفته، كما قيل: **لها أحاديثُ من ذِكْرَاكَ تَشْغَلُهَا عن الشَّرَابِ، وتُلْهِيها عن الزَّادِ** وقد قال ﷺ في الحديث المتفق علىٰ صحته: "إنِّي أَظَلُّ عند رَبِّي يُطْعِمُني ويَسْقِيني	-	٥٧٨ - ٥٧٩
فما ابتُلِيَ بصفةٍ من الصفات إلا وجُعِلَ له مَصْرِفٌ ومَحَلٌّ يُنْفِذُها فيه. فجُعِلَ لقوَّة الحَسَدِ فيه مَصْرِفُ المنافسة في فِعْلِ الخير، والغِبْطَةِ عليه، والمسابقةِ إليه. ولقوَّة الكِبْرِ التكبُّرُ علىٰ أعداء الله - تعالىٰ - وإهانتهم، وقد قال النبيُّ ﷺ لمن رآه يختال بين الصَّفَّين في الحرب: «إنَّهَا لمِشْيَةٌ يبغِضُها اللهُ إلا في هذا المَوطِنِ». وقد أمر الله - سبحانه - بالغِلْظَة علىٰ أعدائه. وجَعَلَ لقوَّة الحِرْصِ مَصْرِفًا، وهو الحرصُ علىٰ ما ينفع، كما قال النبيُّ ﷺ: «احرص علىٰ ما ينفعك». ولقوَّة الشهوة مَصْرِفًا، وهو التزوُّجُ بأربع، والتَّسَرِّي بما شاء.	١٩١	٦٢٨ - ٦٢٩

الفائـدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
وهكذا جميع القُوىٰ التي رُكِّبَت فيه، فإنَّها لا تزول، ولا يُطْلَبُ إعْدَامُها؛ وقد ركَبَها اللهُ فيه لمصالح اقتضتها حكمته، فلا يُطْلَبُ تعطيلها، وإنَّما تُصْرَفُ مجاريها من مَحَلٍّ إلىٰ مَحَلٍّ، ومن موضعٍ إلىٰ موضعٍ. ومن تأمَّلَ هذا الموضع وتفقَّه فيه؛ عَلِمَ شدَّةَ الحاجةِ إليه، وعظمَ الانتفاع به.	١٩٢	٦٢٩- ٦٣٠
وإذا تأمَّلْتَ حال «القلب» مع المَلَكِ والشيطانِ رأيتَ أعجب العجائب، فهذا يُلِمُّ به مرَّةً، وهذا يُلِمُّ به مرَّةً، فإذا ألَمَّ به المَلَكُ حدَثَ من لَمَّتِهِ الانفساحُ، والانشراحُ، والنُّورُ، والرَّحمةُ، والإخلاصُ، والإنابةُ، ومحبَّةُ الله، وإيثارُه علىٰ ما سواه، وقِصَرُ الأَمَلِ، والتَّجَافِي عن دار البلاء والامتحان والغرور، فلو دامت له تلك الحالة لكان في أَهْنَأ عَيشٍ وأَلَذِّهِ وأَطْيَبِه. ولكن تأتيه لَمَّةُ الشيطان، فتُحْدِثُ له من الضِّيقِ، والظُّلْمةِ، والهَمِّ، والغَمِّ، والخوفِ، والسَّخَطِ علىٰ المقدور، والشَّكِّ في الحقِّ، والحرص علىٰ الدنيا وعاجِلِها، والغفلةِ عن الله = ما هو من أعظم عذاب «القلب».	١٩٣- ١٩٤	٦٣١
وأَوَّلُ ما يطرق «القلبَ»: الخَطْرَةُ. فإن دَفَعَها استراحَ ممَّا بعدها، وإن لم يدفَعْها قَوِيَت، فصارت: وَسْوَسَةً، فكان دفْعُها أصعب. فإن بادَرَ ودَفَعها، وإلا قويت، فصارت: شَهْوَةً. فإن عالَجَها، وإلا صارت: إرَادَةً. فإن عالَجَها، وإلا صارت: عَزِيمَةً.	١٩٦	٦٣٥
وهذه قاعدة القرآن؛ يقرِّرُ توحيد الإلهية بتوحيد الربوبية، فيقرِّرُ كونه معبودًا وحدَهُ بكونه خالقًا رازقًا وحده.	٢٠٢	٦٤٨